مكتبة
t.me/soramnqraa

باسم خندقجي

قِناع بلَون السَّماء

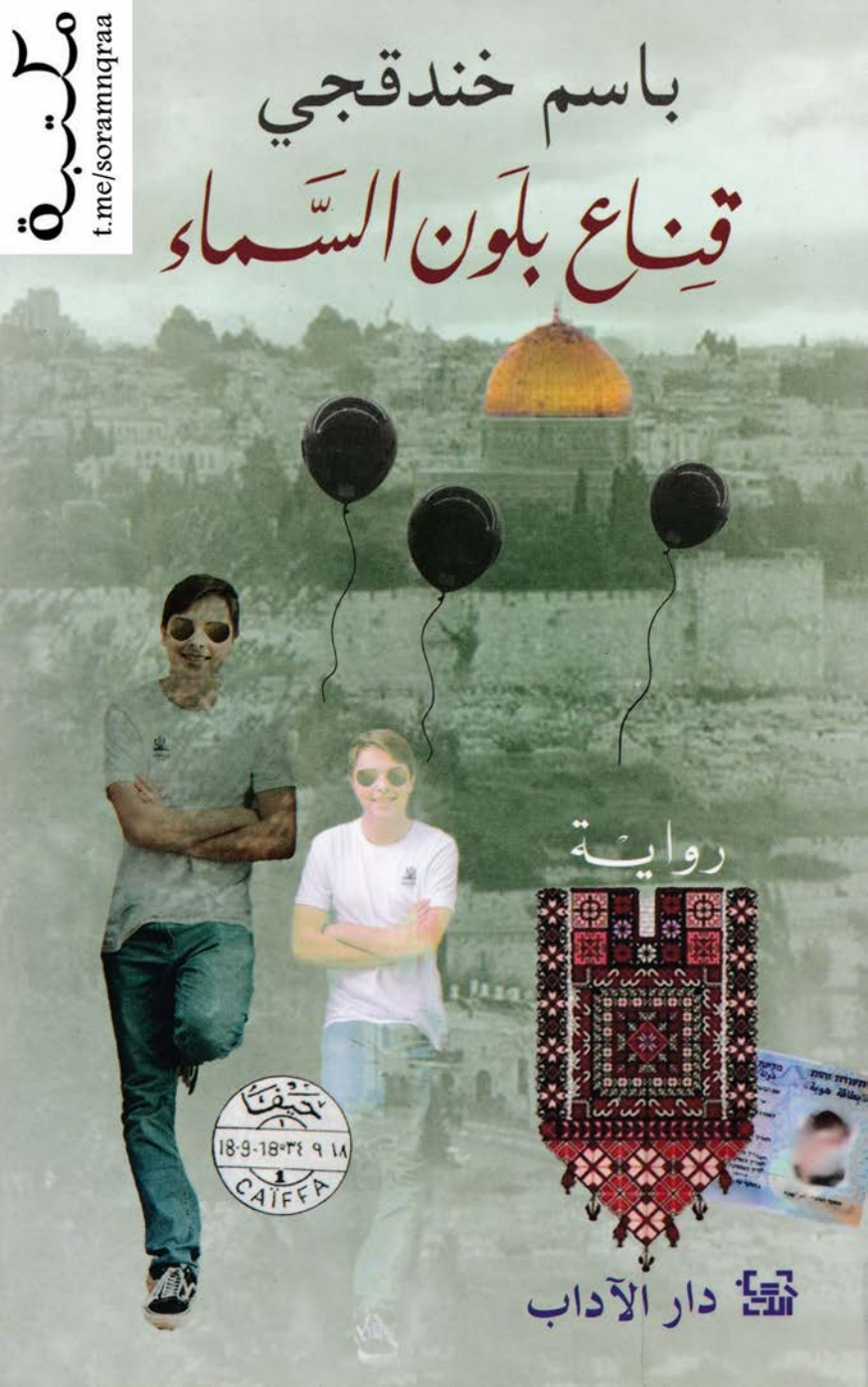

رواية

دار الآداب

نور عالِمُ آثارٍ يُقيم في مخيَّمٍ في رام الله.

ذات يوم، يجد هويَّةً زرقاء في جيب معطفٍ قديم، فيرتدي قناع المُحتلّ في محاولةٍ لفهم مفردات العقل الصهيونيّ.

في تحوُّلِ «نور» إلى «أور»، وفي انضمامه إلى بعثة تنقيبٍ إحدى المستوطنات، تتجلَّى فلسطين المطمورة تحت التربة بكلِّ تاريخها.

الجديد، بين الهويَّة الزرقاء والتصريح، بين السرديَّة الأصليَّة المهمَّشة والسرديَّة المختلقة السائدة.

هل سينجح نور في إلقاء القناع والقضاء على أور، علَّه يصل إلى النور؟

باسم خندقجي كاتبٌ فلسطينيٌّ صدرت له عن دار الآداب رواية «خسوف بدر الدين».

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الآداب

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

قناع بلون السماء

باسم خندقجي

مكتبة
t.me/soramnqraa

قناع بلون السماء

رواية

دار الآداب

قناع بلون السماء
باسم خندقجي / كاتب فلسطينيّ
الطبعة الأولى عام 2023
ISBN 978-9953-89-738-7

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيِّ جزءٍ منه، أو تخزينِه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقلِه بأيِّ شكلٍ من الأشكال، من دون إذنٍ خطّيٍّ مسبَّق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة
موقعنا www.daraladab.net
يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكتروني:
info@daraladab.net
rana.adab@gmail.com

Facebook: Dar Al Adab   Instagram: @daraladab   Twitter: @DarAlAdab

إهداء

إلى عمِّي خالد. . رفيقي العتيق المبدئيّ دومًا،
وإلى عمَّتي نادية إبنة حارة الياسمينة القويَّة أبدًا.

باسم

القسم الأوَّل

نـــور

«غنَّيت كي أزِن المدى المهدور
في وجع الحمامة
لا لأشرح ما يقول الله للإنسان،
لستُ أنا النبيّ لأدَّعي وحيًا
وأعلنُ أنَّ هاويتي صعود.»

(محمود درويش: جداريَّة)

الفصل الأوَّل

[البطاقة الصوتيَّة رقم 12: الاثنين 19 نيسان ـ 2021 فجر السابع من رمضان: في سبيل الرواية:

إثر فشلي الذريع ومحاولاتي اليائسة في تقصِّي وإثبات السيرة التاريخيَّة لمريم المجدليَّة إبَّان كرازة يسوع الناصريّ ابن مريم في فلسطين الرومانيَّة، وبعد فترةٍ طويلةٍ من الانقطاع والإحباط واليأس، آن لي ألَّا أُحيل جهدي الدؤوب الذي مارسته على مدار أكثر من خمس سنواتٍ في عالم المجدليَّة التاريخيّ والدينيّ السرِّيّ إلى هباءٍ منثور، لا يمكنني القيام بهذا، لن أسمح لدان براون وكلّ الكؤوس المقدَّسة التي شُربت بصحَّة رواية «شيفرة دافنشي» أن يتطاولوا على المجدليَّة بترَّهاتهم ويسرقوا سيرتها منِّي؛ لهذا، فإنَّني سأحاول إعادة قراءة قاعدة البيانات والمعلومات التي أعددتها في سبيل بحثٍ علميٍّ تاريخيٍّ أثبت فشله بسبب العديد من العراقيل والتحدِّيات، من أهمّها: الحضور الباهت وشبه

المعدوم للمجدليَّة في متون التاريخ الرسميّ، والتاريخ المسكوت عنه، أيضًا.

بلى، بعد كلّ هذا الاستنزاف والإرهاق والانفصال عن الواقع سأحاول فعل الرواية، سأرتكبها بكلِّ ما أوتيت من مرَّةٍ أولى وتخيّل، سأردّ على الخيال بمثله وأكثر. فما التاريخ في النهاية سوى تخيّلٍ مُعقْلَن!

لكنْ، كيف سأكتب الرواية؟ وما الأسلوب الذي سأعتمده؟

وما عنوانها؟ وهل سأتمكَّن من نشرها في هذه البلاد عديمة الأدب والنشر؟

إنَّ اطِّلاعي الأخير والمكثَّف على مجموعةٍ من الروايات والدراسات الأدبيَّة النقديَّة، عزَّز لديَّ هذا التوجُّه الروائيّ، غير أنَّني بحاجةٍ إلى لغةٍ مُرهَفةٍ متينة؛ لكي تحمل سيرة المجدليَّة الروائيَّة، وقد فكَّرت مليًّا اعتماد مساريْن زمنيَّيْن، زمن الماضي التاريخيّ، وزمن الحاضر؛ تيمُّنًا برواية أليف شافاق «قواعد العشق الأربعين». إنَّ هذا الأسلوب يناسبني كثيرًا وأشعر أنَّه سلس وانسيابيّ.

أمَّا الأبطال، فإنَّ البطل الرئيس في الزمن الحاضر سيكون أستاذًا جامعيًّا باحثًا في الآثار.. لا.. إنَّ في هذا تقليدًا مبتذلًا لدان براون ورواياته، لهذا قد يكون البطل روائيًّا يسعى في كتابة رواية عن المجدليَّة، فيقوم باختراع قصَّة عن صندوقٍ غامضٍ يحتوي على كنزٍ أو أشياءَ تخصّ المجدليَّة، لا أعلم ما هذه الأشياء الآن! ولكنِّي سأتخيَّلها فيما بعد. وعلى هذا الأساس،

يخوض الروائيّ سلسلةً من المغامرات والأحداث، سيكون الروائيّ، أيضًا، فلسطينيًّا من حيفا أو يافا أو الناصرة، أي من الفلسطينيِّين الذين صمدوا في أرضهم خلال النكبة. وبالتالي، سأجعله يستفيد من مزايا هويَّته الزرقاء الإسرائيليَّة فيما يتعلَّق بسهولة التجوُّل والحركة في المواقع الآثاريَّة المتناثرة في البلاد؛ وإلى جانب شخصيَّة البطل الرئيس، سأضع شخصيَّة أنثويَّة محوريَّة.. لحظة.. اسم الروائيّ سيكون نسيم شاكر.. إنَّه اسم جذَّاب لروائيّ.. بجانبه ستكون البطلة صحافيَّةً أو باحثةً تاريخيَّة.. لحظة.. عمر الروائيّ 42 عامًا.. سنّ مناسبة وناضجة لرجلٍ وسيم الملامح، أعزب.. أمَّا البطلة فهي صديقته منذ أيَّام دراستهما في الجامعة معًا، ولم يُوفَّقا توحّدًا بزواجٍ هانئ، فتزوَّجت هي ثم انفصلت عن زوجها وعادت لنسيم.. اسم البطلة مرام.. جمالها به فتنةٌ وألم.

سأجعلهما يمارسان الحبِّ في بعض مراحل الرواية سعيًا وراء الإثارة. مع الانتباه لعدم الإفراط باستخدام الجنس، فأنا أريد الإثارة وليس الشَّبَق والإباحة.

وفي المسار الزمنيّ التاريخيّ، ستكون المجدليَّة بطلتي الرئيسيَّة وإلى جانبها عدد من التلاميذ والرسل، أهمّهم بطرس ويوحنَّا ولاوي.. لحظة.. التعيين الزمنيّ والتاريخيّ للرواية هو بعد صلب يسوع وظهوره الأوَّل في رؤيا لمريم المجدليَّة. كما أنَّني سأضع شخصيَّةً محوريَّةً متخيَّلة، هي: سمعان الأعرج، أهمّ مُريدي المجدليَّة ومن حلقتها السرِّيَّة الخاصَّة.. كما يجب الأخذ بعيْن الاعتبار احترام المشاعر الدينيَّة المسيحيَّة، إضافةً إلى عدم

الإفراط في إقحام بياناتٍ تاريخيَّةٍ ودينيَّةٍ وغنوصيَّةٍ في المتن الروائيّ، وذلك مراعاة للتفاوت في ثقافة قرَّائي وقارئاتي المحتملين والمحتملات، ومن الجيِّد، أيضًا، من جهة أخرى بلورة دوافع العمل الأدبيّ ودراسته لناحية شخصيَّة البطل، أي ما الذي يدفعه للخوض في مسيرة المجدليَّة! وما هي التحدِّيات والعراقيل أمامه؟

ملاحظة:

لقد أزعجني مراد بسبب استخفافه بجهدي البحثيّ، أزعجني كثيرًا.

أنهى تسجيل البطاقة الصوتيَّة على هاتفه المحمول بزفرةٍ حارَّة، ثم نظر إلى الساعة أمامه. ساعة ونصف الساعة لكي يغفو قبل موعده الصباحيّ المرتقب.

* * *

الأزقَّة..

أزقَّة المخيَّم تُطبق عليه، تُحيط به، تدنو منه، وهو يخترقها رغمًا عنه بخطاه السريعة. أزقَّةٌ تسيء لصباحاته، وهذا الصباح ليس استثناءً. فنداه صدأ يكسو تطلُّعه هو الشابّ الثلاثينيّ الذي بات يهرول الآن، سعيًا وراء اللحاق بموعده الصباحيّ المرير.

يحثّ خطاه «نور مهدي الشَهْدي»، ابن هذا المخيَّم ـ وكلّ المخيَّمات سواء. فما الحاجة إلى الأسماء! هكذا كان يقول في بوْحه الداخليّ مع نفسه لا مع الآخرين من حوله، بعد أن آثر الصمت منذ طفولةٍ زقاقيَّةٍ إسمنتيَّة لم يولد ويترعرع فيها بل وُلد منها.

كان يعتقد أنَّه وُلد من الزقاق، من رحم خفيَّةٍ فيه لا يُدركها سوى المنكوب منذ الصرخة الأولى، رحم يُولد منها ليتقن اليُتم على أصوله، هو المفجوع والمكلوم والكاتم والمكتوم والتائه والمغترب الذي وُلد جاهزًا مُجهَّزًا بكلِّ عتاد البؤس المتاح وغير

المتاح في هذه الأزقَّة، فما الحاجة إلى الأسماء إذن؟

ليس ثمَّة معنى لاسم المخيَّم الفلسطينيّ إلَّا عندما تُرتكب فيه المجزرة، ليصبح اسمًا من أسماء المآسي في تاريخ الإنسانيَّة، يصبح اسمه مخيَّم تلّ الزعتر أو صبرا أو شاتيلا أو جنين أو الشاطئ. وأمَّا مخيَّمه هو فلم تُرتكب فيه بعدُ أيّ مجزرة تُذكر. هذا هو الفرق أيضًا ما بين المخيَّم و«الغيتُّو» اليهوديّ في أوروبا. الفرق في القدرة على أسطرة المأساة والإمعان في تخيُّلها؛ هم أسطروا وتخيَّلوا كما يجب إلى الحدِّ الذي خلقوا فيه مخيَّمًا وشتاتًا ولجوءًا لنور وأمثاله، أليس هذا ما كان يتوخَّاه إلياس خوري في روايته «أولاد الغيتُّو»؟ هكذا تساءل نور في بوْحه وهو يقبض يده على كيس يحتوي كتابيْن؛ الأوَّل: «فانون والمخيَّلة ما بعد الكولونياليَّة» لنايجل سي. غبسون، ورواية «أولاد الغيتُّو.. اسمي آدم» لإلياس خوري. ثم يتساءل مرَّةً أخرى قبل أن يبزغ من الزقاق الأخير المؤدِّي إلى شارع القدس المؤدِّي إلى مدينة البيرة: «هل سيغدو المخيَّم بعد سبعين عامًا أو أكثر من أكبر المواقع الأثريَّة التاريخيَّة في العالم الدالَّة على عمق عقلنة التوحُّش الإنسانيّ؟»

يتساءل، وهو الباحث المختصّ في التاريخ والآثار، خرِّيج المعهد العالي للآثار الإسلاميَّة التابع لجامعة القدس، ثم يُجيب بتساؤلٍ ساخرٍ آخر: «هل ثمَّة أحد سواي في هذا المخيَّم ذي الثمانية آلاف لاجئ ولاجئة قد التحق مثلي بمعهد الآثار؟ ما للمخيَّم والآثار؟!»

ها هي في آخر الزقاق تنتظره، ها هي بهالتها النورانيَّة تنظر

إليه وهو يقترب منها في هذا الصباح النيسانيّ المطعَّم بنهار رمضانيّ تباركه هذه المرأة الطاعنة بالصبر والصمود، يدنو منها، يكتم أنفاسه المتلاحقة، ثم ينحني ليُقَبِّلَ يدَها بتحيَّةٍ صباحيَّة، فتبادله هي بصوتها المُتهدِّج تحيَّةً صباحيَّةً مزدانةً بآمالها وصلواتها:

ـ صباح النور يا «أبو نورا».

كم كان يكنْ ويستكين بسماع اسمه وكنيته حين تكسوه بها! كم كان بحاجةٍ إلى كلِّ هذا الدفء المستمدّ منها! هي الحاجَّة فاطمة الموسى «أمّ عدليّ»، المرأة الستِّينيَّة بوجهٍ يقاوم الزمن والأزقَّة ببدر ممتلئٍ كسا وجهها، لِمَ لا؟ فهي تستعدّ الآن والشوق يعبق بداخلها، فبعد قليلٍ ستمضي للزيارة، زيارة ولدها المحكوم بالسجن المؤبَّد مدى الحياة، المعتقل منذ عشر سنوات في غياهب المعتقلات الصهيونيَّة، بتهمة تخطيط عمليَّات إطلاق نار ضدَّ جنود الاحتلال وتنفيذها، ولدها الأصغر مراد، صديق نور الأوحد في هذا العالم.

يتأمَّلها نور قبل أن يشرعا بعبور الشارع نحو مدخل البيرة، حيث مقرّ الصليب الأحمر الدوليّ، وأمامه الحافلة المركونة التي ستقلّ أهالي الأسرى لزيارة أبنائهم في معتقلات الاحتلال الصهيونيّ، وهي عشرُ دقائق مدَّة المسير ومرافقة أمّ عدليّ التي تأبَّطت ذراعه لحين بلوغ الحافلة، عشر دقائق ليستعيد أمّه من خلالها وذاكرته المشتركة مع صديقه مراد، ولكي تمرِّن ساقيْها وجريان الدم في عروقها قبل ركوب الحافلة لمدَّة لا تقلّ عن أربع ساعات في الذهاب وأربع أُخر في الإياب، هي رحلة الشتاء

والصيف كما يصفها مراد في رسائله لنور؛ «رحلة الشتاء والصيف يا صديقي التي لا تتعب ولا تهن بها أمِّي من أجل أن تراني من وراء الزجاج العازل للمشاعر لمدَّةٍ لا تزيد عن خمسٍ وأربعين دقيقة في الشهر، فإذا ما قمتُ أنا بحسم الإغلاقات التي يفرضها علينا الاحتلال بحجَّة الحفاظ على الأمن خلال فترة أعياده القوميَّة والدينيَّة، فإنَّني لن أرى أمِّي في العام الواحد سوى 450 دقيقة أو أكثر أو أقلّ قليلًا. هناك أعيادٌ يا صديقي نحتفل بها أو ندَّعي ذلك، وهناك أعيادٌ يُحتفل بها علينا، على وقتنا، إنَّه حتْف الوقت الذي ما يفتأ الاحتلال يحيكه لنا بكلِّ أناةٍ وصبر، ففي عيده القوميّ أو الدينيّ يقوم باحتجازنا في زمنٍ مغلق خارج زمنه لحين انتهائه من صلواته وشعائره، ومن ثم يفرج عنَّا لبعض الوقت، وقتٍ وزمنٍ لا يمتّ بأيِّ صلة لزمن العالم. إنَّه زمنٌ آخر، زمنٌ مغاير».

يتفقَّدها نور قبل المسير، يسألها عن صحَّتها وإذا ما كانت قد تسحَّرت جيِّدًا قبل الإمساك عن الطعام والشراب والشروع بالصيام، وهل كمامتها الطبِّيَّة جديدة أم لا، بالإضافة إلى معقِّم الكفَّيْن الكحوليّ، في ظلِّ هذه الجائحة الملعونة «فيروس كورونا»، فتجيبه بالإيجاب، وهي تستند على كتفه، مؤكِّدةً إتِّكالها على الله الذي سخَّر لها المطعوم المضادّ للفيروس لتتمكَّن من زيارة مراد.

بعد قليل، ستستقلّ الحاجَّة أمّ عدليّ الحافلة، في طريقها لزيارة ولدها، وفيما تبقَّى من الدقائق العشر ـ الوقت المتاح لهذا المسير، لا يخشى نور من إندلاق ذاكرته عليه.

إذ تحاصره، تخترقه، تراقصه تانغو، خطوتان للوراء وأخرى للأمام وبالعكس. يُغريها هو بصمته المعهود، صمته المجنون الذي تدرَّب عليه منذ نعومة أظفاره في طيَّات أسرة بائسة تحترف الصمت.

تنتزعه ذاكرته من لحظاته الصباحيَّة هذه، إلى ذلك المساء الرمضانيّ الواقع في أواسط آب 2011، وذلك عندما كان هو ومراد يتسكَّعان في سوق المخيَّم وأزقَّته للقضاء على ما تبقَّى من لحظات يعقبها موعد أذان المغرب والإفطار، حيث قام مراد بدعوة نور إلى وليمةٍ رمضانيَّةٍ فاخرة تتدلَّل على مائدتها أكلته المفضَّلة أوراق العنب المحشوّة بالأرزّ ولحم الضأن، كانا على أشدّ الظمأ، هلكهما آب بقيظه وجفافه وهما في طريقهما إلى بيت أمّ عدليّ، في الوقت الذي شرعت فيه حركة المارَّة تهدأ تدريجيًّا مع قرب موعد الإفطار، وأمَّا الدعوة فقد كانت مميَّزة؛ لأنَّها كانت على شرف التحاق نور بالجامعة بعد أكثر من عاميْن من العمل والكدح الشاقّيْن؛ لكي يوفِّر تكاليف الحياة الجامعيَّة وأقساطها، الطارئة عليه:

ـ ألم تجد مساقًا سوى التاريخ والآثار لكي تتخصَّص به؟ سأله مراد بتهكُّمٍ خفيف، فأجابه نور متجنِّبًا ذلك:

ـ بل لم أجد ما أُفتن به سوى التاريخ والآثار.

كان مراد يدرك، تمامًا، أنَّ النقاش مع نور أنفاسه قصيرة ومحدودة بكلماتٍ معدودة، مصيرها المحتوم صمتٌ له هيبةٌ وجلالة.

مراد الذي كان مثل صديقه يحلم، أيضًا بالالتحاق بالجامعة، لكن ليدرس الحقوق، لعلَّه يغدو محاميًا بارعًا له نزاهته وحنكته؛ لما يتمتَّع به من لسان معسول بالبلاغة، والجرأة المجبولة، وبقدرته العالية على التهكُّم في أصعب الظروف والمواقف. وأمَّا نور فكان دافعه قد نشأ لدراسة التاريخ والآثار، حين أمَّن له أحد متعهِّدي العمَّال من فلسطينيّ القدس المحتلَّة عملًا لمدَّة أسبوعيْن، يتمثَّل في نقل وغربلة الأتربة في موقعٍ آثاريّ يقع غرب القدس، تشرف على التنقيب فيه إحدى الجامعات الأميركيَّة.

مسَّه شغف الأرض حينذاك، عندما عثر في خباياها على قطعٍ فخَّاريَّة، وأختام، ومجسَّماتٍ، وعملات، دُفنت في التراب منذ آلاف السنين. مسَّته الأرض ببوْحها السرِّيْ، هي التي لا تثرثر بأسرارها إلَّا للذين ينجحون بمداعبتها بأناملهم الخبيرة، دغدغةً لطيفةً مخبَّأة بالصبر والهدوء والعناد لكي ترتعش بالنهاية صارخةً بأسرارها.

تساءل مراد مرَّةً أخرى مبالغًا في تهكُّمه هذه المرَّة قبل أن يتوغَّلا في الزقاق الأخير المؤدِّي إلى بيته:

ـ وبالطبع، أبوك سعيدٌ بعزمك على دراسة التاريخ والآثار؟

التفت إليه نور بحدَّةٍ هذه المرَّة، بعد أن جذبته بشدَّة من صمته سخرية مراد اللاذعة، غير أنَّه ريثما عاد إلى ملكوت سكونه مجيبًا بهدوء:

ـ لا أعلم إذا ما كان سيسعد لو أخبرته بهذا!

صفَّر مراد بتعجُّبٍ أرفقه باستنكار:

ـ ألم تقل له بعد؟

وقبل أن يُجيب نور، وقعت الواقعة التي خطَّطت لها قوَّة خاصَّة لجيش الاحتلال الصهيونيّ، وعملت على تنفيذها بإتقان؛ إذ تنكَّر بعض أفرادها بملابس نسائيَّة، فانتزعت القوَّة مراد بسرعة البرق من حواره مع نور وأزقَّة المخيَّم وبيته وطفولته وشبابه وذكرياته ومائدة أمّه المزدانة بأكلة ورق العنب. اختطفوه في غمضة عيْن. اختفى أمام جفول نور وصمته ورعبه ممَّا حدث، وما حدث لم يدركه إلَّا عندما سمع، وهو يختبئ في زقاقٍ إسمنتيٍّ ضيِّق، دويَّ القنابل الصوتيَّة وأزيز الرصاص، أثناء تغطية انسحاب القوَّة الخاصَّة التي اختطفت صديق عمره، كما تناهى إلى مسامعه، أيضًا، عويل أمّ عدليّ ونحيبها، إذ كانت منذ لحظات تمسك بيديْها أطباق الطعام الشهيّ.

ومنذ ذلك المساء الكارثيّ، لم يعد نور على قيد الالتزام بصيام شهر رمضان، بل على قيد صمتٍ ذي إمعانٍ مزمن، كما لم تعد أمّ عدليّ تُعِدُّ أكلة أوراق العنب في مطبخها. أمّ عدليّ التي تطيح الآن برقصة ذاكرته متساءلةً بصوتها الحنون سؤالها المعتاد الذي لم تيأس من ترديده يومًا:

ـ متى سأهنأ بتحرُّر مراد حتى أزوِّجكما سويًّا في عرسٍ واحد؟

فيُجيبها مدَّعيًا الأمل والتفاؤل:

ـ قريبًا يا خالتي.. قريبًا.

ثم كعادتها شرعت تشدّ من عزيمة دعواتها بالترحُّم على أمّ

نور «نورا كرادنة» التي قضت بعد إنجابه بلحظات متأثّرةً بنزيفٍ حادٍّ لم يرأف بطفلها البكر وبعمرها الذي لم يتجاوز العشرين عامًا حينذاك، لتتغنَّى الحاجَّة أمّ عدليّ بجمال نورا، وزُرقة عينيْها، وشُقرة شعرها، وبياضها، وحُسنها، وشاماتها ونمشها.. شمس اللدّ التي لم تُشرق عليها يومًا كانت أمّك يا نور، أجمل بنات حارة اللدّ. لم يرث ذكرياتها بل بهاءها الظاهر بإطلالته الوسيمة، ورث زُرقة عينيْها وبياضها، وأمَّا الشعر فطويل أجعد يتراوح ما بين اللونيْن البنّيّ والعسليّ، وارثًا عن أبيه لحيةً كثَّة شابتها حُمرةٌ طفيفة، وقوامًا طويلًا ممشوقًا.

غير أنَّ هذه الإطلالة المرفقة بشخصيَّته الجذَّابة هي التي منحته، ولعنته ربَّما، ألقابًا ومسمَّياتٍ متعدِّدة تردَّدت أصداؤها في أزقَّة المخيَّم.. «أبو نورا».. «الأجنبيّ».. «الأميركيّ» و«السكناجيّ»[1]. يكبس على الكيس طاردًا أصداء هذه الكنية الأخيرة من رأسه. وفي الكيس كتابان، وبأحدهما رسالة هرَّبها نور، ما بين السطور، لصديقه مراد، كلمات كتبها بقلم رصاص باهت وبخطٍّ صغير حتى لا يعثر عليها السجَّان أثناء تفحُّصه الروتينيّ للكتاب؛ ليتأكَّد من خلوِّه من أيِّ خطر وجوديّ قد يزلزل أمن كيانه. كتابة الرسائل بهذه الطريقة كان قد علَّمه إيَّاها مراد عندما قام هذا الأخير باستغلال عمليَّة استبدال الكتب الجديدة بالقديمة، أثناء الزيارة الشهريَّة، لتبادل الرسائل السرِّيَّة؛ مراد الذي

(1) «تعبير بالعامِّيَّة يُطلق على اليهود المتديِّنين من ذوي الملامح البيضاء والشقراء. وهو محرَّف من كلمة أشكنازيّ العبريَّة التي يُنسب لها اليهود من ذوي الأصول الأوروبيَّة».

استغلَّ أيضًا درب آلامه الاعتقاليَّة، ليُحيلها إلى درب معرفةٍ وثقافةٍ تؤدِّي به إلى الحرِّيَّة، حرِّيَّته الداخليَّة على الأقلّ.

«السجن كثافة يا صديقي نور.. السجن كثافة.. عبارة أطلقها محمود درويش في فضاء زنزانته الأولى أثناء حنينه لقهوة أمّه وخبزها.. لم ألتقط أسرار العبارة إلَّا عندما اشتدّ عودي في المعتقل».

هكذا قال لنور في إحدى رسائله، لتؤدِّي به الكثافة في النهاية إلى التحاقه ببرنامج البكالوريوس الخاصّ بالأسرى في سجون الاحتلال الصهيونيّ، ليتخرَّج حاملًا شهادة في العلوم السياسيَّة، ألحقها بعد عدَّة سنوات بشهادة الماجستير في الدراسات الإسرائيليَّة من كلِّيَّة الدراسات العليا التابعة لجامعة القدس.

واجه مراد حديدَ المعتقل بإرادته الفولاذيَّة، وهزم غربته المريرة بالأمل المتدفِّق من حبر قلمه؛ ليبارز الحرمان والانتزاع الحادّ والمُمنهج للإنسانيَّة من زمنها ومكانها. أدرك مراد الكثافة لدرجة أنَّه عاتب نور في رسالته الأخيرة بسبب انشغاله التامّ بسيرة مريم المجدليَّة، وعدم انهماكه بقضايا معاصرة بحاجةٍ للبحث. مراد الذي يحاكم الأمور من زاويته، لم لا؟ فهو المنهمك الآن بإعداد دراسةٍ بحثيَّةٍ حول البنية الكولونياليَّة للنظام الصهيونيّ. كان يريد لصديقه الالتحاق مثله، بالاشتباك مع محدِّدات الاحتلال السرديَّة والفكريَّة، دون أن يعلم أنَّه هو من أوقد في صدر نور نيران مريم المجدليَّة عندما طلب منه قبل عدَّة سنوات رواية «شيفرة دافنشي» لدان براون، وكتاب «الدم المقدَّس والكأس

المقدَّسة» لميشيل بيجنت، إذ كانت عادة نور قراءة معظم الكتب التي كان يوصيه عليها مراد، بما فيها الكتب والدراسات الخاصَّة بالكيان الصهيونيّ، علمًا أنَّه كان قد شاهد رواية «شيفرة دافنشي» فيلمًا سينمائيًّا من بطولة توم هانكس، بيد أنَّ النصّ أشعله أكثر، ليقوده إلى اقتفاء أثر حقيقة المجدليَّة، أليس هو الباحث والمشغوف بالتاريخ والآثار؟ أليس هو مَن أنجز مشروع تخرُّجه في الجامعة ببحثٍ مميَّزٍ عن ثورة باركوخبا التي اندلعت بعد صلب يسوع المسيح بمئة عام في الحقبة الرومانيَّة؟

أشعلته قدرة الخيال الجبَّارة على الإطاحة بالتاريخ عن متن الحقيقة والمعقول، فهل كان يتخيَّل دان براون التاريخ أم كان يخاتله؟ ما الذي فعله بالمجدليَّة؟ ما الذي فعله بنور حتى يدفعه إلى البحث طيلة السنوات الخمس الماضية في سيرة المجدليَّة؟ لماذا ينتزع كاتبٌ أجنبيٌّ المجدليَّة من سياقها التاريخيّ الجغرافيّ الفلسطينيّ ليُلقي بها في مهاوي الغرب؟ لماذا؟!

تلوح الحافَّة من بعيد بيضاءَ في هذا الصباح الخالي من المارَّة. الشوارع خاوية على عروشها سوى ذوي الأسرى الذين نفضوا عنهم أمسيتهم الرمضانيَّة ونعاسهم وتعبهم؛ ليمضوا بكلِّ التفاني والأشواق إلى زيارة أبنائهم وبناتهم المعتقلين والمعتقلات في سجون الاحتلال.

لا حياة في رام الله والبيرة هذا الصباح. لا حياة إلَّا لذوي الأسرى وأنفاس أمّ عدليّ الثقيلة، وخمس دقائق هي كلّ ما تبقَّى لبلوغ الحافلة. يلتفت إليها، يتأمَّلها بعمق، يتأمَّل وجهها الذي لا يكون بدرًا بهيًّا إلَّا قبل زيارة مراد وأثنائها، وعندما تعود منها

مثقلةً باللوعة والخسران فكان البدر يُخسف.

يُشيح بنظره عنها ليخفِّف عن قلبه الخيبة، مستذكرًا رسالته التي كتبها لمراد ليلة أمس:

«أتعاتبني يا صديقي على مسعاي المجدليّ وتتَّهمني بالهروب من الواقع إلى دهاليز تاريخيَّة مجهولة المصير والمعنى؟

كم أنت قاسٍ في بعض الأحيان يا مراد؟!

أنت من قال لي في الرسالة الماضية: إنَّ الكولونياليَّة تفاصيل صغيرة، إنَّها هوس السيطرة والتفاصيل الصغيرة التي تشيّد بالنهاية بنيةً شاملةً متكاملة.. تفاصيل معرفيَّة وتاريخيَّة وثقافيَّة ونفسيَّة.. لهذا يجب أنْ نحاربها بالتفاصيل ذاتها.

أليست، إذن، مريم المجدليَّة جزءًا من هذه التفاصيل؟!

أليس الاستشراق الذي هلكتني به هو من قضى على أنفاس المجدليَّة في بلادنا، وجعلها تُرنِّم وتبتهل وتُصلِّي باللاتينيَّة واليونانيَّة والفرنسيَّة القديمة؟

أليس من حقِّي أنْ أستعيدها بمحاولةٍ بحثيَّةٍ على الرَّغم من تفاهة قدْري وتواضع موقعي الثقافيّ؟!

على أيَّة حال يا صديقي، دعني أقول لك بكلِّ أسف: إنَّني فشلت في مسعاي هذا.. ويسرُّني أن أُعلن، أيضًا، أنَّني عزمتُ على إحالة البحث إلى روايةٍ سأزوِّدك بفحواها وتفاصيلها قريبًا.. كما أنَّني سأعتمد جزءًا من نصيحتك وعتابك، لهذا سيكون قسم من الرواية معاصر، على أن تعدني بالكفِّ عن اتِّهامي بالهروب من هذا الواقع، فأنا مشتبك يا صديقي.. مشتبك يوميًّا مع هذا

الواقع الذي أعمل به.. في القدس يا مراد، أنا أتجرَّع أكاذيب وأساطير ملعوبًا بأسفل سافلها.. أتجرَّعها ثم ألفظها بمناعتي وحصانتي وعزمي على مواجهة الاغتصاب التاريخيّ الذي نتعرَّض له منذ نكبتنا على الأقلِّ...».

الحافلة بيضاء ضخمة، كأنَّه يراها للمرَّة الأولى في حياته، يُعين أمّ عدليّ على الصعود إليها، ويُجلسها في مقعدٍ إلى جانب النافذة، كما تحبّ دومًا؛ لترى أطلال اللدّ، وهي في طريقها إلى سجن «نفحة» الصحراويّ الواقع جنوب صحراء النقب، ثم يقبِّل جبينها بقبلةٍ أرفقها بسلامه الحارّ لمراد، ووعده لها بانتظارها حين تعود مساءً لكي يطمئنّ عليها، ويأخذ حصَّته من أخبار صديقه ورسائله السرِّيَّة.

يعود أدراجه إلى المخيَّم. إلى الأزقَّة. إلى البيت البائس في أجواء صباح يأبى الانزياح، مصرًّا على البقاء، مسرحًا لذاكرة تُعربد عليه الآن. في الوقت الذي هو وحده من يُقرِّر فيه إذا ما كانت طريق العودة ستأخذ من زمانه العبثيّ هذا، عشر دقائق أو أكثر.

لم تزل الطريق إلى المخيَّم خاوية، وهو اللاجئ الذي لا يتلمَّس ملامح المخيَّم إلَّا عندما يخرج منه، ليغدو مصنَّفًا بشكل مُسبق، لاجئ لا أقلّ ولا أكثر، في أعماق الأزقَّة هو ليس بلاجئ. ليس ثمَّة من يُذكِّره بهذا، فالجميع سواء بالأسماء ذاتها داخل المخيَّم، وأمَّا في هذه المدينة الإسمنتيَّة الكبيرة رام الله والبيرة أو البيرة ورام الله، فهو لاجئ دون الأخذ بعيْن الاعتبار إذا ما كانت ملامح وجهه وطلَّته لا تبوحان بهذا. يكفيه اغترابه

عن هذه المدينة وميادينها وشوارعها الاصطناعيَّة المختلَّة والمحتلَّة، فقط في القدس.

عندما كان يتنسَّم القدس كان اغترابه ينحلّ عنه شيئًا فشيئًا ليحلِّق في فضائها. ثمَّة علاقة عشقٍ تجمعه بالقدس؛ إذ يُسبِّح أسماءها قصائد وأغاني وصلوات، كانت هي وحدها التي تعطف عليه وتُخبِّئه في طيَّاتها وبيوتها العتيقة في أحلك الأوقات، وأمَّا رام الله فلم تكن كذلك، كانت العلاقة معها علاقة قيْءٍ ولفظٍ وقذفٍ متبادليْن.

يمشي فوق الرصيف في ظلال البنايات السكنيَّة والتجاريَّة عشوائيَّة التنظيم والبناء. تخنقه أكوام الحجارة والحديد والإسمنت. يلتفت إلى يساره، حيث يقبع فندق «السيتي إن» الضخم، يتوقَّف عن المسير للحظات، يتأمَّل واجهته الأماميَّة ثم يبتسم بأسى؛ إذ كان يعمل في هذا الفندق، في ردهاته، وطرقاته، وغرفه، ومطعمه، نادلًا في نوباتٍ مسائيَّة بعد انتهاء دوامه الجامعيّ، قبل أن يتخرَّج ويعمل في القدس مرشدًا سياحيًّا في إحدى شركات السياحة والسفر المقدسيَّة.

كان يدرس فصلًا ويغيب فصولًا، من أجل تأمين أقساط الجامعة وتكاليف حياتها، لتأخذ الشهادة الأكاديميَّة ما يقارب السبعة أعوام من عمره، ضعف المدَّة البديهيَّة التي يستغرقها أيّ طالبٍ لنيل شهادة البكالوريوس.

يغيب فصولًا كان يقضيها بالكدح والعمل في ورش البناء، وتنظيف البيوت والشركات في أعماق الكيان الصهيونيّ، والعمل

هناك كان يوفِّر له تأمين أقساطه الجامعيَّة الباهظة، إضافةً إلى المساهمة في الإنفاق على أسرته الصغيرة البائسة، وأمَّا أثناء التحاقه بفصلٍ جامعيّ، فكان عندما ينضب مخزونه المادِّيّ يلجأ إلى العمل نادلًا في فندق «السيتي إن»:

ـ «أنت جامعيّ وسيم.. تُتقن الإنجليزيَّة.. مهذَّب.. وصامت في أغلب الأحيان.. أنت النادل المثاليّ في الفندق المثاليّ».

هكذا قال له، ذات نوبة عمل، مديرُ المصادر البشريَّة في الفندق.. أثناء دعمه وتشجيعه على كفاءته بالعمل.

الفندق الذي شهد فيه نور حيواتٍ ومصائر ومناسباتٍ عابرة مرَّت من أمامه محشوَّةً بالظروف الطارئة والأعمال والرغبات والارتعاشات.

لا، لم يكن نور المهديّ الشهديّ ناسكًا، بل كان يخشى عروض الجنس العابر والجنسيَّة المخطوفة، كان يهرب منها ويردّها عنه بتفريغه لحمم شهوته عبر عادته السرِّيَّة مضاجعًا بأشدِّ أشكال الفانتازيا إباحة الفندق بأكمله.

ولم تكن مسيرته المتخبِّطة في الجامعة لتختلف عن عمله في الفندق، إذ لم يهنأ بحياةٍ جامعيَّةٍ مزدانةٍ بقصَّة حبٍّ تكتمل أو لا تكتمل. باختصار، لقد كان معطوبًا، ثم خراب متأصِّل في داخله، مُشبَّع بشيءٍ من الطهر والخوف، والهبل ربَّما! هكذا كان زملاؤه، في الفندق، يصفونه: أهبل.. شابٌّ وسيمٌ مثلك يرفض النِّعْم والمتعة! أهبل.

أهبل توحَّد في صمته وعمله الدؤوب، نادلًا على الأصول، يكفل راتبًا متواضعًا منتفخًا بشيءٍ من البخشيش، يؤمِّن له أناقته وبذخه في اقتناء الملابس والأحذية والعطور. كانت تلك لوثته. كان بائسًا فقيرًا لاجئًا، ولكن بشيءٍ من الأناقة المُستحبَّة.

والأناقة لا تليق إلَّا بخراب أصله وصمته وانسلاله داخل قوقعته الجوَّانيَّة، أليس مراد محقًّا إذن عندما اتَّهمه بأنَّه كائن هروبيّ لا يقوى ولا يجرؤ على مواجهة واقعه وتفاصيله؟

تلوح في باله فكرةٌ عن رواية المجدليَّة، قام بتسجيلها عبر برنامج التسجيل الصوتيّ في هاتفه المحمول حتى يصل إلى البيت، ثم يندفع إلى الأمام على حين غرَّة، كأنَّ ريحًا عاتية هبَّت فجأةً لتدفع شراعاته نحو مدخل المخيَّم، التي رُكنتْ على يمينه عربةٌ حديديَّة تحمل صندوقًا كبيرًا بنافذةٍ حديديَّة مغلقة بقفلٍ قديم، موثَّقةٌ بسلسلةٍ حديديَّة. عربةٌ بائسة يكاد ينتفض عليها ليحطِّمها رغم حديدها، إذ هي عربة أبيه التي ورثها بدوره عن أبيه رشيد الشهديّ الذي كان يمتلك مقهى في سوق خضار اللدّ قبل النكبة، اللدّ التي لم يدخلها نور عائدًا بل عاملًا في ورشها وأسواقها التي لم يعثر بها على أدنى رائحةٍ قد تشي بمقهى جدِّه الذي انقلبت حاله متوحِّدًا منكوبًا بهذه العربة التي يفترسها نور بنظراته الآن.

لطالما وقف هنا، خلف هذه العربة بجانب أبيه عندما كان طفلًا؛ لمساعدته في توزيع المشروبات الساخنة، والعصائر على الزبائن من العمَّال والمارَّة، وأصحاب الدكاكين في سوق المخيَّم.

أبوه مهدي الذي ما إن أُفرج عنه من سجون الاحتلال في أواخر شتاء عام 1995 حتى اختلّت موازينه أو خفّت أو ثقلت. لا أحد يعلم ما الذي اعتراه عندما قال لأمّه سميَّة «أمّ مهدي» وللمخيَّم والأزقَّة وطفله الصغير وقبر أبيه وقبر زوجته نورا عندما سألوه: والآن ماذا ستفعل بعد ذبول الانتفاضة وحلول السلام علينا أو ما يشبهه بسلطةٍ وطنيَّة، فأجابهم بصوتٍ مبحوح: قهوة وشاي.

حينذاك جُنَّ جنون سميَّة على وحيدها، ولطمت وجهها بنعليْها: هل جُننت يا مهدي؟ أتفرِّط بتاريخك النضاليّ ومعاناتك من السجن وفخر أبيك عليه الرحمة بكلِّ بسطة قهوة وشاي يا ولدي؟

ـ قهوة وشاي يا أمِّي.. قهوة وشاي وسحلب حليب.

وأمَّا نور الذي لم يكن يُدرك بعدُ أباه الجديد القادم من غياهب المعتقل بعد خمس سنوات على ولادته ويتمه وفاجعة أمّه نورا، لم يكره أباه، بل كره القهوة والشاي، وارثًا دون أن يعلم صمت أبيه وخذلانه ودروبه الغامضة. يقترب من العربة، يدقِّق بها، يتحسَّسها، يربِّت عليها. كم تشبه أباه في سلسلتها الحديديَّة والصدأ الذي اكتساها، مقفلة، مُقيَّدة العربة الآن في هذا النهار الرمضانيّ. مقيَّدة مثل أبيه الذي يغطّ الآن في نومٍ عميق داخل بيته المحشور في أعماق المخيَّم، ليقوم بفتحها وإعداد القهوة والشاي بعد الإفطار حتى ساعة السحور الأولى دون كللٍ أو يأس، أو حرفٍ زائدٍ أو ناقص، كان يُجيب الزبائن بهمهماتٍ وغمغماتٍ، وسيجارةٍ لا تنطفئ مغروسةٍ في فمٍ يقع في وجهٍ كسته لحية كثَّة

رماديَّة اللون، وعمرٍ يتجاوز الخمسين عامًا بقليل.

ليس ثمَّة فرق يُذكر لدى نور إذا ما كان أبوه منتصبًا خلف العربة الآن أم لا، لا فرق، فالهمهمة هي ذاتها، والصمت هو الصمت ذاته. فقط حدَّة النظرات وأساها المطعونة بالخيبة قد تختلف من حينٍ لآخر.

يتنهَّد نور، ثم يتوغَّل في الأزقَّة.

يدلف إلى البيت المحشور بين ألف زقاق، عتمةٌ تُجلِّله منسجمةً مع سكونه وكآبته، لفيف لعنة لفّ هذا البيت المكوَّن من طابقٍ واحدٍ وغرفةٍ صغيرةٍ على سطحه، كانت ملاذ نور وملجأه للهروب من أجواء البيت الذي يسوده الآن شخير أبيه الهادر المنبعث من غرفته الواقعة في آخر الصالة ليتساءل نور تساؤله المعهود:

ـ كيف لخديجة تحمُّل هذه الضوضاء المَرَضيَّة طيلة هذه الأعوام؟

ثم يمضي إلى المطبخ ككلب شوارع مشرَّد يبحث عن فتات وبقايا طعام يُسكت من خلاله عواء معدته، ثم يصعد إلى غرفته الصغيرة بأناةٍ وهدوء حتى لا تصحو على حركته الصباحيَّة خديجة وتؤنِّبه على خدش هيبة غطيطها وأحلامها.

إنَّها زوجة أبيه ابنة الخمسين عامًا، وخالته أخت أمّه في الوقت نفسه. تزوَّجها أبوه بعد خروجه من السجن بعام واحد نزولًا عند رغبة أمّه الراحلة سميَّة، علَّه يُشفى من لوثة صمته

وعربة القهوة والشاي، وسعيًا منها وراء كسر نحس أسرة الشهديّ التي شارفت على الانقراض جرَّاء افتقارها لعزوة تحافظ على نسل العائلة، فمهدي كان وحيد أبيه، إلى أن جاء نور إلى نور الدنيا دون أن يشذّ عن قاعدة الوحدانيَّة، إلَّا أنَّ آمال جدَّته بالنسل والعشيرة تحطَّمت أمام رحم خديجة الصخريَّة وأمام انطفاء الرغبة والشهوة في قلب وحيدها مهدي!

لم تنجب خديجة رغم محاولات الجدَّة الشعبيَّة والسحريَّة والطبِّيَّة والدينيَّة، لم تُنجب هي الأرملة، أرملة فراس صديق مهدي الذي استشهد بعد زواجه من خديجة بشهرٍ واحد فقط في أوجّ انتفاضة الحجارة في عام 1988. وأرملة الشهيد كان أملها عظيمًا في أن يتزوَّجها صديق الشهيد مهدي، ولكنَّ هذا الأخير نال نورا وجمال نورا وبهائها.

لتنتعش آمال خديجة من جديد بالزواج من مهدي، وهذا ما حدث. فغدت زوجة الشهيد وزوجة الأسير المحرَّر التي لم ولن تُنجب من البطليْن أبدًا. فليس فراس وحده الذي قُتل وزُفّ شهيدًا، ثمَّة أحياءٌ يُقتلون حين تُغتال قلوبهم بفاجعة ليصبحوا شهداء شوقٍ وعشقٍ ووله.

هذا ما حدث لمهدي الشهديّ، إذ مات بعد أن وصله نبأ الفاجعة.

لا، ليس هذا ما خذله وأذوى قلبه فقط، ما خذله هو النكران الجارف والجاحد بحقِّ أسرته الصغيرة المكوَّنة من أمِّه وطفله اليتيم طيلة سنوات أسره، وحكمه الجائر القاضي بخمسة

وعشرين عامًا في السجن قضى منها خمسًا، خذله أصدقاؤه ورفاق دربه في النضال والانتفاضة الذين انشغلوا بأبَّهتهم الجديدة التي تراقصت فوق مائدة السلام المختلّ وسلطة الوهم والحيرة، خذلوه حين تخلُّوا عن رعاية أسرته. لا، لقد خُذل أكثر عندما انكسر قلبه الثائر حين اشترط عليه أعداؤه وسجَّانوه قبل الإفراج عنه مثله مثل الأسرى الآخرين المفرج عنهم، التوقيع على تعهُّد ينبذ فيه العنف متعهِّدًا بعدم العودة إلى ممارسته واحترام بنود اتِّفاقيَّة أوسلو الموقَّعة ما بين منظَّمة التحرير الفلسطينيَّة ودولة الكيان الصهيونيّ.

مهدي الشهديّ، بطل الانتفاضة وسيِّد أزقَّة المخيَّم، والمطارد الذي لقَّن أعداءه دروسًا في المقاومة، بات نضاله عنفًا وثورته إرهابًا، ومعاناة اعتقاله وحرمانه من مساندة زوجته وحبيبة قلبه في احتضارها ولوعة أمّه، ويُتم ولده الوحيد، كلّ هذا أمسى هراءً وقمامةً في نظره. وقَّع مهدي وتعهَّد بعدم العودة إلى العنف، حينئذٍ شعر أنَّه أوقع قلبه في هاوية الخذلان التي لا قرار لها؛ ليعود من السجن كالعائد من أهوال الجحيم، كالذي تعرَّض لاغتصابٍ جماعيٍّ، زائغ العينيْن، أشعث الشعر، نحيل البنية، بِبُحَّةٍ تشي بأنَّه لم يُصَب بالخرس في السجن بل بالصمت الفادح والخسران الطافح. «قهوة وشاي»، هكذا قال لأمِّه في الوقت الذي كان اسمه يهزّ المخيَّم بماضيه الانتفاضيّ المجيد، متجنِّبًا وقتًا نال فيه أصدقاؤه البائدون ورفاقه في النضال الغابرون المزايا والمرايا، والمناصب والمواكب والسيَّارات الفارهة. باتوا مسؤولين، أمَّا هو فلم يعد مسؤولًا سوى عن عربة الشاي والقهوة

وسط ذهول أهل المخيَّم، واقتناع بعضهم أنَّ مهدي الشهديّ قد جُنَّ في المعتقل، ولم يُشفَ بعدُ لكي يُدرك كيف يستثمر نضاله كما فعل غيره، غير أنَّ ثمَّة الكثيرين من أهل المخيَّم احترموه أكثر، وقدَّروا خلوَّ دمائه من الانتهازيَّة والتجارة بالإرث النضاليّ.

سميَّة باحت بسرٍّ الخذلان لخديجة. وخديجة باحت هي الأخرى بالسرِّ لنور ثم صمتت. ونور تجرَّع السرّ وصمت.. والبيت كلُّه صامت.

يجلس على حافَّة السرير داخل حجرته الصغيرة المبعثرة، إذ لا أفق للترتيب والرونق داخلها، ثمَّة رفوفٌ خشبيَّة تتراكم فوقها كتبٌ جديدة وأخرى عتيقة، وبعض الملفَّات الورقيَّة والدفاتر وُضعت بصورةٍ عشوائيَّةٍ فوضويَّة؛ وفي زوايا الحجرة، ثمَّة قطع فخَّاريَّة وأسرجة زيتيَّة آثاريَّة كان قد عثر عليها في دروب مشاركته في الحفريَّات الأثريَّة منذ أيَّام دراسته الجامعيَّة، ونالها تذكاراتٍ إمَّا سرًّا أو علانيَّة كمكافأة على براعته في التنقيب الآثاريّ العلميّ.

ينتشل هاتفه من جيبه مؤكِّدًا على عادته اليوميَّة الصباحيَّة القاضية بتجوُّله في بعض المواقع الإخباريَّة والأثريَّة في الشبكة العنكبوتيَّة، يدخل إلى موقع إخباريّ فلسطينيّ، يقرأ على عجل عناوينه:

ـ الاحتلال يعتدي على المزارعين في الأغوار الشماليَّة.

ـ الاحتلال يُجبر مواطنًا مقدسيًّا على هدم بيته على نفقته الخاصَّة بحجَّة عدم الترخيص.

ـ القيادة الفلسطينيَّة تستعدّ لإجراء الانتخابات التشريعيَّة.

ـ انحسار عدد الإصابات بڤيروس كورونا.

ـ نتائج الانتخابات البرلمانيَّة لم تحسم تشكيلة الحكومة القادمة في إسرائيل.

ـ تصاعد التوتُّر في القدس بعد إعلان بلديَّة الاحتلال نيَّتها إخلاء العائلات المقدسيَّة من بيوتها في حيِّ الشيخ جرَّاح.

يكتفي بهذا القدر من الأخبار الاحتلاليَّة معلِّقًا بتهكُّم:

ـ يبدو أنَّ الاحتلال بات جزءًا من حياتنا اليوميَّة.. بات طبيعيًّا! أليس هذا ما يقصده مراد.. التفاصيل الكولونياليَّة الصغيرة؟!

ثم ينسحب من الموقع الإخباريّ إلى مواقع متخصِّصة بالتاريخ والآثار، ساعيًا وراء أيّ معلومةٍ جديدةٍ قد تذهله فيما يتعلَّق ببحثه عن مريم المجدليَّة، فلا يعثر على شيء.

ينسحب متقهقرًا أمام غوايات الإنترنت، ويدخل إلى برنامج التسجيل الصوتيّ، يتنحنح قائلًا بكلِّ جدِّيَّة نفضت عنه عواصف ذاكرته العاتية التي داهمته منذ الصباح: [البطاقة الصوتيَّة رقم 13: صباح الاثنين ـ 19 نيسان 2021، الموافق للسابع من رمضان: تصوُّر أوَّلي حول الرواية:

يجب أن تشكِّل قاعدتي المعرفيَّة حول ثورة باركوخبا 132 ـ 136 م أحد الأُطر الأساسيَّة للجانب التاريخيّ من الرواية، وأمَّا التصوُّر العامّ للرواية، فهناك عدَّة تصوُّرات وأفكار أوَّليَّة منها:

قد يكون هناك كنزٌ مدفون يخصّ مريم المجدليَّة! إمَّا في

قريتها مجدلة الواقعة على الشاطئ الغربيّ لبحيرة طبريَّة، أو في كنيستها الواقعة على سفح جبل الزيتون، والكنز عبارة عن صندوقٍ عاجيٍّ صغير الحجم يحتوي على تماثيل صغيرة لشياطين المجدليَّة السبعة أو على قارورة عطر الناردين الفاخر الذي سكبته على يسوع، وقد يحتوي الصندوق، أيضًا، على ضفائرها التي مسحت بها قدمي يسوع. وأمَّا التماثيل، فقد قام بنحتها نحَّات رومانيّ عاش في القدس في النصف الثاني من القرن الأوَّل الميلاديّ، كان قد آمن سرًّا بيسوع بعد أن كان وثنيًّا، ليتوارث الصندوق من بعده أبناؤه وأحفاده الذين تكتَّموا عليه؛ خوفًا من اضطهاد اليهود والرومان للمسيحيِّين الأوائل في القدس، لحين وقوع ثورة باركوخبا التي أدَّت نتائجها إلى تدمير القدس وقتل اليهود وتهجيرهم منها، فتهاجر أسرة النحَّات القدس وتتَّجه شمالًا لتقيم كما أقامت أُسَرٍ أخرى إلى جانب معسكر الفيلق الرومانيّ السادس المرابط على حدود فلسطين الشماليَّة، التي كان حدّها الشماليّ الأقصى، في ذلك الوقت، سهل مجدو المعروف اليوم باسم «تلّ مجدو» أو وادي اللجُّون. ولجوء الأسرة إلى هناك نَبَع من خشيتها من إعادة تمكُّن اليهود أو عودتهم إلى القدس، ولكي يحمي التماثيل من الضياع والسرقة يلجأ حفيد النحَّات إلى تعويذة سحريَّة، هي عبارة عن طلسم يرصد من خلاله الشياطين السبعة لحماية الصندوق بعد أن قام بإخفائه داخل حجرة سرِّيَّة تقع أسفل بيته.

نقد هذا التصوُّر:

إنَّ هذا التصوُّر ضعيف، ولا يوجد حضورٌ مباشرٌ للمجدليَّة

فيه. ثم ما الغرض من نحت تماثيل للشياطين؟ وكيف سيكون زمن السرد؟ بالماضي أم بالحاضر؟ وما دور نسيم ومرام فيه؟

ملاحظة:

[ذبحت قلبي أمّ عدليّ هذا الصباح وهي تلقّني بأنفاس أمومتها الطاهرة أثناء مرافقتي لها إلى الحافلة، ذبحتني دون أن تعلم أنَّها قدَّمتني قربانًا لذاكرتي التي ما زالت تلتهمني حتى الآن...].

يتوقَّف عن التسجيل بتأفُّف وإحباط وهو يقبض بكفَّيْه على هاتفه متأمِّلًا فيه للحظات، ثم يشيح بوجهه نحو المرآة الضخمة المعلَّقة قبالته على الحائط، يحدِّق بوجهه وملامحه كأنَّه يكتشف ذاته للمرَّة الأولى، ثم يتهالك فوق السرير بعد أن جذبه الإنهاك إلى غفوةٍ إجباريَّة.

لم يولد نور مهدي الشهديّ مرَّةً واحدةً فقط، بل وُلد أكثر من مرَّةٍ في أطوار حياته الزقاقيَّة.

أوَّلها في الأوَّل من نيسان عام 1991، عندما عاش هو وماتت أمّه نورا وأعوامها العشرين وضفائرها الذهبيَّة وشمس اللدّ التي كُسفت أثناء أسر أبيه الذي اعتُقل بعد زواجه بأسابيع، ليعود من السجن بعد خمسة أعوام مكسورًا مخذولًا مختلًّا صامتًا مصموتًا.

وُلد نور مرَّةً أخرى من صمت أبيه وعربة شايه وقهوته، فلجأ إلى جدَّته سميَّة التي رعته وربَّته وزوَّدته بحكايات اللدّ وأمّه نورا،

إلى أن ماتت سميَّة، بل إنَّها قرَّرت أن تموت في الذكرى الخمسين للنكبة بعد أن فشلت مساعيها بإحراز ذرِّيَّةً تشدّ من أزر أسرتها؛ فالتصحُّر كان قد ضرب مهدي وخديجة معًا في سرير جافٍّ متيبِّس لا اهتزاز للماء في أعماقه. ويولد نور للمرَّة الثالثة من موت جدَّته، متعلِّمًا صمت أبيه همسةً همسة في بيتٍ ساكنٍ كان يصحو فيه في بعض الليالي على أصوات نشيجٍ وعويلٍ ونحيب تنبعث إمَّا من أبيه أو زوجة أبيه.

ثم جاءت ولادته من صداقته العميقة بمراد الذي خفَّف عنه توحُّده وصمته طيلة طفولتهما معًا، إلى أن اعتُقل ليعود نور من جديد متعبِّدًا في محراب صمته.

ثمَّة ولادة أخرى كانت من أشدّ ولادات حياته عذابًا وحسمًا، وذلك حين وُلد من نجاحه في امتحانات الثانويَّة العامَّة بتقدير جيِّد جدًّا، ليلتحق بسوق العمل لا الجامعة؛ إذ هي الولادة القيصريَّة التي شقّ فيها أبوه مهدي صدره عابثًا بقلب قلبه، في تدخُّلٍ سافرٍ ونادر بمستقبل نور.

نور الذي رأى بنجاحه فرصةً لانتشال ذاته من هاوية صمت أبيه، والخلاص من هذه العلاقة المختلَّة والمكتومة ما بينهما جعلته يخشى من مصيرٍ له يشبه مصير أبيه، خاصَّة بعد أن أدرك، في طوْرٍ متأخِّرٍ من أطوار الأسرة المنكوبة لجوءًا وصمتًا، أنَّ أباه كان يعزله بسكونه وركونه عن الأزقَّة والمخيَّم. فنور لم يكن يتمتَّع بذلك القدر العالي من الطفولة، كالذي كان يحظى به مراد وأترابه على الأقلِّ، كالتسكُّع في الأزقَّة، وإلقاء الحجارة على قوَّات الاحتلال أثناء توغّلها في المخيَّم ومهاجمته في مداهمات التفتيش

والاعتقالات ما بين الفينة والأخرى.

كان مهدي يغلق منافذ البيت منتشلًا نور من الأزقَّة زاجًّا به في حجرته دون أدنى تعليقٍ أو ملاحظة، كان يدفعه إلى الحجرة بهمهمته المعتادة فحسب. لم يكن يصرخ على نور، لم يضربه، لم يؤنِّبه يومًا. كان يجلده بالصمت فقط، إلى أن جاء ذلك النهار الذي ذوت فيه فرحة نور بنجاحه بالثانويَّة العامَّة، عندما لم يتأثَّر أبوه كثيرًا حين أعلن رفضه القاطع والصارم للمنح والمساعدات الماديَّة التي تقدِّمها لجنة خدمات المخيَّم لبعض الطلبة الناجحين. رفض مهدي الإحسان واصطياده بمنحةٍ ماديَّةٍ تكفل التخلُّص من أعباء الجامعة وتكاليفها الباهظة، تلك الحياة التي كانت حلم نور لعلَّه يفرّ من أجواء البيت وظلّ أبيه ومآسيه.

كان ذلك التدخُّل السافر الذي أعلنه أبوه بمنزلة تفوّهٍ نادرٍ وشحيح لم يزوِّده بأسباب تعنُّته ورفضه للمنحة الأكاديميَّة. وحدها خديجة من همست بأذنه ذات مساء، لمست فيه ضيقه ومشارف جنونه لتفضي له بخيبةٍ من خيبات زوجها:

ـ لقد طعنوا أباك في قلبه.. تخلُّوا عنه وعن أمّك وجدَّتك وهو في المعتقل.. وها هم الآن يسعون بالتكفير عن غدرهم من خلالك.. يريدون استدراجه إليهم من جديد.

ـ من هم؟

ـ هم من كانوا مثله.. ولكنَّهم نزلوا عن الجبل كما يقول.

ـ أيّ جبل؟! لا يوجد جبال في المخيَّم.

ـ بل يوجد..

وعربة الشاي والقهوة لم تكن قادرة على تأمين كلفة الأقساط والأعباء الجامعيَّة لنور. لم يشعر مهدي بالذنب، إذ كان واثقًا من وجود إرادةٍ تشتعل داخل ولده ستؤمِّن له جامعته آجلًا أم عاجلًا، إلى أن جاءت ساعة الولادة القاسية من خاصرة زمن الآخر المقيم فوق وجهه وهويَّته، ولادةٍ مؤلمة لدرجة أنَّها هي التي أدَّت به إلى هذه العزلة الاضطراريَّة عن عمله في القدس والعالم منذ شهر ونصف الشهر.

أمَّا آلام المخاض التي سبقت هذه الولادة، فقد عانى منها عندما شرَّعت دروب الآلام أبوابها في وجهه، فسار فيها عاملًا برفقة صديقه مراد، حيث عملا معًا في القدس وتلّ أبيب واللدّ، وفي العديد من الأماكن والنواحي الصهيونيَّة. عمل نور بالبناء والدهان والعتالة والتنظيف والبستنة وورش الحفريَّات الأثريَّة، عمل لمدَّة عامَيْن ليدَّخر ما يكفل له افتتاح مسيرته الجامعيَّة.

وفي العمل، اكتشف نور ملامحه، وبات يُدرك مزايا تلك الكنية التي كان يلاحقه بها أولاد المخيَّم: «السكناجي» لتغدو في تلّ أبيب «أشكنازي»، بلى، الكنية بحاجة إلى لغة واللغة هي العبريَّة التي بدأ يتلقَّفها عبر بضع كلماتٍ وتساؤلاتٍ واستفسارات كان يلاحق بها زملاءه في العمل ممَّن أتقنوا العبريَّة. كلماتٍ معدودةٍ في البداية. بديهيَّة تُشبه في لفظها ومعانيها نظيرتها بالعربيَّة، ثم اندفع إليها، انقضَّ عليها، على لغة أخرى، هكذا كان عهده دومًا عندما يتطلَّع إلى هدف معيَّن، إذ يُصاب بشغفٍ يصل إلى حدِّ الهوس، فاشترى كتبًا لتعليم اللغة العبريَّة، واستمع لنشرات الأخبار العبريَّة والأغاني والأفلام العبريَّة، أقبل عليها

مجتهدًا لا حُبًّا بها، هي اللغة الخائيَّة كما وصفها لمراد ذات رسالة، وإنَّما لكي يحمي نفسه ممَّن يتفوَّهونها، كاسيًا ملامحه بها، ربَّما. ملامحه الأشكنازيَّة! صارت العبريَّة «غنيمة حرب» تحصَّل عليها، كما قال كاتب ياسين[1] واصفًا اللغة الفرنسيَّة إبَّان الاستعمار الفرنسيّ للجزائر، غير أنَّ الفرق ما بين كاتب ياسين ونور الشهديّ، هو أنَّ هذا الأخير لم يتعلَّم العبريَّة من «فم الذئب» والمدارس العبريَّة، لقد تعلَّمها من الشوارع العبريَّة.

كانت العربيَّة لغة قلبه، والإنجليزيَّة لغة عقله، والعبريَّة لغة ظلِّه وملامحه الأشكنازيَّة؛ فأصبحت الملامح قناعًا يرتديه، عندما كان يبيع طاقة عمله في الأسواق والميادين الصهيونيَّة، حينئذٍ كان يشعر بالتعب الذي تحصَّل من خلاله على أجرٍ جيِّد، لم يكن ليحظى بمثله في سوق العمل الخاصّ برام الله ونواحيها، ولم يكن يشعر بفداحة التناقض ما بين حكايات جدَّته عن اللدّ وعمله هو فيها عاملًا لا عائدًا.

كانت المرَّة الأولى التي اكتشف فيها مزايا ملامحه، عندما داهمت قوَّة من الشرطة الصهيونيَّة ورشة البناء التي كان يعمل بها برفقة صديقه مراد وعدد آخر من العمَّال في مستوطنة «ريشون لتسيون» الواقعة شمال شرق تلّ أبيب، كبرى المستوطنات الكولونياليَّة الصهيونيَّة، للتدقيق في تصاريح العمَّال وهويَّاتهم، لإلقاء القبض على العمَّال المتسلِّلين الذين يعملون دون حيازتهم تصريح عمل تمنحه المنظومة الأمنيَّة الصهيونيَّة، وكان نور من

(1) كاتب ياسين: أحد أهمّ الكُتَّاب الجزائريِّين الذين كتبوا باللغة الفرنسيَّة.

صنف الفلسطينيِّين التعساء الممنوعين من تصاريح العمل في السوق الصهيونيَّة، إمَّا بسبب اعتقالهم في وقت سابق على خلفيَّة مقاومة الاحتلال، أو اعتقال أحد ذويهم، فأُخذ نور بجريرة أبيه وماضيه الانتفاضيّ، غير أنَّ حظًّا نادرًا في ذلك اليوم حالفه، عندما كان يقضي حاجته في زاوية بعيدة عن الأنظار في ورشة البناء، وبعد انتهائه انتبه لجلبة قوَّة الشرطة وتطويقها للورشة، وتدقيقها بهويَّات العمَّال. تخبَّط في حيرة من أمره باحثًا عن طوق نجاة من لكمات أفراد الشرطة وحبسه عدَّة أيَّام في مركز الشرطة، ومن ثم طرده وإلقائه عند أقرب حاجز حدوديّ يفصل الضفَّة المحتلَّة عن مركز العالم الصهيونيّ. لم يعثر نور على منفذٍ ينجِّيه، فسلَّم أمره لقدر الشرطة، التي كان أفرادها منهمكين بممارسة واجباتهم الأمنيَّة، فسار من جانبهم بما تبقَّى في حوزته من رباطة جأش وثقة وهدوء، كان على وشك التوقُّف وتسليم نفسه لقبضاتهم عندما التفت نحوه، بعفويَّة، شرطيٌّ دقَّق في وجهه للحظات، ثم حيَّاه بالعبريَّة وعاد من جديد للتدقيق في تصريح عمل أحد العمَّال، دون أن يشكّ للحظة أنَّ نور أحد المصنَّفين كلاجئ أو «متواجد بصورة غير شرعيَّة» أو «عامل من المناطق الفلسطينيَّة»، وما إن ابتعد قليلًا عن الورشة وقبضة الشرطة حتى أطلق ساقيْه للريح، لم يعْدُ باتِّجاه الشرق حيث الطريق المؤدِّي إلى رام الله، بل صوب الغرب حيث البحر، بحر يافا العروس، وهو العريس الذي تململ فوق شاطئها منتشيًا بنصره الصغير الماكر على الشرطة.

إنَّها الملامح إذن.

الملامح قناع. صرخ. رقص. غطس في بحر يافا. لم يكن ثمَّة أحدٌ على الشاطئ سواه، وكان شتاء، وكان نور الذي لم يعد يذكر عندما عاد في المساء إلى رام الله ومخيَّمه هل كان يصرخ بالعربيَّة أم العبريَّة؟ هكذا تساءل في ذلك المساء الذي احتفل فيه برفقة مراد بتفلُّته المحظوظ من قبضة الشرطة.

غير أنَّ آلام المخاض الخاصَّة بولادته الحاسمة هذه اشتدَّت فظاعتها منذ ثلاث سنوات، وذلك عندما كان يتسكَّع ذات نهار خريفيّ في سوق العاديات والخردوات والملابس المستعملة الشهير في يافا، كان منغمسًا في تأمُّل معروضات العربات والحوانيت للتحف القديمة المتهالكة واللوحات الفنِّيَّة والأجهزة الكهربائيَّة التي عفا عليها الزمان، مأسورًا بالماضي والتاريخ المتراكم عليها، ساعيًا بتخيُّل أقدار مالكيها السابقين، إلى أن وقعت عيناه في زحمة السوق وضوضائه على معطفٍ جلديٍّ ذي لونٍ بنِّيٍّ غامق معلَّقٍ بجانب مجموعةٍ من الملابس المستعملة أمام واجهةِ أحد الحوانيت، فهُرع نحو المعطف تجذبه إليه أناقته. تفحَّصه بمهارة وخبرة المُصاب بلوثةِ الأناقة، فتأكَّد أنَّه مدبوغٌ من جلدٍ طبيعيٍّ، انتزعه من شمَّاعة الملابس وارتداه متأمِّلًا هيئته بالمرآة الخاصَّة بالحانوت، فنالت هيئته الجلديَّة إعجابه عازمًا على اقتنائه، توجَّه إلى مالك الحانوت مفتتحًا بلغته العبريَّة ذات اللكنة الأشكنازيَّة عمليَّة المساومة على ثمن المعطف، متوصِّلًا إلى سعر مناسب كلَّفه خمسين دولارًا، ثم انسحب من السوق مرتديًا المعطف بكلِّ سرورٍ وهيبةٍ أشكنازيَّةٍ جلديَّة.

وضع يديْه في جيبَي المعطف أثناء سلوكه للطريق المؤدِّي إلى

محطَّة الحافلات المركزيَّة لكي يستقلّ الحافلة الذاهبة إلى القدس حيث مقرّ شركة السياحة التي يعمل بها. ثم أخذ يتفقَّد جيوبه الأخرى كافَّة، وما إنْ وضع يده في جيبه الداخليّ الواقع قبالة القلب حتى التقطت أصابعه شيئًا ما، فأخرجه بلهفةٍ وفضول، فإذا هي بطاقة هويَّة صهيونيَّة زرقاء اللون من غير سوء، غفل عنها كما بدا صاحبُ المعطف إثر بيعه في سوق الخردوات، توقَّف عن السير ملتفتًا حوله بحذر نتج عن غريزة أصله العربيّ اللاجئ، رغم ملامحه الواقية من شمس تلّ أبيب الصهيونيَّة الحارقة، كان هناك بعض المارَّة يسيرون من جانبه، فسار ببطء نحو مقعدٍ خشبيٍّ بجانب الرصيف منحته الشجرة الوارفة المنتصبة وراءه الظلّ والخصوصيَّة، التفت حوله مرَّةً أخرى، كلّ شيء هادئ وطبيعيّ، ليس ثمَّة ما يدعو للقلق، ثم انتشل البطاقة من جيبه وفتحها مطَّلعًا على بيانات صاحبها وصورته التي طلَّ منها شابًّا وسيمًا:

الاسم: أور

اسم العائلة: شابيرا

اسم الأمّ: ليطال

اسم الأب: نيتسان

تاريخ الميلاد: 15 ـ 8 ـ 1985

مكان الإقامة: تلّ أبيب

يكبره بخمس سنوات صاحب البطاقة أور شابيرا.

هاله الاسم العبريّ الذي يعني بالعبريَّة نور مثل اسمه تمامًا، علتْ وجهه ابتسامة خفيفة أثناء تأمُّله للهويَّة، ثم خبَّأها في جيب

معطفه الداخليّ الواقع قبالة القلب تمامًا. وعاد أدراجه إلى المخيَّم.

* * *

يستيقظ بعد العصر بقليل، يتقلَّب في سريره، يتثاءب، يفرك وجهه بكفَّيْه، يسعى باستعادة نفسه من أهوال ذاكرته، ثم يشرع بعد أن أزال بحَّة صوته بشربة ماء في تسجيل بطاقة جديدة:

«البطاقة الصوتيَّة رقم...»

ينسى رقم البطاقة السابقة، فيقرِّر بنزق الإقلاع عن ترقيم البطاقات مكتفيًا بتأريخها وعنونتها، يزفر، ثم يأخذ نَفَسًا عميقًا ليبدأ التسجيل من جديد:

مساء الاثنين 19 نيسان: تصوّر آخر لرواية المجدليَّة:

اكتشفتُ مؤخَّرًا أنَّ أسفار أعمال الرسل ورؤيا يوحنَّا اللاهوتيّ قد دُوِّنت قبل تدوين الأناجيل الأربعة. ومن الجدير ذكره أنَّ رؤيا يوحنَّا اللاهوتيّ الخاصَّة بالمعركة الحاسمة التي سيخوضها يسوع المسيح بعد نزوله من السماء ضدَّ قوى الشرّ والشيطان، ستجري وقائعها في سهل مجدو المعروف باسم «هرمجدون». ومن هنا، فإنَّني إذا ما أردتُ ربط المجدليَّة وكنزها بشمال فلسطين.. فيجب أن يكون الدافع رؤيا يوحنَّا اللاهوتيّ، أي أنَّ أسرة النحَّات أو المريد السرِّيّ لمريم المجدليَّة، كانت في رحيلها وإقامتها في تلّ مجدو تُنفِّذ وصيَّةً تناقلتها وتوارثتها الأسرة على مدار الأجيال، وتنصّ الوصيَّة على دفن صندوق المجدليَّة الذي لا يحتوي فقط على ضفائرها وعطرها بل على إنجيلها

السرِّيّ أو لحدها ربَّما، لحين هبوط يسوع لكي يحييها ويبعثها من جديد متعطِّرًا ممسوحًا بعطرها وشعرها، وهذا الافتراض يجب أن تعزِّزه أحداث معاصرة مثل العثور على لفيفةٍ جلديَّةٍ في الموقع الآثاريّ لقرية مجدلة، أو نقوش تحوي ألغازًا تُشير إلى مكان الصندوق. لا.. لا.. هذا التصوُّر لا يُعجبني.. به شيء ناقص.

ملاحظة:

عندما أوصاني مراد على رواية «أولاد الغيتُّو» لإلياس خوري، قمتُ بالبحث عن أصل الاسم ومعنى كلمة «غيتُّو»، لأتفاجأ أنَّ أصلها اسم مصنع لصناعة المدافع الحربيَّة يقع في مدينة البندقيَّة بإيطاليا، أقامت بجانبه جالية يهوديَّة في عام 1516 فدرجت العادة على القول إنَّ اليهود يسكنون بجانب غيتُّو، ومع الأيَّام أصبحوا يسكنون في الغيتُّو.. ولكن ماذا لو كان اسم المصنع باولو أو أنطونيو مثلًا؟ فهل كان اليهود سيقيمون في الباولو أو الأنطونيو؟ وهل كان إلياس خوري سيُطلق على روايته اسم أولاد الأنطونيو؟

قُبَيْل أذان المغرب المبشِّر بموعد الإفطار، بلغ نور مقرّ الصليب الأحمر الواقع بالبيرة، حيث كانت الحاجَّة أمّ عدلي على وشك الركوب في سيَّارة ولدها عدلي بعد عودتها الشاقَّة من زيارة ولدها الأصغر مراد، فهُرع نحوهما على عجل كاظمًا أساه عندما لمح الإنهاك البادي على وجه أمّ عدلي وخسوفَ بدر وجهها الصباحيّ بعد وداعها لمراد بانتظار الزيارة القادمة. اقترب منها

وقبَّل رأسها ساعيًا بمواساتها، ثم صافح عدلي على مضض متبادلًا معه تحيَّةً سطحيَّةً عجولة، وبعد أن زفَّت له سلامات وأشواق مراد، أعطته كيسًا فيه كتابان منه. ودَّعها نور مقبِّلًا رأسها مرَّةً أخرى، وعاد أدراجه إلى بيته هذه المرَّة بلا ذاكرة تبطئ من عجلته ولهفته لقراءة رسالة مراد المهرَّبة من المعتقل.

دلف إلى البيت ليصطدم بمشهدٍ هاربٍ من فيلمٍ سينمائيٍّ صامتٍ باللونيْن الأبيض والأسود، بطلاه أبوه وخديجة، الجالسيْن إلى مائدة الإفطار بوجهيْن عابسيْن مكفهرَّيْن سارحيْن صامتيْن ينتظران انبعاث الأذان من مكبِّرات الصوت على مئذنة مسجد المخيَّم، ألقى عليهما تحيَّةً سريعةً، وصعد إلى حجرته دون أدنى تشبُّث به من قبلهما أو حتى دعوته لمشاركتهما طعام الإفطار، مخلِّفًا وراءه اللامبالاة المحشوَّة بأكبر قدرٍ ممكنٍ من الصمت.

جلس على حافَّة السرير، أخرج الكتابيْن بسرعةٍ ولهفةٍ من الكيس: الأوَّل «الحياة مفاوضات» لصائب عريقات، والثاني رواية «ذاكرة الجسد» لأحلام مستغانمي، ثم أخذ يقلِّب الصفحات إلى أن عثر على الرسالة بين سطور رواية مستغانمي، رسالةٍ خطَّها مراد بخطِّه الأنيق الذي لطالما حسده عليه نور:

«عزيزي نور..

أُهديك التحيَّة العابقة بصداقتنا، واعذرني على هذه الرسالة المقتضبة؛ فأنا منشغل حتى الثمالة بالدراسة التي أعدّها عن الكولونياليَّة الصهيونيَّة.. بالمناسبة، أريد أن أوصيك على كتابيْن آخرين هما: الثقافة والإمبرياليَّة لإدوارد سعيد، ودراسات ما بعد

الكولونياليَّة لبيل أشكروفت.. من جهة أخرى، أرجو أن تتخلَّى عن تلك العبارة المقيتة حول السجن الأكبر والسجن الأصغر.. أنت لا تعرف معنى السجن الأصغر يا نور.. السجن أفظع واقعة في الحياة.. غربة حديديَّة صدئة.. وأمَّا السجن الأكبر فأنت من تحبس نفسك به.. أنت من تصنعه..

عزيزي نور..

اعذرني على عجلتي في هذه الرسالة.. لذلك دعني أوصيك مرَّةً أخرى على إعادة التفكير بالتخلِّي عن بحثك حول مريم المجدليَّة واستثمار ما حصَّلته من معارف تاريخيَّة وآثاريَّة وفكريَّة بالبحث في قضايا معاصرة، مثل: قضيَّة بيوت أهالي حيِّ الشيخ جرَّاح التي ينوي النظام الاستعماريّ الصهيونيّ إخلاءها وطرد سكَّانها.. أو الحفريَّات المستمرَّة تحت المسجد الأقصى.. إنَّ هاتيْن لقضيَّتان محوريَّتان. ويجب أن نقوم بالتصدِّي لهذا الوحش الكولونياليّ من خلال التأسيس لمرجعيَّة معرفيَّة خاصَّة بنا..

على أيَّة حال، لن أُثقل عليك كثيرًا.. لأطلب منك في الختام طلبًا أخيرًا وهو أن تقوم بتصوير بعض الصور لمعالم المخيَّم الرئيسيَّة.. كما أريد صورًا جديدة لك مع أنَّني آمل أن تكون الصورة القادمة لك وأنت تضمّ فتاةً جميلة تزفّ خبرها أمِّي على الزيارة على أنَّها خطيبتك.

إلى اللقاء يا صديقي..».

يُعيد قراءة الرسالة مرَّةً أخرى بخيبة أمل تسبَّبت بها قسوة مراد وعجلته، ثم يضع الرواية جانبًا بنزق، يستلقي على ظهره،

يخترق سقف الحجرة بنظراتٍ حادَّة، ثم يقبض على هاتفه ويشرع بالتسجيل:

[مساء الاثنين ـ 19 نيسان: التصوُّر الأمثل لرواية المجدليَّة وربَّما النهائيّ:

الصندوق العاجيّ تناقلته أجيال على مدار التاريخ، والبداية كانت مع معتنقٍ لديانة يسوع التي كانت سرِّيَّة في بداية عهدها في الحقبة الرومانيَّة، وهذا المؤمن كان تلميذًا ومُريدًا للمجدليَّة، لا بل كان يعشقها في سرِّه بعد صلب يسوع دون أن تعلم هي بأمر عشقه لها، ثم تلقَّن هذا المريد وصايا يسوع السرِّيَّة وتعاليمه على لسان المجدليَّة، ممَّا أثار احتجاج رسول يسوع الأهمّ بطرس، فخشيت المجدليَّة من سطوة بطرس لتعتزل في كهفٍ سرِّيٍّ إمَّا في جبل الزيتون، أو ترحل إلى الجليل لتُقيم بكهفٍ في جبل الكرمل. ومن هنا ينسج الروائيّ المعاصر نسيم شاكر حبكته، حيث يتخيَّل اكتشاف كنيسة سرِّيَّة للمجدليَّة داخل الكهف عثر فيها على مخطوطاتٍ كُتبت بالآراميَّة، وتحتوي معطياتٍ تُشير إلى وجود إنجيل للمجدليَّة يضمّ تعاليم يسوع السرِّيَّة، كما تُشير هذه المخطوطات إلى معلوماتٍ عن وصيَّةِ المجدليَّة التي طلبت من مُريدها قصَّ ضفائر شعرها وضمخها بما تبقَّى من الناردين الذي سكبته على يسوع، وحفظها في صندوقٍ لحين نزول يسوع المخلِّص، مؤكِّدةً بذلك رؤيا يوحنَّا اللاهوتيّ عن هرمجدون، ليقوم المريد بإنقاذ وصيَّتها. فعلى مدار الأجيال، تناقلت أسرة المريد السرّ وحفظته برصد سبعة شياطين لحراسته، على مدار عهود الرومان والبيزنطيِّين والمسلمين، وأمَّا الجيل المعاصر من

الأسرة، فيستدلُّ عليه نسيم شاكر من حكايات النكبة، أثناء قراءته البحثيَّة لتاريخ القرى المحيطة بموقع تلّ مجدو الآثاريّ الحاليّ، إضافةً إلى إجرائه مقابلاتٍ مع بعض المهجَّرين من تلك القرى إبَّان نكبة 1948؛ إذ تفاجأ باسم مقام تلفَّظت به إحدى العجائز من مهجَّري قرية اللجون المنكوبة والمُقام عليها حاليًا «كيبوتس مجدو»، وهو مقام مسك العطَّار، حيث أفادته العجوز بأنَّ رائحة زكيَّة عطرة كانت تفوح دومًا من المقام الذي يقع بجانب بئرٍ شرق القرية بالقرب من تلّ مجدو، ومن آيات هذا الوليّ الصالح طرد الشياطين بشفاعة مريم المجدليَّة.. علمًا أنَّ مسك العطَّار الذي يُقال إنَّه مدفون في أعماق البئر هو الحفيد الأخير لسمعان الأعرج.

تعليق على هذا التصوُّر:

إنَّه تصوُّرٌ واعدٌ، ويمكن العمل على تطوير حبكته وتزويده بقصصٍ فرعيَّة وافتراضاتٍ أخرى، وهذا ما يتطلَّب منِّي إعادة قراءة ومراجعة بيانات تلك الفترة التاريخيَّة، إضافةً إلى حسم مسألة زمن السرد. وعليه، فمن الأفضل أن يكون زمن السرد هو الحاضر المعاصر ضمن خطَّةٍ محكمة ذات طابعٍ بوليسيّ لن أُنكر استلهامه في بعض أجزاء الرواية من تقنيَّات دان براون.

ملاحظة:

كم أحسدك يا مراد على سجنك الأصغر.. لأنَّ واقعك الحديديّ هذا واضح الملامح مكوَّنٌ من معادلةٍ بسيطة، لكنَّها قاسية: سجن سجين سجَّان. ولكنْ هنا في السجن الأكبر الأمور

لم تعد واضحة.. تريد منِّي أن أشتبك! لقد اشتبكت يا صديقي في القدس.. في أعالي قمَّة توراتيَّة إلى أن تدحرجت عنها ووصلت هنا.. إلى حجرتي هذه، مُصابًا بكدماتٍ وجراحٍ أصابت هويَّتي ووجودي.. لا عليك يا مراد، لا عليك. فما أنا فيه لا أجرؤ على كتابته في رسالةٍ مهرَّبةٍ إليك.. سيأتي اليوم الذي سأُنجز فيه رواية المجدليَّة التي سأُذهل بها جميع من كتموني وهبلوني. لن أُرسل إليك صورةً تجمعني بخطيبة مشتهاة، بل صورةً لي أنا والمجدليَّة عندما تصدر في رواية.

يُنهي التسجيل ملقيًا هاتفه بجانبه، يلتفت نحو كومةٍ من الكتب ملقاةٍ على الأرض بجانب السرير، يبحث فيها عن كتابٍ بعيْنه، يعثر عليه، إذ هو كتاب عن أسرار الغنوصيَّة المسيحيَّة. يفتحه ليقرأ فقراتٍ معيَّنةً كان قد قام بتظهيرها في وقتٍ سابق، يستمرّ بالقراءة حتى ساعةٍ متأخِّرة من الليل، تتعب عيناه، تحرقانه، يقلب الكتاب على صدره ويغفو للحظات، يستيقظ إثرها على دويّ إطلاق نارٍ في أزقَّة المخيَّم. يتقلَّب محتارًا في تحديد مصدر إطلاق النار، متسائلًا أهذا رصاص احتلاليّ أم شجار مسلَّح بين جماعتيْن متصارعتيْن على الوهم! يهدأ دويّ الرصاص، فيعود إلى النوم متلحِّفًا الكتاب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثاني

ظهيرة نيسانيَّة أرداها قيظًا صيفٌ طارئ في هذا النهار الرمضانيّ.

وهو المحشور في حجرته المشيَّدة من ظلال الأزقَّة، يتمدَّد فوق سريره مُستسلمًا للحظات سؤم تزحف فوقه؛ لتقيم متراكمةً عليه منذ وقتٍ أخذ يمتدّ ويشتدّ فصار عزلة. عزلةً استحالت مهدًا لذاكرةٍ ما تفتأ تضاجعه لتلد له الماضي توائمَ ممسوخةً مشوَّهةً بين ماضٍ وحاضر، بين مخيَّم ومدينة، بين رام الله والقدس، بين أبيه وظلّه، بين نور وأور، بين الصمت والبوْح، بين القراءة وتسجيل البطاقات الصوتيَّة.. هنا في هذا المابيْن، يعيش نور الشهديّ ويترعرع ويطرد قيظه برطوبةٍ مجدليَّة:

ظهيرة الثلاثاء ـ 20 نيسان 2021: مَن هي المجدليَّة؟

إذا قمت باعتماد تصوُّر مسك العطَّار، فإنَّ هذا يتطلَّب منِّي القيام بتحديد ملامح الفترة الواقعة بعد صلْب يسوع، للناحية

التاريخيَّة لتلك الفترة، والحفر في طبقاتها المعرفيَّة والدينيَّة والثقافيَّة من أجل العثور على المسكوت عنه.

إنَّ المسكوت عنه هو مادَّتي الروائيَّة، لهذا يجب إجراء قراءة تأويليَّة للأناجيل الأربعة الإزائيَّة، إضافة إلى تأويل الآيات التي تُشير إلى المجدليَّة، وحسم تاريخيَّة شخصيَّتها، حيث تتحدَّث الأناجيل الأربعة عن أكثر من مجدليَّة ومريم، ومن الجدير ذكره أنَّ بعض الأدبيَّات المسيحيَّة الغربيَّة تُوحِّد شخصيَّة مريم الواردة في الأناجيل؛ إذ تتراوح ما بين مريم المجدليَّة التي انتزع منها يسوع سبعة شياطين فآمنت به وتبعته من الجليل إلى القدس (لوقا 8: 1 ـ 3)، وثمَّة مريم أخرى هي أخت لعازر التي سكبت طيب الناردين الثمين على قدميْ يسوع ومسحتهما بشعرها في بيت عينيا ـ العيزريَّة بجانب القدس (يوحنَّا 21: 3).. وثمَّة خاطئة لا تُذكر بالاسم، ولكن يُقال إنَّها المجدليَّة.. وهذه الخاطئة بحسب الرواية الإنجيليَّة من مدينة نايين الجليليَّة، هي من سكبت الطيب على يسوع وبلَّلت قدميْه بدمعها ومسحتهما بشعرها (لوقا 8: 37 ـ 38). وأمَّا المسيحيَّة الشرقيَّة فتفصل بين هذه الشخصيَّات، وتقدِّس مريم المجدليَّة، لكنْ عندما نقوم بإجراء تأويل لهذه الشخصيَّات ووجودها الغامض في الأناجيل الإزائيَّة الأربعة: مرقس، ولوقا، ومتى، ويوحنَّا؛ فإنَّنا سنلمس أنَّها شخصيَّة واحدة بالفعل، هي على النحو الآتي:

مريم المجدليَّة هي امرأةٌ ثريَّة من قرية مجدلة، تعمل بالتجارة وتمتلك بيتًا فخمًا في القدس ـ بيت عينيا. ولكنْ ثمَّة مسٌّ شيطانيٌّ يُصيبها بسبعة شياطين، فتهجر أهلها وتجارتها وتتشرَّد في الطرقات

والبراري، فتتورَّط بالبغاء دون وعيٍ منها، إلى أن يخلِّصها يسوع من شياطينها وبغائها، فتعود إلى رُشدها لتكافئه بالعطر مؤمنةً به داعمةً له، ممَّا يجعلها ذات حظوةٍ عنده، كما أنَّ عطرًا يُقدَّر ثمنه بثلاثمئة دينار لا تقوى زانية على شرائه، وإنَّما امرأةٌ ثريَّة مثل المجدليَّة.

وبالتالي، فإنَّ المجدليَّة هي الحضور المتناقض في الحياة، الحضور الثنائيّ للخير والشرّ.. للتوبة والخطيئة.. للملاك والشيطان.

من جهة أخرى، فإنَّ مسح قدميْ يسوع بالطِّيب يتكرَّر مرَّتيْن عند مريم أخت لعازر والخاطئة، وهذا ربَّما يُدلّ على وجود طقسٍ أو تقليدٍ معيَّن تمارسه النساء في ذلك العهد، كما أنَّ إطلاق تعبير المرأة الخاطئة وربطه بالزنا والبغاء ليس دقيقًا بالضرورة.. فالخاطئة قد تكون كذلك بنظر تقاليد المجتمع الدينيّ وأعرافه، والطابع اليهوديّ في تلك الفترة.. وقد تكون خاطئة لأنَّها آمنت بيسوع، أو لأنَّها تمارس نمطًا من عبادةٍ سرِّيَّةٍ غنوصيَّة.

وما تجلِّي يسوع الأوَّل بعد الصلب للمجدليَّة والمذكور في إنجيل يوحنَّا (20: 18 ـ 11) سوى تأكيدٍ على أنَّها شخصيَّة مهمَّة ومؤثِّرة، ليس في حياة يسوع فقط، إنَّما في وسطها الاجتماعيّ الجليليّ والمقدسيّ أيضًا.

وعليه، فإنَّ الحضور الهشّ والملتبس، إضافةً إلى العلاقة الغامضة ما بين المجدليَّة وبطرس وبقيَّة التلاميذ، بحاجةٍ إلى مزيدٍ من البيانات.. مع الأخذ بعيْن الاعتبار عدم إثقال المتن الروائيّ بها.

[ملاحظة: مراد يا صديقي..

سأبوح لك الآن بسرِّي الذي لا أقوى على كتابته في بريدنا المهرَّب.. بلى.. سأعلمك بكلِّ تناقضاتي وتُرّهاتي. للاسم مناعة يا مراد وللقناع حصانة.. وأنا عثرت على قناعٍ واسمٍ لأتسلَّل من خلالهما إلى أعماق العالم الكولونياليّ.. أليس هَذا ما يقوله صديقك فرانز فانون حول الجلود السوداء والأقنعة البيضاء؟

شابيرا.. أور شابيرا.. مثل بوند.. جيمس بوند.. إذ أشعر أثناء تجوُّلي في شوارع وميادين تلّ أبيب والقدس الغربيَّة أنَّ ملامحي الأشكنازيَّة المُكلَّلة بهذا الاسم.. أشعر بأنَّني بطلٌ خارق متنكِّرٌ بزيٍّ معيَّنٍ لكي يخفي ملامحه الحقيقيَّة مثل باتمان.. سبايدرمان.. سوبرمان.. أمَّا أنا، فأنا أور شابيرا مان، بلى.. لكنَّني لا أشعر بأنَّني خارقٌ أو بطل.. أشعر فقط بالملاحقة.. بالخوف.. بالضعف.. بالالتباس.. بالتناقض.. كلّ هذا هو ما يجعلني أعتقد للحظة بمعجزةٍ ما قد تخلِّصني من كلّ ما أنا فيه من عجز.. معجزة تقودني إلى الإيمان بقوَّةٍ خارقة تجعلني بطل أحلامي أنا ولا أحدٌ سواي.

أوَ هل تعلم شيئًا؟

أنا أجد متعةً هائلة بنجاحي في تمرير شخصيَّتي كأور شابيرا.. هذا الاسم مذهل! القناع يمنحني اكتفاءً تامًّا.. ممارسة هذا الاسم على أرض الواقع الكولونياليّ هو انتهاك بحدِّ ذاته للاسم الآخر الذي انتهكني منذ وُلدت من رحم الأزقَّة.. أنا لم أنتحل الاسم فقط، بل تخيَّلته أيضًا.. امتلكتُ الجرأة عن

التخيُّل.. جرأة الذي ليس لديه شيء ليخسره في عالم الخسران والنكران هذا.. حتى ملابسي يا مراد، كنت أقتنيها من المتاجر والأسواق الصهيونيَّة.. كنت أدخل إلى المتجر لأراقب الآخر وهو يختار ملابسه لكي أقتني مثلها.. إنَّها التفاصيل يا صديقي أليس كذلك؟!]

يُنهي تسجيل البطاقة بجولته الإلكترونيَّة المعتادة، مبتدئًا بآخر الأخبار التي استقاها من مواقعَ متعدِّدةٍ باللغات العربيَّة والعبريَّة والإنجليزيَّة، التي اتَّفقت جميعها على خبرٍ واحدٍ يُفيد بتزايد حدَّة التصعيد والتوتُّر في القدس، لا سيَّما في باب العمود وحيّ الشيخ جرَّاح.

يزفر بحرارة وهو يتابع قمع قوَّات الشرطة وحرس الحدود الصهيونيَّة لأهالي الحيّ والمتظاهرين من المتضامنين مع قضيَّتهم، ثم ينسحب من الأخبار ليتجوَّل جولاته الأحبّ إلى قلبه، وهي مواقع الجمعيَّات والمعاهد الأثريَّة والتاريخيَّة. لا جديد في المواقع العربيَّة، ينتقل إلى العبريَّة، ثمَّة خبر يُفيد بقُرب الانتهاء من أعمال التنقيب في موقعٍ بيزنطيٍّ آثاريّ يُعدّ الأضخم في الشرق الأوسط، ويقع قرب قرية يَبْنَة المهجَّرة في جنوب فلسطين، ثم يمضي إلى المواقع الإنجليزيَّة، ويستوقفه إعلان صادر عن «معهد أولبرايت للأبحاث الأثريَّة» حول نيَّته افتتاح موسم التنقيب الثاني عن معسكر الفيلق الرومانيّ السادس قرب موقع مجدو الآثاريّ، ثم ينتهي من التجوُّل الإلكتروني ليتفقَّد رسائله الإلكترونيَّة وسجلِّ مكالماته، باحثًا عن إشارةٍ أو مكالمةٍ فائتة من الشيخ مرسي على الأقلِّ فلا يُصدم إلَّا بالصمت.

منذ شهر ونصف الشهر وهو ينتظر مترقِّبًا. قال له الشيخ مرسي:

ـ عد إلى رام الله الآن.. فوجودك هنا في القدس يُشكِّل خطرًا عليك.

وها هو ذا في هذه الحجرة التي انقلبت سفينةً تؤرجحه، وتقلب أحواله وكيانه في بحر ذاكرته الهائج المائج، يبحث عن ميناءٍ يرسو فيه، عن قدسٍ يعود إليها كما دخلها أوَّل مرَّةٍ فاتحًا مفتتحًا أحلى أحوال حياته في ربيع عام 2016، عندما التحق بالعمل مرشدًا سياحيًّا للوفود السياحيَّة القادمة من أصقاع العالم حجَّاجًا وسيَّاحًا لزيارة القدس وأكنافها. كان ذلك إثر تخرُّجه من معهد الآثار بعد طول صبر وعناء، حيث نصحه أحد أساتذته، مدفوعًا بتأثُّره بشغف تلميذه وتفوُّقه الآثاريّ التاريخيّ، بالعمل الآثاريّ والسياحيّ الحرّ في البداية إذا ما أراد تكوين سمعةٍ مهنيَّةٍ وميدانيَّة في مجال تخصُّصه تساعد في تطوير خبرته ومعارفه، كأساسٍ لاستكمال دراساته العليا فيما بعد. ليدبِّر له أستاذه «بهجت نجوان» في النهاية شؤون عمله، منتهزًا علاقته العميقة بِـ «شكيب القصّابي»، مالك إحدى أكبر شركات السياحة والسفر في القدس، مُعدِّدًا مواهب نور ومزاياه في هذا المجال، أهمّها إتقانه للغتيْن العبريَّة والإنجليزيَّة، وسعة اطِّلاعه الآثاريّ والتاريخيّ خاصَّة فيما يتعلَّق بالتاريخ الرومانيّ والبيزنطيّ في فلسطين، إضافة لإطلالته الجذَّابة؛ هذه الإطلالة التي دفعت شكيب القصّابي إلى التغاضي على مضض عن أصل نور اللاجئ وتسلُّله إلى القدس ما بين الفينة والأخرى بلا تصريح عمل، مؤكِّدًا لصديقه بهجت أنَّه

سينكر أيّ صلة بنور إذا ما تمَّ إلقاء القبض على هذا الأخير من شرطة السياحة أو حرس الحدود الصهيونيّ متلبِّسًا بشرعيَّة مُنتحلة.

وفي القدس، تجلَّى «مرسي الغرناطيّ». الشيخ مرسي ـ كما كان يُحبّ أن يُلقَّب ـ حارسًا وراعيًا لنور الغريب القادم من أعماق الأزقَّة.

الشيخ مرسي ابن حارة السلسلة الواقعة في البلدة القديمة، ذو الأصول المغاربيَّة الضاربة في أندلسيَّتها وصوفيَّتها، الأربعينيّ حينذاك بطوله الفارع وسمرته الساحرة، ما الذي جذبه لنور سوى ذلك الاقتضاب المليء بالصمت صمت محبَّذ؟

بكلماتٍ معدودةٍ واثقة، جذبه نور إليه مُعزِّزًا ذلك بسكونه وعدم تدخُّله بما لا يعنيه، وتنفيذه للأوامر دون أيّ جِدال وتأفُّف، ليحتضنه الشيخ مرسي مستغلًّا حظوته لدى شكيب القصَّابي، الذي لم يكن واثقًا بدوره من إمكانيَّة استمرار نور بالعمل لديه، فكلّ بداية صعبة، خاصَّة تلك المتعلِّقة بشابٍّ فلسطينيٍّ لاجئ مُتسلِّل للعمل في القدس بلا تصريح، بيْد أنَّ الشيخ مرسي الذي كان يعمل لدى شكيب منذ أن كان عمره خمسة عشر عامًا، ومن قبله أبوه ركن الدين الغرناطيّ، لقَّن نور أصول المهنة بصبرٍ وأناة، مُغدقًا عليه معارفه وخبرته كاشفًا له عن قدسٍ أخرى غير تلك التي قرأ عنها في الكتب والمواقع الإلكترونيَّة؛ قدس الشيخ مرسي كانت بالنسبة لنور أبهى وأجمل.

لم يخيِّب نور أمل أستاذه، وأدهش الشيخ مرسي بسرعة تعلُّمه، وفصاحة لسانه، وسعة معرفته، إلى أن بلغ به اجتهاده

الانتقال نحو مرحلةٍ متقدِّمة في العمل، حيث أصبح مرشدًا سياحيًّا بالتمام والكمال، مُستمتعًا بمرافقة الوفود والمجموعات الأجنبيَّة ليس في القدس وأزقَّتها فقط، بل في بيت لحم والناصرة أيضًا، خاصَّة في مواسم الأعياد المسيحيَّة، وفي تلك الأجواء انبثقت مريم المجدليَّة من رواية «شيفرة دافنشي» لدان براون، لتسكنه في أوْج توحُّده بمهنته السياحيَّة، التي كان من أهمّ مزاياها اطِّلاعه على أحدث المعلومات والاكتشافات الأثريَّة والبحوث التاريخيَّة.

لقد كان، في سرِّه، يُدرك أنَّ توحُّده في حاله السياحيّ هذا سببه هروبه من وجه الخواء، والهجران، والخيبة، والصمت، والتصحُّر، والالتباس، وابتعاده عن تلك الظلال؛ ظلال أبيه الذي لم يكن عابئًا بدراسة ولده نور وعمله، نور الذي لفظ الأزقَّة وخيبة أبيه وأجواء رام الله المرتعشة والخاطفة.

هذا التوحُّد المغترب الذي رافقته جرأةٌ استمدَّها نور من سوق الخردوات في يافا، وانبثاق لغةٍ أخرى في لسانه بفصاحةٍ أشكنازيَّة، قادته إلى المشاركة في حضور ندواتٍ ومؤتمراتٍ كانت تُعقد في القدس وحيفا وتلّ أبيب لأهمِّ الباحثين والمختصِّين في علم الآثار على مستوى العالم. أمَّا تذكرة عبوره إلى عالم الآخر المؤثَّث بكولونياليَّة مُطعَّمة بالحداثة والحضارة المحفوفة بالمخاطر وإمكانيَّة القبض عليه متلبِّسًا بشخصيَّةٍ ليست له، فكانت من خلال تعربش هويَّة أور شابيرا عليه، وذلك عندما باح بسرِّها، وللبوح بأسرار نور تقاليدُ وأصولٌ، أهمّها تراجعٌ في حدَّة الصمت مقابل زيادةٍ طفيفةٍ في حجم البوْح إزاء شخصٍ معيَّن يوحي بالثقة والأمان، وهذا الشخص كان الشيخ مرسي الذي أفضى له نور

ببطاقة هويَّة أور شابيرا بعد عاميْن من عثوره عليها، طالبًا منه العوْن في تزويرها عبر استبدال صورة أور بصورته هو، واثقًا نور في مسعاه ذلك من أنَّ الشيخ مرسي ابن القدس وأعماقها وخفاياها ودهاليزها السرِّيَّة وحده من يقدر على فعل ذلك.

سأله الشيخ مرسي في ذلك المساء محذِّرًا:

ـ هل أنت متأكِّد من هذه المخاطرة؟

ـ نعم.

ـ وهل تعلم أنَّ القبض عليك ببطاقة هويَّة مزوَّرة يختلف عن القبض عليك بلا تصريح عمل.. فالعواقب وخيمة؟

ـ أعلم هذا أيضًا.

ـ وهل تعلم أنَّ عائلة شابيرا هي من أعرق العائلات اليهوديَّة الأشكنازيَّة؟

ـ أعلم.

ولم يتردَّد الشيخ مرسي في مساعدته، مطمئنًّا لثقته بنور وثقة هذا الأخير بنفسه، وصمته وجرأته وابتعاده عن ترّهات الثرثرة وحبّ الظهور والفضول، ليعود بعد أسبوع وبيده قناع نور الجديد.

ما إن تفحَّص نور البطاقة حينذاك مُتمعِّنًا بصورته الأشكنازيَّة المتقنة، حتى أحسّ بإحساسٍ غامضٍ مؤلم، شعر أنَّ ثمَّة شيئًا يقضمه؛ فالقناع لم يعد بالملامح فحسب، بل امتدَّ ليسري في هويَّته ويمزجها بهويَّةٍ أخرى، متسائلًا في سرِّه حينذاك:

ـ هل سأرتكب حقًّا هذه الشخصيَّة الصهيونيَّة الأشكنازيَّة؟

ماذا لو اكتشف هو أمري وعثر عليَّ متلبِّسًا بظلِّه وهويَّته في شارعٍ ملعون الأقدار في تلّ أبيب أو القدس؟

سأباغته أنا.. سأنقضّ عليه متسائلًا باستنكار هجوميّ قبل أن ينقضّ عليه هو:

«ـ *من أنت؟ أنت لست أور.. أنا أور شابيرا.*

ـ *بل أنا أور شابيرا وأنت من انتحلتني وانتهك هويَّتي.. من أنت.. قل؟*

ـ *أنا أور كما قلت لك.*

ـ *قل ما اسم أباك إذن؟*

ـ *نيتسان.*

ـ *اسم أمّك؟*

ـ *ليطال*

ـ *اسم جدِّك؟*

ـ . . .

ـ *اسم جدَّتك؟*

ـ . . .

ـ *أرأيت أيُّها الأحمق.. أنت لست أنا.. فمن أنت؟*

ـ *أنا أنت.. أنا مرآتك*».

وفي مسعاه القناعيّ الأشكنازيّ هذا، لم يتطاول نور بارتداء القناع واستخدام هويَّته المزوَّرة إلَّا نادرًا، إذ كان يستخدم الاسم فقط، وأمَّا الهويَّة فكانت ملامحه ولغته العبريَّة المتقنة كفيلتيْن

بمروره الآمن إلى مقاصده الأثريَّة التاريخيَّة الخاصَّة ببحثه عن أصول وأقدار مريم المجدليَّة. لم يعد نور يُقيم عند الحافَّة، بل في أعماق المركز، مركز آخره الذي خلقه من النكبة والأزقَّة.

هذا ما أدركه أثناء توغُّله في هويَّة أور شابيرا؛ إذ كان على وشك الوقوع نحو أعماق هاوية التباسٍ لا قرار لها، ليستعيده صديقه مراد من غياهب أسره دون أدنى قصد منه، ومعرفة مُسبقة بغوايات قناع نور الأبيض والأزرق. انتشله بتلك الكتب والدراسات المُذخَّرة بأصول ومحدَّدات الكولونياليَّة وتاريخها، ونشأة الحركة الصهيونيَّة وأهدافها وأصول كيانها السياسيّ والجغرافيّ، ليعود نور، ليشهق، ليتنفَّس أصله اللاجئ والمشرَّد والمشوَّه والمنكوب. لم ينسحب نور الشهديّ من أمام هويَّة أور شابيرا بل واجهها.. بل ارتداها هذه المرَّة مُدركًا أصولها، فالإدراك هو ما منحه الحصانة وعدم التحوُّل إلى كائنٍ مكوَّنٍ من بشرةٍ سوداء وقناعٍ أبيض بحسب رأي صديق مراد «فرانز فانون».

إلى أن جاء اليوم الذي صرخ فيه نور بكلِّ الأسماء التي تعلَّمها، اليوم الذي تسبَّب بعزلته هذه المستمرَّة منذ شهر ونصف الشهر، وذلك عندما كلَّفه ربّ عمله شكيب القصّابي بمرافقة مجموعة سياحيَّة أميركيَّة إلى برِّيَّة صرعة الواقعة غرب القدس.

حينئذٍ، احتجَّ نور في سرِّه؛ لأنَّ عهده بالشركة والعمل على استقبال المجموعات السياحيَّة ومرافقتها إلى البلدة القديمة، للإطِّلاع على معالمها الدينيَّة والتاريخيَّة، إذ كان قد برع متمرِّسًا في قيادة المسير الخاصّ بدرب الآلام، ووقفات يسوع الأربع عشرة قبل صلبه على جبل الجلجلة حيث كنيسة القيامة، غير أنَّ

تردِّي حركة السياحة وتراجعها بسبب جائحة ڤيروس كورونا، وحاجته إلى راتبه والإكراميَّات التي يُغدقها السُيَّاح عليه، دفعاه للموافقة على مضض. وحده الشيخ مرسي مَن لمس ضيقه ونفوره من مرافقة المجموعة إلى برِّيَّة صرعة، فرافقه إلى باب الحافلة الصغيرة هامسًا بأذنه:

ـ تحمَّل يا نور.. فالعمل عمل وما عليك إلَّا الإرشاد فقط.

تأفَّف نور مومئًا برأسه علامة الاستسلام والقبول، ثم استقلَّ الحافلة مفتتحًا بلغته الإنجليزيَّة اللافتة أصول مهنته الإرشاديَّة طيلة الطريق إلى برِّيَّة صرعة، مشيرًا عبر النافذة إلى أهمِّ المعالم الأثريَّة والدينيَّة معزِّزًا ذلك بأهمِّ الأحداث التاريخيَّة التي وقعت في محيط تلك المواقع، إلى أن انعطفت الحافلة بعد نصف ساعة نحو طريقٍ فرعيٍّ ضيِّقٍ مؤدٍّ إلى الموقع السياحيّ والتاريخيّ، الواقع على تلٍّ مُحاطٍ بسلسلةٍ من المرتفعات الحرجيَّة المطلَّة بدورها على مساحاتٍ شاسعة من محيط القدس الغربيّ، حيث توقَّفت الحافلة في بداية الطريق المتعرِّج والضيِّق المُفضي إلى موقع آثاريّ توراتيّ، يعلم نور أهواله وأسراره جيِّدًا، بعد أن اطَّلع على بياناته من خلال منشورات وزارة السياحة الصهيونيَّة، إذ هو موقع القرية التوراتيَّة «صرعة» مسقط رأس البطل التوراتيّ الخارق «شمشون الجبَّار».

ترجَّل السيَّاح من الحافلة، واستعدُّوا للمسير والتوغُّل في الطريق الضيِّق الذي يخترق البرِّيَّة، ثم انطلقوا، يقودهم نور، محفوفين بمقاعد خشبيَّة للاستراحة مُظلَّلة بالأشجار الحرجيَّة، مُصغين باستمتاع لخطاب نور السياحيّ المثير، وهو يشير بذراعيْه

هنا وهناك، متحدِّثًا، وقد انسحب من هويَّته الحقيقيَّة وأصله اللاجئ بصوتٍ يشبه صوت الروبوت الآليّ:

ـ نحن الآن نسير في طريق شمشون الذي يخترق برِّيَّة «حاييم وايزمان» الرئيس الأوَّل لدولة إسرائيل.

لقد بدأت حكاية هذا الموقع التوراتيّ وتحويله إلى موقعٍ سياحيٍّ ساحرٍ، عندما عزم صندوق أرض إسرائيل عام 1991 م، دعوة أكثر من سبعة وثلاثين فنَّانًا ونحَّاتًا معظمهم من المهاجرين الجدد القادمين من روسيا وشرق أوروبا؛ إذ عرضت عليهم إدارة الصندوق قطعًا صخريَّة ضخمة من هذه البرِّيَّة لكي ينحتوا منها تماثيل وتحفًا فنِّيَّة مستوحاة من أحداث وقصص التوراة، خاصَّة حكاية شمشون ودليلة.. وعليه، فقد تحوَّل هذا الطريق المهجور إلى طريق التماثيل التي ترونها الآن على طرفَي الطريق المؤدِّي إلى قبر شمشون وأبيه منوح في أعلى التلّ..

تسلَّقوا التلّ، وبلغوا المقام المشيَّد من الحجارة وسقف مُقبَّب بقبَّتيْن صغيرتيْن بيضاويْن، وعلى حائط المقام عُلِّقت يافطة كُتب عليها باللغة العبريَّة «قبر شمشون البطل وأبيه منوح». وإلى جانب المقام ثمَّة استراحة ومقاعد خشبيَّة عريضة تُطلّ على مرتفعات القدس الغربيَّة وأحراشها، إضافة إلى «دير رافات» الكاثوليكيّ ذي البناء المنيف المحروس بتمثالٍ كبيرٍ لمريم العذراء زيّن واجهته الأماميَّة.

ثم توقَّف نور عن الحديث فجأةً، مُقلعًا عن خطابه السياحيّ التوراتيّ، اختنق غصَّةً ملعونةً أحرقت حلقه، اعتقد بعض السيَّاح أنَّ تسلُّق التلّ ومبالغته الخطابيَّة قد ذهبا بأنفاسه، فاقتربت منه

سائحة مسنَّة وزوَّدته بكلِّ عطفٍ ببعض الماء من زجاجتها. تأمَّلها بصمتٍ للحظات وهو يلهث، ثم استدار حول نفسه ملهوفًا كأنَّه يبحث عن شيءٍ فقده منذ زمن، ثم تسلَّق على حين غرَّة جدار المقام الواطئ صاعدًا نحو سطحه وشرع بخطابٍ حماسيٍّ مثير بصوتٍ صارخٍ مجروح:

ـ كلَّا سيِّداتي وسادتي.. كلَّا.. دعوني أستسمح طُهر آذانكم، وبراءة قلوبكم، وإخلاص ضمائركم المؤمنة بالخلاص القادم.. لأقول لكم إنَّ كلّ ما تفوَّهتُ به منذ قليل ما هو إلَّا ترُّهاتٍ وخزعبلات لا أساس لها من الصحَّة.. فهنا سيِّداتي وسادتي حيث تقفون الآن تقع أنقاض وأطلال القرية العربيَّة الفلسطينيَّة صرعة.. التي نُكبت وهُجِّر أهلها البالغ عددهم أربعمائة نسمة في شهر تموُّز من عام 1948.. بلى هُجِّروا.. وها هم الآن يقبعون لاجئين ولاجئات في مخيَّمات اللجوء.. لقد دمَّرت العصابات الصهيونيَّة القرية؛ لتُشيِّد مكانها «كيبوتس صرعة».. وهذا بيت مختار القرية يشهد على ذلك.. حيث تقفون أنتم الآن فوقه.. وأمَّا هذا المقام الذي أقف فوقه، فما هو إلَّا مقام الشيخ سامت الذي كان يتبارك به أهل القرية والقرى المجاورة، مُقدِّمين له النذور والقرابين طلبًا للحبل والذرِّيَّة.. بلى، سيِّداتي سادتي.. لا يوجد شمشون هنا ولا ما يحزنون.. لا يوجد بطلٌ خارق.. لا يوجد قبورٌ للأبطال الخارقين.. فشمشون مثل سوبرمان لا يموت.

أمَّا هنا، حيث تقفون، فلا يوجد سوى نكبةٍ وشعبٍ هُجِّر من أرضه.

ثم صمت نور، اختنق من جديد، فقفز عن سطح المقام أمام شهقات وجزع الحشد السياحيّ الأميركيّ، منسحبًا من أمامهم بسرعة، هابطًا عن التلّ ولوثة التاريخ والنكبة والتشريد، مُخلِّفًا وراءه الحشد المذعور والمجروح من خطابه النكبويّ الحادّ وجنونه المباغت، كما خلَّف مصدر رزقه الوحيد بعد أن علم مدير شركة السياحة شكيب القَصَابي بخطاب نكبته، فطرده بأقسى عبارات السخط والغضب، في ظلّ ضحكةٍ مكتومةٍ ربَّت بها الشيخ مرسي على كتف نور طالبًا منه بكلّ محبَّةٍ وحرصٍ الاختفاء في أعمق زقاق من أزقَّة مخيَّمه حتى لا يكشف أمره مراقبو وزارة السياحة الصهيونيَّة، فاختبأ نور واحتجب في حجرته هذه ليولد بالنهاية من رحم مريم المجدليَّة.

في العصريَّة التي لا تبشِّر بنسائم عليلة، تطيح بذاكرته لُزوجة جسده ورائحته، فيمضي للاستحمام لإزالة قيظ نهاره، واستعادة نشاطه، وصفاء ذهنه، في هذا الوقت الثقيل الذي لا يزحف عليه، وإنَّما نور هو من يزحف أسفله ببطء شديد.

للوقت كثافةٌ وجاذبيَّةٌ، وكسلٌ مسعور، جشعٌ للرتابة والملل والنزق والترف. ونور قرفان زاحف يئنّ في استحمامه الذي يأخذ منه دقائق لوقت العبث، يستحمّ في بيتٍ ساكن يتحايل فيه أبوه على الصوم بنومٍ محبَّذ؛ ليهرب من الحرِّ والعطش واللهفة لسيجارة.

أمَّا خديجة، فليس من المؤكَّد إذا ما كانت نائمةً أم لا! هي المعلَّقة على خمود أبيه.

يتوجَّه بعد استحمامه المنعش نحو المطبخ، يفتح الثلَّاجة، لا يشتهي طعامًا بعيْنه بل غذاءً؛ لأنَّ ذاكرة مفترسة كذاكرته لا تشتهيه إلَّا دسمًا سمينًا؛ لكي تلتهمه ببطء بأنياب وقتها الوحشيّ.

ثم يصعد إلى حجرته، يغويه صفاء ذهنه، والسكون المحيط به بتسجيل بطاقة جديدة:

[عصريَّة الثلاثاء: 20 نيسان ـ 2021: عطور مريم المجدليَّة:

«فأخذت مريم منًّا من طيب ناردين خالص كثير الثمن، ودهنت قدميْ يسوع، ومسحت قدميْه بشعرها، فامتلأ البيت من رائحة الطيب». (يوحنَّا 12: 3).

«وإذا امرأةٌ في المدينة كانت خاطئة، إذ علمت أنَّه متّكئ في بيت الفريسيِّ، جاءت بقارورة طيب، ووقفت عند قدميْه من ورائه باكية، وابتدأت تبلّ قدميْه بالدموع، وكانت تمسحها بشعر رأسها، وتقبِّل قدميْه وتدهنهما بالطيب.» (لوقا 8: 38 ـ 32).

أيّ روعة هذه.. كم يأسرني هذا المشهد الذي وصف بدقَّةٍ ينقصها صوت التنهُّد المرفق بالدمع.. مشهدٌ للعشق المقدَّس! لكنْ.. لماذا لم يجرِ تسليط الضوء على الغيرة والامتعاض اللذين انبعثا من صدور بعض تلاميذ يسوع؟

إذ لم يكن يهوذا الأسخريوطيّ وحده من استنكر فعل المجدليَّة، بل ثمَّة آخرون استنكروا ذلك، لا نفورًا من التبذير، بل من نيل المجدليَّة لحظوة ومحبَّة يسوع.. وهذا ما ينقلني إلى البحث في المصادر غير الإزائيَّة.. تلك المصادر التي جرى

إسكاتها واقصاؤها عن متن النصّ المقدَّس.. ألا وهي الأناجيل الغنوصيَّة التي سلَّطت الضوء على حضور المجدليَّة في حياة يسوع، ودورها المحوريّ في حياته وولوجها إلى حلقته الخاصَّة.. وهذا ما نجده في إنجيل فيليب الذي أشار إليه دان براون في روايته المقيتة. ولكنْ قبل الحديث عن هذا الإنجيل يجب أن أُشير في نصِّ الرواية النهائيّ إلى إشارةٍ تاريخيَّةٍ عن كيفيَّة العثور على الأناجيل الغنوصيَّة العرفانيَّة في قرية نجع حمادي الواقعة على ضفاف النيل شماليّ الأُقصر.. والتي اكتُشفت فيها بالصدفة مكتبة غنوصيَّة كاملة عام 1945 م، ونُشرت محتويات هذه المكتبة كما يُدَّعى في 1980 م، وهي 52 إنجيلًا كانت مُخبَّأة في جرَّةٍ فخّاريَّةٍ كبيرة.. ومن هذه الأناجيل أجزاءٌ من إنجيل مريم المجدليَّة، إضافةً إلى إنجيل فيليب وإنجيل توما، والعديد من الرسائل والوثائق الغنوصيَّة.

ملاحظة:

أوَتعلم شيئًا يا مراد؟ في البداية، كان اكتشافي لملامحي المتناهية مع الملامح الأشكنازيَّة مجرَّد تسلية.. مغامرة.. إلى أنْ أدركت حين باغتَّني أنت برسائلك المهرَّبة من المعتقل، وتلك الكتب الفكريَّة أنَّ الملامح هويَّةٌ في عالمٍ غيَّب وشوَّه ملامحي الأصليَّة.. هكذا اخترعتُ اسمي الآخر. في البدء، كنت أستعير أسماءً مختلفة أثناء ولوجي بالتفاصيل الكولونياليَّة الصهيونيَّة بحسب رأيك أنت.. مرَّةً اسمي ناتي، ومرَّةً رافي أو بنيامين.. إلى أن تعثَّرت باسمي الأفضل في المعطف الجلديّ: شابيرا.. أور شابيرا.. ليرافقني الاسم مثل الجوكر. بالمناسبة، هل

شاهدت فيلم الجوكر لجواكين فينيكس؟!

الاسم ورقتي الرابحة التي أرمي بها في أصعب الأوقات وخطّتي البديلة في اللحظة المعقّدة والحاسمة، رافقني كظلّي إلى أن شعرتُ مرّةً واحدة بسببك أنت أنّني بعتُ ظلّي الحقيقيّ لهويَّة مزوَّرة فغدوتُ بلا ظلٍّ. كنتُ في ظلّ أبي بلا صوتٍ، والآن أصبحت بلا ظلٍّ وبلا صوتٍ بعد أن زيَّنتُ ملامحي بهويَّة وقلادة نجمة داود التي كنتُ أرتديها عندما كنت أنوي الذهاب للمشاركة في ندوة تاريخيَّة في جامعة «بار إيلان» بتلّ أبيب مثلًا، أو الجامعة العبريَّة، أو أحد المراكز البحثيَّة في القدس.

شعرت أنَّ هذه الهويَّة ذات غواية تدفعني نحو الاتِّحاد بها وعدم التنازل عنها. كنتُ أشعر بتشبُّثها بي.. بشعري الطويل المجعَّد وعينيَّ الزرقاويْن ولغتي العبريَّة ذات اللكنة الأشكنازيَّة التي تلدغ حرف الراء بتميُّزها وتقلب الحاء خاء والعيْن همزة.. لأُذهل بالنهاية من أهمِّيَّة الملامح والوجوه في الميادين والطرقات الصهيونيَّة. الملامح تصنيفٌ مُسبق في تلّ أبيب ولكنَّها ليست كذلك في أماكن أخرى.. فملامحي أصيلة كملامح العديد من أبناء شعبي المحتلّ.. وما قمت به ليس سوى التحايل على قيمة الملامح لدى المعايير الصهيونيَّة الكولونياليَّة. قيمة الملامح تستمدُّ معانيها من العنصريَّة والأحقِّيَّة الإلٰهيَّة والتصوُّرات والأحكام المُسبقة؛ إذ إنَّ وجهي الساحر هذا لن يمنحني تفوُّقًا في نيويورك أو باريس أو لندن إلَّا أثناء إغوائي لامرأة حسناء. أمَّا هنا، فهي تمنح غير ذلك الكثير، تمنح بسخاء.]

يُنهي تسجيل البطاقة بتأثُّر عميق مصحوبٍ بشوْقٍ هائل لصديقه

مراد، ثم يُحدِّق في حجرته، يتفقَّدها بعينيْه، يتفقَّد دفاتره وخردواته وتذكاراته الأثريَّة وكتبه وأوراقه المبعثرة، دولاب ملابسه، معطفه الجلديّ، ثم يقبض على هاتفه عائدًا إلى الصفحة الإلكترونيَّة الخاصَّة بمعهد أولبرايت، ليتمعَّن في تفاصيل الخبر الذي مرَّ عنه منذ سويْعات:

(يسرّ معهد أولبرايت للأبحاث الأثريَّة الإعلان بالتعاون مع سلطة الآثار الإسرائيليَّة عن افتتاح موسم التنقيب الثاني ضمن مشروع وادي يزراعيل الإقليميّ جنوب تلّ مجدو تحت عنوان:

الفيلق الرومانيّ السادس بين الواقع والأسطورة

كما يسرّ إدارة المعهد استقبال المعنيِّين من الباحثين أو المتطوِّعين في مجال علم الآثار من أجل الانضمام للبعثة الأثريَّة المنويّ إقامة مقرّها في كيبوتس مشمار هعيمق لمدَّة شهر بدءًا من 26 نيسان وحتى 26 أيَّار 2021.

للمزيد من التفاصيل يُرجى زيارة مقرّ المعهد الواقع في القدس شارع صلاح الدين.

ملاحظة: ينتهي موعد تسجيل الراغبين بالانضمام للبعثة في تمام الساعة الثالثة من نهار يوم الخميس الموافق 22 نيسان 2021).

يتأمَّل الدعوة بعمق، فهذه ليست المرَّة الأولى التي يتابع بها أنشطة معهد أولبرايت، وكان قد حضر فيه قبل عدَّة أشهر محاضرةً حول قلعة مسعدة الأسطوريَّة، ألقاها أستاذ أميركيّ مرموق في حقل التاريخ والآثار، يُدرك نور جيِّدًا أنَّ المعهد يُعدّ من أقدم

مراكز الأبحاث الأميركيَّة الخاصَّة بدراسات الشرق الأدنى القديمة، وتأسَّس عام 1900 تحت اسم المدرسة الأميركيَّة للبحوث الشرقيَّة، ومن ثم أُعيدت تسميته في عام 1970 باسم عالم الآثار الأميركيّ الشهير المؤيِّد للنهج التوراتيّ في علم الآثار ويليام أولبرايت تكريمًا له على دوره باكتشاف وتعريف أقدم مخطوطات التوراة، والتي عُثر عليها في كهوف وادي قُمران جنوب أريحا في مطالع القرن العشرين.

يُلقي هاتفه إلى جانبه بسؤم واستسلام لواقع عزلته المرير، وهذا الوقت الذي يكسره ليُحيله إلى حطام يجمعه بلحظاته وينثره هباءً في فضاء حجرته وقت الأصيل. دون أدنى رغبة بالتحرُّر من صمت البيت نحو التجوُّل في شوارع رام الله لا لشيء، فقط من أجل كسر إيقاع الوقت الثقيل، فهو لم يخرج من حجرته هذه منذ عودته الاضطراريَّة من القدس سوى الأمس للقاء أمّ عدلي، أمّ صديقه الأسير مراد.

فإلى أين يمضي نور؟

إذ لا أوقات له في هذا المخيَّم، لا ذكريات في رام الله، ليس ثمَّة أنَّاتٌ وأنين وجعلكة فراش وحبٌّ وحنين، لا شيء هنا سوى تسجيله وإصغائه لبطاقاته الصوتيَّة، وغوايات عادته السرِّيَّة وارتعاشاتها، هنا في هذه الحجرة الملقاة فوق بيت صغيرٍ مشيَّدٍ من الأزقّة؛ أزقَّة المخيَّم الواقع في رام الله، رام الله الواقعة في الالتباس والارتكاب اليوميّ لكلِّ الحماقات والخطايا التي قادت نور إلى الصمت، هنا في رام الله لا يوجد أقنعة كما لا يوجد ملامح.

هنا نور أقلّ من إنسان وأكثر من كائن تهالكت هويَّته وطوردت واصطيدتْ والتُهمت. لا حياة في رام الله، فالحياة مفاوضات والمفاوضات بحاجة إلى شارع والشارع هو، هو العبد المعبَّد الذي تمَّ تعبيدهُ بكلِّ ما أحال أبوه إلى بقايا.. إلى أشلاء. إلى أزقَّة صمت وهمهمات.

فما مآلاته؟

كيف انقلبت أحواله وأقداره التي أدَّت به إلى الاغتراب التامّ عن واقعه الزقاقيّ، ورحيله عن تشوُّهه الأوَّل ليرتدي قناعًا أعدَّه من ملامحه التي غدتْ ملامح الآخر. هناك في القدس وتلّ أبيب هل كان نور هو نور أم كان آخره كان أور؟

لا.. لا أقنعة في رام الله.. رام الله هي القناع.

في أُبَّهة العزلة المطعَّمة بصمتٍ أصيل يُدرك نور الشهديّ أكثر من أيِّ وقت مضى أنَّه يعيش في ظلال الأقنعة منذ ثلاثين عامًا، إذ هو بقناع الملامح وأور شابيرا، وأمَّا قناع أبيه فهو الصمت، والمخيَّم قناعه رام الله قاطبةً. والقناع بحاجةٍ إلى وقت، والوقت لا يسعفه بخفَّة مباركة تمضي على عجل، كلَّا، فالوقت أمامه، وراءه، فوقه، أسفله، يُحيط به بروائح الإسمنت والصدأ والرطوبة والطحالب والعفن والخوف والملاحقة.

هو الذي يتلمَّس الآن الملامح وسُنن الأزقَّة وهذا البيت اللعين، هو الذي وُلد من موت أمّه التي ماتت مرَّةً واحدةً فقط، ليعيش بظلِّ أبٍ صامت قرَّر أن يموت على مراحل. كم مرَّةٍ مات أبوه في نظره، كم مرَّة؟!

إذ هي العلاقة المختلَّة الممسوسة بأقدارٍ ليست له، علاقة لم يلمس بها نور أثر الأبوَّة إلَّا مرَّةً واحدة يتيمة، وذلك عندما كان عمره عشر سنوات تلميذًا في مدرسة المخيَّم الابتدائيَّة التي أهلكته مضايقاتٍ ولعناتٍ وتحرُّشات. في ذلك اليوم، عاد نور من المدرسة بائسًا باكيًا، دخل إلى حجرته، وأخرج مقصًّا كبيرًا من الدولاب وقصَّ ضفائر شعره العسليّ الطويلة، واثقًا تمام الثقة أنَّ أحدًا في البيت لن يأبه بفعلته تلك! فخديجة كانت أرضًا جافَّة تبحث عن مطر يرويها، وأمَّا أباه مهديّ فقد كان سماءً صحراويَّة لا غيم فيها، إلَّا أنَّه لمحه في ذلك النهار الأبويّ النادر، فانتفض متنازلًا عن صمته وأريكته المفضَّلة في صالة البيت، وهرع نحو ولده الوحيد قابضًا على رأسه مستنكرًا بصوته الأجشّ:

ـ من الذي فعل بك هذا؟

ـ أنا.

ـ لماذا؟

ـ لأنَّني ولد ولست بنت.. لست نورا.

ـ من يقول إنَّك نورا؟

ـ الأولاد في المدرسة.

جُنَّ جنون مهدي. لم يغمض له جفن في تلك الليلة، أحرق جسده سجائر ولعنات، وما إن حلَّ صباح اليوم التالي حتى رافق نور إلى المدرسة لأوَّل مرَّةٍ في حياته، وسط استغراب ودهشة بعض سكَّان المخيَّم من هرولة مهدي القابض على يد ابنه، نور المسكين الذي يجرجر ساقيْه رافعًا رأسه محدِّقًا بأبيه غير مصدِّق

أنَّه يمسك بيده الآن، وصلا المدرسة حين كان التلاميذ يستعدُّون للاصطفاف في الطابور الصباحيّ في الساحة الرئيسيَّة، اخترق مهدي ونور جموع التلاميذ، إلى أن بلغا المنصَّة وسط ذهول المعلِّمين ومدير المدرسة الذي جذبه مهدي إليه من ياقته بعنف قائلًا له بصوتٍ هادرٍ صارم كما كان يشتهي نور سماعه:

ـ إذا عاد نور في المرَّةِ القادمة إلى البيت ليقصّ شعره سأقصّ لك شاربك.. هل تفهم؟

لم يعقِّب المدير غارقًا بتهديد وتحذير مهدي له في ظلِّ الهرج والمرج في ساحة المدرسة، ثم عاد مهدي أدراجه مخلِّفًا وراءه ولده المنتفخ الأوداج والفخور بأبيه. في ذلك اليوم، لم ينعم بلحظاتٍ معدودةٍ من أبوَّةٍ مفقودةٍ فحسب، بل نَعِم بصداقة مراد وحمايته له.

والآن، ماذا يفعل؟

لقد سئم رقصة التانغو، تعب من هذه المراوغة، يتمنَّى الآن لو أنَّ ذاكرته مُخزَّنة في هاتفه المحمول لكي يحذفها بسهولة ملقيًا بها في سلَّة المهملات الافتراضيَّة، بالسهولة التكنولوجيَّة، فليس لديها أحقادٌ دفينة، وإنَّما قدرةٌ عالية على النسيان بكبسة زرٍّ واحدة.

يقبض على هاتفه بحركةٍ لاإراديَّة، يعود مجدَّدًا للاطِّلاع على دعوة معهد أولبرايت، يتملَّى بها بعمق، يقفز عن سريره، ويتجوَّل في الحجرة ميدان خياله. كم هي رحبة الآن، كم هي واسعة! كم هي فضاء!

ثم يهبط من عليائه إلى واقع الحجرة البائس، إلى البيت، الزقاق، المخيَّم، رام الله، البلد، السماء، ليسائل واقعه بمجرَّد حسابٍ أخير:

من أنا؟ من أبي؟ ما هي الأزقَّة؟ أين هويَّتي؟ أين ظلِّي؟ أين مرآتي؟ ماذا أفعل هنا؟!

ليس ثمَّة مجريات خاصَّة به هنا، ليس ثمَّة أحداث، لا وقائع، لا مناسبات، لا مكوِّناتٌ لذاكرةٍ جديدة، لا أعياد، لا ملابس جديدة، لا (..) للحياة.. للصداقة.. للحبِّ.. للقصائد.. للرقص.

لقد أقلع عن المخيَّم منذ زمن، منذ خروج أبيه من المعتقل، منذ اعتقال صديقه مراد. وأمَّا رام الله فهو لم يتقنها يومًا. لم يشعر بها. فالمدن نوعان: نوع برحم ونوع بلا رحم. نوع ولادةٌ طبيعيَّة ونوعٌ تخصيبٌ اصطناعيّ. نوعٌ به حجارة وعبق ونوعٌ به حديد وصدأ. وثمَّة القدس وثمَّة رام الله، وهو يعتنق القدس متحرِّرًا من أعباء رام الله.

نور يسعى نحو التحرُّر، لا يريد الموت على مراحل كأبيه؛ فأبوه يحتضر صمتًا منذ وفاة نورا وضفائرها وغربته في سجنه وخذلانه في وطنه وحرمانه من ولده واختلاله وجنونه وخرسه. إنَّ الذي يموت على مراحل وحده من يشعر بذلك الفراغ الذي يتَّسع مُتوطِّنًا شيئًا فشيئًا في الجهة اليسرى من صدره. في القلب تمامًا. هذا القلب الذي يستحيل ثقبًا أسود ليبتلع صاحبه. وأبوه بات في الرمق الأخير على وشك الاختفاء في ثقبه الأسود. وأمَّا نور فلا

يرغب بمثل هذا الفراغ. نور سيلد أباه وأمّه منه. سيلد هويَّته، سيستعيد ذاته، سيحرق قناعه.. وسينبعث من رماده. يسترجعه من تأمُّله وهواجسه.

صوت أذان المغرب. إنَّه وقت إفطار يتنفَّس من خلاله الناس صعداء صوْمهم بعد يوم حارٍّ. يحسم أمره، يرتدي ملابسه على عجل مستغلًّا خلوّ الطرقات والأزقَّة من المارَّة، ليذهب لزيارة قبريْ أمّه وجدَّته في مقبرة البيرة. ينسلّ من البيت دون التسبُّب بأدنى إرباك وجَلَبة قد تلفت انتباه أبيه وخديجة إليه. يسير في الأزقَّة، يهرول، ويعدو بلهفةٍ كأنَّ إفطارًا رمضانيًّا شهيًّا سيجمعه بعد قليل مع أمّه، يدخل المقبرة يتوغَّل بين القبور، يبلغ القبريْن الواقعيْن شمال المقبرة والمظلَّليْن بشجرة سرو كان قد زرعها هو قبل خمسة عشر عامًا، يقف مرتجفًا لاهثًا، يتأمَّل القبريْن؛ قبر سميَّة وقبر نورا، والموت لا قناع له، الموت هو الموت، يدنو من قبر أمّه يتحسَّس شاهده. ماذا سيفعل الآن في هذا المساء الخالي من الحياة؟ يفتح كفَّيْه، يتلو سورة الفاتحة، أيخاطبها الآن؟ أيفتتح ترويدة حزن وعويل؟ لا، بل يخشع مستمدًّا البوْح من سكون المقبرة.

آفاق البوْح على إيقاع أنينٍ يعزفه على شاهد قبر أمّه، والشاهد قيثارة حنينٍ حين يزوره مساءً استحال فجرًا من أجل عينيْه، ثم يبكي، يجهش، يحتضن الشاهد، يحتضن اللوعة والشوق لأمٍّ لم يعرفها ويلمحها يومًا سوى صورٍ تذكاريَّةٍ نادرة، وبضع ذكرياتٍ تعلَّمها من لدُنّ جدَّته سميَّة، ثم يجلس متَّكئًا على جدار القبر. يخفت بكاؤه، ينتزع هاتفه من جيبه، ثم يسجِّل بطاقة

صوتيَّة بعد أن تنحنح طاردًا بحَّة عويله:

[مساء 20 نيسان: خاطرة مجدليَّة على قبر أمِّي:

فجرًا.. يقودها العشق إليه.. العطر.. عطرها يُحلِّق بها. ذاك العطر المنبعث منه.. من ركنه القصيّ يقودها إليه.. يدلّها.. فجرًا.. على وجعها تمشي المجدليَّة. تخفق. تبكي. وفي العتمة الشحيحة قبر بلا حجر.. لا أحد بالقبر. ثم تنحني متَّكئة على الوعد.. تبكي.. أنين مجروح يخمد حين تلمح نورًا يحيط بها، فتجفل ملتفتة نحو مصدر النور، فإذا بحبيبها بكامل وعده ونوره يقف منتصبًا يدنو منها. ينحني عليها. يمسك شعرها.. يمسح به دمعها. فتسأله هي بهمس: أهو أنت؟ أهو أنت يا أنايْ؟

ملاحظة:

لن أفوِّت فرصة دعوة معهد أولبرايت.. هذه الدعوة إشارة.. إشارة مجدليَّة لي. مباركة منها من أجل الذهاب إلى مهد الرواية وكلّ الحكاية.. آن لي أن أشتَبك. آن لي أن أستردَّ ذاتي.. سأرتدي قناع أور شابيرا للمرَّة الأخيرة. ستكون هذه الرقصة الأخيرة. رقصتي الأخيرة يا مراد.. أُقسم بروح أمِّي].

يُعيد الهاتف إلى جيْبه. يمكث أكثر من نصف ساعة ساهمًا في الفراغ المُعتم دون أدنى همسة، ثم يقف بثبات. ما الذي يفكِّر به نور؟

يعود أدراجه إلى البيت، ثمَّة حركة خجولة للمارَّة تشي بقرب ازدحام الشوارع والأزقَّة بالمارَّة بعد الإفطار. يحثّ خطاه، يشعر أنَّ عشرات العيون تلاحقه وتراقبه، إذ هو يسير بلا قناع، يشعر

بأنَّه عارٍ، يعدو، يصل البيت، يصعد إلى حجرته، يغلق الباب بسرعة، يأخذ أنفاسه، يجلس على حافَّة السرير، يستلقي على ظهره، يحدِّق في سقف حجرته.. ماذا يفعل؟ ماذا سيفعل؟ هل استحوذ على قدرةٍ خارقةٍ تكفل تسديد ضربةٍ قاضيةٍ لوقت عزلته الزقاقيّ هذا؟

يتأمَّل الحجرة، يحدِّق بمعطفه الجلديّ الأشكنازيّ، ينتفض عن سريره، يهرع نحو خزانته، ينتزع من داخلها صندوقًا خشبيًّا صغيرًا، يفتحه، يُخرج من أحشائه بطاقة هويَّة زرقاء اللون وقلادة ذهبيَّة لنجمة داوود، يضعها في جيب بنطاله، ثم يُخرج ما تبقَّى معه من مال، يحصي المبلغ، 1200 دولار، يقسمها، 600 له و600 لأبيه وخديجة. يجلب حقيبة ظهر كبيرة ملقاةً بجانب الخزانة، يحشر بها ما تيسَّر له من ملابس، وبعض الملفَّات الورقيَّة الخاصَّة ببحثه الروائيّ. ثم يلتفت مستديرًا حول نفسه داخل الحجرة للمرَّة الأخيرة، إنَّها الرقصة الأخيرة، يُقلع عن حجرته وعزلته، يذبح وقت الأزقَّة منتشيًا بالتحرُّر منه، يقف بالصالة، يلمح ظهر خديجة المنغمسة بمتابعة مسلسل رمضانيّ، أمَّا أبوه فليس بالبيت، أبوه بالعربة والعربة بأبيه.. قهوة وشاي وسحلب حليب.

يضع المبلغ المالي على المنضدة الخشبيَّة، ثم يتَّجه صوب باب البيت. باب النجاة من أهوال الصمت وجحيم أبٍ يحتضر خيبةً وخذلانًا. يقف، لا يلتفت، يخشى الالتفات نحو ذاكرته، يفتح الباب، ينتشل هاتفه من جيبه، يجري مكالمةً مع شخصٍ يعرفه جيِّدًا قائلًا له بحزم:

ـ شيخ مرسي ها أنا في طريقي إليك.. إلى القدس.

القسم الثـاني

أور

«قال يسوع: طوبى للأسد الذي يأكله الإنسان، فيصير الأسد إنسانًا. وملعون الإنسان الذي يأكله الأسد، فيصير الإنسان أسدًا».

(إنجيل توما الغنوصيّ)

الفصل الثالث

ـ مرحبًا.. اسمي أور.. أور شابيرا.

حدَّق بهيئته المنعكسة في المرآة من جديد. تنحنح وقال بجدِّيَّة عبريَّة أشدّ:

ـ عمتم صباحًا.. أنا أور.. أور شابيرا.

دار حول نفسه إزاء المرآة.. توقَّف.. رسم ابتسامةً مصطنعة تفوح جاذبيَّة:

ـ بلى أنا هاوي آثار منذ نعومة أظافري.. كما أنَّني أعمل دليلًا سياحيًّا.

تأفَّف بنفورٍ وتذمُّر:

ـ لا.. هذا تفاخر زائد.. لا أعتقد أنَّ أور سيقوم بتقديم نفسه هكذا.

توجَّه نحو نافذة الحجرة الشرقيَّة، شرَّعها ليطلّ على مشهدٍ يأسره ويأخذ أنفاسه دومًا، إذ هو مسجد قبَّة الصخرة على مرمى

بصره، تتغزَّل بقبَّته المُذهَّبة شمس العصريَّة، ممَّا أضفى عليها بهاءً انبعث من عروسٍ شهيَّة.

القبَّة طرحة القدس ومسجدها هذا الهائم في اللازورد والفيروز، وصخرتها قلبها النابض بالقداسة ودماء الأرض والسماء معًا.. من الذي قال إنَّ مَنْ مات عند الصخرة كأنَّه مات في السماء؟

تأمَّل بها، بحرم المسجد الأقصى.. الحرم كلّه وشاحٌ للصخرة، وأمَّا ثوبها فقد طرَّزته هي من مآذن مساجدها وأبراج كنائسها وأديرتها وقُببها وقناطرها وبيوتها العتيقة، وأمَّا السور فهو طوْقٌ يحرسها، هي امرأةٌ، هي المرأة التي خُلقت من دماءٍ وسماءٍ وإسراءٍ ومعراج، وأنبياءٍ وملائكة، وشياطين وملاعين، وحروبٍ وحصارات، وأهوالٍ وبركاتٍ ولعنات، هي امرأةٌ حوصرت على مدار أقدارها المتعدِّدة بأكثر من ثلاثين حصارًا، وما تفتأ تُعيد تشييد بيوتها من خرابها، كهذا البيت الذي يقبع في حجرةٍ من حجراته العتيقة نور الشهديّ المنعكس بالمرآة أور شابيرا، بيتٍ إذا ما قام بتفحُّص حجارته العريقة، فسيعثر على كافَّة أسمائها القديمة منذ يبوس حتى بيت المقدس. أسماءٌ ردَّدها كلّ الذين عبروا منها، وخرمشوا على جسدها بسيوفهم ورماحهم وبنادقهم ومدافعهم، فالقدس من خرابها تبني مجدها؛ مجدًا سماويًّا تارةً وأرضيًّا تارةً أخرى.

غازلها نور، راقصها، أحبَّها، يُحبُّها، يسكن في حُجرةٍ من حُجراتها الواقعة في بيتٍ مُشيَّدٍ من أزقَّةٍ وقناطر حارة السلسلة الواقعة غرب المسجد الأقصى ومنتصف البلدة القديمة، والسلسلة حزامٌ بسُرَّتها القدس البهيَّة.

هي القدس التي لطالما تساءل نور في نفسه عن فحواها:

إذا كانت هذه الأرض مقدَّسة حقًّا، فلماذا هي ظمأى إلى هذه الدرجة المتوحِّشة للدماء؟

قاده تأمُّله في مشهديَّة القبَّة الآسرة إلى تسجيل بطاقةٍ جديدة، يستعيد من خلالها نشاط بحثه الروائيّ مُرتِّبًا أفكاره، جلس على حافَّة السرير الحميم في حُجرةٍ تعبق عتقًا وتاريخًا، لا حُجرةٍ هلكتها الأزقَّة يتمًا وصداً وعتمة:

[عصريَّة الأربعاء 21 نيسان ـ القدس: ملامح العلاقة بين المجدليَّة وبطرس:

تتحدَّد الرؤية الغنوصيَّة بالإجابة على عدَّة أسئلة، من أهمّها:

من نحن؟ ما نحن؟ إلى أين نحن ماضون؟ ما هو النور؟ وكيف نولد من النور؟ ولماذا يرى الغنوصيّ أنَّه غريبٌ عن هذا العالم؟

وما يهمّني في ضوء الرؤية الغنوصيَّة هو إجراء دراسةٍ تحليليَّةٍ نقديَّة لطبيعة العلاقة بين بطرس والمجدليَّة، التي يمكن اقتفاء أثرها في بعض المدارس الغنوصيَّة التي كانت منتشرةً بعد صلب يسوع على مدار القرنيْن الميلاديَّيْن الأوَّليْن. ومن أهمّ النصوص التي تكشف عن طبيعة العلاقة بين بطرس والمجدليَّة نصٌّ مسيحيٌّ غنوصيٌّ اشتُهر باسم «pistis sophia» ينقله ويترجمه لنا فراس السوّاح في كتابه «ألغاز الإنجيل»، حيث «نجد في أحد المشاهد أنَّ بطرس يتذمَّر من احتكار مريم الحوار مع يسوع في تجاهلٍ لأسبقيَّته، ويطلب منه إسكاتها، ولكنَّ يسوع يعنِّفه على موقفه هذا. وبعد ذلك، تقول مريم ليسوع بأنَّها لا تستطيع التحدُّث معه

بحرِّيَّة خوفًا من بطرس الذي يكره جنس النساء، فيقول لها يسوع: إنَّ من يلهمه الروح هو المخوَّل بالكلام رجلًا كان أمْ امرأة».

لهذا النصّ دلالات عظيمة تمنحني صورةً واضحةً عن طبيعة العلاقة بين المجدليَّة وبطرس، لأُحدِّد مرجعيَّةً أساسيَّةً لحبكة الرواية أؤكِّد فيها على دوافع بطرس في نبذ المجدليَّة، متصوِّرًا في الوقت نفسه عبر التخيُّل طبعًا استتار المجدليَّة وهربها خوفًا من اضطهاد بطرس لها، إمَّا في جبل الزيتون أو الكرمل في الجليل برفقة مريديها لكي تجد الوقت المناسب لتدوين تعاليم يسوع السرِّيَّة.

ملاحظة:

صديقي مراد..

أشعر براحةٍ عظيمة عندما أخاطبك عبر هذه التسجيلات الصوتيَّة.. على الرَّغم من أنَّني أعلم أنَّها لن تصلك ولن تسمعها أبدًا، أنت أيُّها الحاضر الغائب.. الحيّ الميِّت.. ألم تقل لي إنَّك تقبع في مقبرة الأحياء؟ على أيَّة حال.. ها أنا الآن هنا في قلب القدس.. هل تصدِّق هذا؟

جئتها بالأمس قبل الفجر بقليل كعاشقٍ، حيث تسلَّلتُ عبر إحدى الثغرات في جدار الفصل العنصريّ المُقام ما بين ضواحي القدس وضاحية الرام. أهو حقًّا جدار فصلٍ عنصريٌّ يا مراد، أم عتبة تفصل بين عالميْن متناقضيْن.. عالم المركز وعالم الهامش.. عالم أور شابيرا وعالم نور الشهديّ؟

إنَّ المفارقة الساخرة هي أنَّني أتسلَّل إلى القدس بلا قناع.. أتسلَّل نور الشهديّ الشابّ الفلسطينيّ اللاجئ.. وأمَّا حين أتجوَّل في شوارعها لا أكون سوى أور شابيرا.. أشعر الآن أنَّك

ستنتفض في وجهي لتقول لي: ألا يوجد لديك خياراتٌ أخرى يا نور؟ هل ستقلِّد الآخر الصهيونيّ من أجل عملٍ روائيٍّ؟ ما الذي دهاك؟

كلَّا يا مراد.. اطمئنّ، فأنا لم أزل أنا نور، بيْد أنَّني نور الجوَّانيّ.. وأمَّا أور فهو أور البرَّاني.. أنا الباطن وهو الظاهر. الباطن يتجلَّى والظاهر يُحجب.

على أيَّةِ حالٍ، دعني أقول لك: إنَّ صمتي يزول هنا.. أصبح خفيفًا سريعًا مُحلِّقًا.. فأنا لم أحمل ذاكرتي عندما انعتقت من أعباء صمت أبي. كلَّا، لم أجلب معي سوى قناعي ومشروعي المجدليّ الروائيّ.. في رقصةٍ أخيرة لم تكن تانغو.. كما لن تكون ذاكرتي مثواي الأخير، بل رواية مريم المجدليَّة. المجدليَّة التي قادتني إلى هنا من جديد، على الرَّغم من المخاطر والتحدِّيات.. ولا تقل لي الآن كعادتك مُتهكِّمًا: إنَّ هذه لصدفةٌ دقيقة ومباركة أن يكون ثمَّة معسكر تنقيبٍ آثاريٍّ قرب قرية اللجون المهجَّرة الواقعة بجانب تلّ مجدو التاريخيّ.

ما هي إلَّا إشارة مجدليَّة مباركة، وأنا رحَّبتُ بها بكلِّ جوارحي وقناعي الذي سأتسلَّل من خلاله إلى أرض روايتي البكر حيث مقام مسك العطَّار.. الأرض التي سأمنحها لبطلي نسيم شاكر لكي يكتب عليها أحداث روايته روايتي.. بلى يا مراد ستكون هذه المرَّة الأخيرة...]

قطع عليه تسجيله طرْقٌ خافتٌ على الباب، أعقبه دخول الشيخ مرسي بطوله الأسمر الفارع، المُكلَّل بقلنسوَّةٍ خضراء، مُجلَّل بجلبابٍ أبيض، لم يكن يرتديه إلَّا في شهر رمضان، حاملًا

بين يديْه طعامًا مكوَّنًا من الكعك المقدسيّ المُسمسم، وزيت الزيتون المعطَّر بالزعتر البلديّ، وبيض مسلوق ولبنة. وضع الطعام على المنضدة الخشبيَّة قائلًا بمرحه المعتاد:

ـ لقد أعلمتني زينب أنَّك مستيقظ منذ الظهيرة ورفضت دعوتها إليك للطعام.. هيَّا، أنت بحاجة للغذاء.

نكَّس نور رأسه مضرَّجًا بحمرة الخجل في هذا النهار الرمضانيّ الذي لم يلتزم به صومًا منذ سنوات مضت، ثم قال بخفوتٍ وإحراج:

ـ اعذرني يا شيخ.. لن أتذوَّق الطعام إلَّا عند موعد الإفطار برفقتكم.

ـ بل ستأكل الآن.. هيَّا.

إنَّه التغاضي المعهود من الشيخ مرسي عن عدم التزام نور بالفروض الدينيَّة، وعدم إلحاحه عليه بضرورة الصيام في بيته على الأقلِّ. هكذا راقت لنور أنفاس الشيخ مرسي الصوفيَّة، وإيمانه الراسخ الذي لا يؤذي به من هم حوله.

قال له نور مستنكرًا:

ـ كيف تجلب لي الطعام وتحثُّني على انتهاك حرمة رمضان في بيتك؟!

ـ مَعاذ الله أن أحثّك على ارتكاب المعصية.. كلّ ما في الأمر أنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يخلقنا صائمين مُتعبِّدين عابدين.. بل خُلقنا ناقصين لنقضي رحلتنا في هذه الدنيا بتعويض ما استطعنا إليه سبيلًا من نقص.

ـ هل أنا ناقص يا شيخ؟

جذبه الشيخ مرسي من رأسه، وحشره تحت إبطه بلطف ومرح:

ـ أنت ناقص غذاء.. ومن نقص غذاؤه نقص عقله. هيَّا.. كُل.

وما إن شرع نور بابتلاع لقمة كعك مُغمَّسة بالزيت والزعتر، حتى عاجله الشيخ مرسي بملفٍّ ورقيٍّ ألقى به بجانبه قائلًا:

ـ ها قد جلبتُ لك سيرتك الذاتيَّة، والمهنيَّة، بالإنجليزيَّة كما طلبت يا سيِّد أور شابيرا.

أقلع نور عن الطعام مُنقضًّا بلهفة على الملفِّ وتفقَّده، إذ بالأمس والأمس كان مسرحًا للقاء ليليّ متأخِّر وصاخب ما بينهما، كان قد طلب من الشيخ مرسي بعض الأورق التي تثبت سيرته السياحيَّة في شركة شكيب القصَّابي، ولكنْ برجاءٍ أخير هو ألَّا تكون السيرة باسمه بل باسم أور شابيرا، جُنَّ جنون الشيخ مرسي بالأمس بعد استقباله، وحُسن وفادته لنور:

ـ نور.. أنت تبالغ يا أخي.. تبالغ كثيرًا.. ما بك؟ لماذا تريد أن تورِّط نفسك بالمتاعب والسجن!

ـ لا يا شيخ مرسي، هذه آخر مرَّةٍ سأطلب فيها شيئًا منك.. إنَّ فرصة الالتحاق بالبعثة الأثريَّة هي أهمّ فرصة بالنسبة لي للانتهاء من مشروع روايتي..

ـ أيّ رواية يا نور؟! أيّ رواية تلك التي تتطلَّب منك المخاطرة بحياتك؟ ألهذه الدرجة فتنتك مريم المجدليَّة؟!

ـ وأكثر يا شيخ، وأكثر.. ولكنَّني لن أحمِّلك على ما لا طاقة لك به.. سأرحل الآن.

ـ أين سترحل أيُّها الأحمق؟! القدس مشتعلة.. ألم تلحظ الشوارع والميادين؟! إنَّها ساحة حرب حقيقيَّة.. الأوضاع صعبة يا نور، والقدس باتت ثكنة عسكريَّة.

ـ لا عليك سأتدبَّر أمري.. أنسيت أنَّني أور شابيرا؟

ـ اللعنة عليك وعلى أور شابيرا.. لقد ذهب بعقلك.

ـ بل ردَّ لي عقلي يا شيخ.

ـ ألم تنتحل هويَّته في برِّيَّة صرعة؟ تريد أن تخرب بيتي؟

ـ كلَّا، لم أستخدم هناك هويَّة أور شابيرا..

ـ نور، أرجوك لا تكذب.. لقد جاء مراقب من وزارة السياحة إلى شكيب، وبيده شكوى من أحد السُيَّاح الأميركيِّين الذي ادَّعى أنَّك كنت تصرخ بهم وتشتمهم وخلَّفتهم وراءك تائهين في البرِّيَّة.. وأنَّ اسمك أور شابيرا.. فلم يملك شكيب من أمره شيئًا سوى إنكار أيّ معرفة مسبقة بك. هل حقًّا فعلت ذلك؟!

ـ لا أعلم.. ربَّما.

استعاده الشيخ مرسي من إمعانه بالأوراق وليلة أمس، سائلًا بحذر:

ـ قل لي.. هل أنت متأكِّد من خطَّتك هذه؟

التفت إليه نور وقد علت وجهه ابتسامة ثقة قائلًا بالعبريَّة:

ـ متأكِّد مئة بالمئة.

حدَّق به الشيخ مرسي مأخوذًا بثقة نور بنفسه وإتقانه البالغ

للغة العبريَّة بملامحها الأشكنازيَّة، وإصراره على ارتكاب المخاطر في سبيل رواية المجدليَّة، ثم وقف قاصدًا مغادرة الحجرة، متمنِّيًا له التوفيق مكرِّرًا دعوته إليه للطعام.

غير أنَّ نور كان قد عاد للتمعُّن في سيرته المهنيَّة المفبركة، التي شعر للحظة أنَّها أسبغت الشرعيَّة على شخصيَّته المنتحلة أور شابيرا. وما هي إلَّا ساعاتٌ قليلة فقط تفصله عن ارتداء القناع؛ للالتحاق بالبعثة الأثريَّة غدًا في معهد أولبرايت. ساعات سيقضيها في محراب عشقه الأسمى. القدس. وللقدس في نيسان هذا العام طقوسٌ بهيَّة ترتدي فيها حلَّتها الرمضانيَّة المزدانة والمنيرة بأزهى الألوان والأنوار.

قُبيْل موعد الإفطار بقليل، دعاه الشيخ مرسي لمشاركة أسرته المائدة الرمضانيَّة، حيث جلس نور مفترشًا الأرض إلى جانب الشيخ مرسي وزوجته زينب المُشعَّة بالعطاء والأمومة، برفقة أبنائهما السبعة، بدءًا من أكبرهم محيي الدين ابن العشرين عامًا وانتهاءً بأصغرهم عزِّ الدين ابن الأحد عشر عامًا، قبيلة مقدسيَّة لطالما استغرب نور في كيفيَّة تمكُّن زينب ذات الأربعين عامًا وبنية جسمانيَّة ضئيلة من إنجابها؛ وأمَّا المائدة فقد كانت عامرة بأشهى أصناف المأكولات. مائدة رمضانيَّة بامتياز مكتنزة بأكلة «القدْرة» المعدَّة من الأرزّ ولحم الضأن والسمن البلديّ المُعزَّز بحبوب الحمُّص وفصوص الثوم. تُحيط بها عصائر الخرُّوب وعِرْق السوس والتمر ـ هنديّ، وأواني السلطات، والألبان، إضافةً إلى حساء الخضروات الشهيّ.

كان الشيخ مرسي يقبض بيده سُبحةً حبَّاتها من عقيق، خاشعًا بتسبيح الله واستغفاره، إلى أن حان موعد الأذان، فما إن وقف منتصبًا في الجانب الآخر من الصالة لإقامة الصلاة، حتى قامت قبيلته الصغيرة بأسرها لتصطفّ وراءه في مشهدٍ مُفعمٍ بالخشوع والإيمان، راقبه نور بصمت وقد أُخذت أنفاسه بصوت الشيخ مرسي أثناء تجويده وترتيله للقرآن الكريم، هذا الصوت الخاشع المُطمئنّ الذي نزل على قلب نور سلامًا وسكينة، لحظاتٍ من التعبُّد، أعقبها بَلُّ الظمأ والعروق بالطعام والشراب، لتصدع المائدة بأصوات الملاعق وصخب الفتية والأطفال وفرحتهم واستمتاعهم بالإفطار، غير أنَّ نور لم يُقبل بشهيَّةٍ مثلهم. كان مرتبكًا خجِلًا على الرَّغم من أنَّه كان قد نام وأكل وشرب عشرات المرَّات في بيت الشيخ مرسي، الذي شرع بدوره في إزالة حَرَجه بسكب الطعام في صحنه وشدَّ عزيمة شهيَّته، وأمَّا هو نور فوحده من كان يُدرك هذا التخبُّط والارتباك؛ لأنَّه لم يعهد مثل هذه الحميميَّة في بيته بين ثنايا المخيَّم، لم يعهد مثل ما رأى عزوةً وأسرةً وأطفالًا وأخوةً وأبًا وأمًّا وصَخَبًا، أسرةً طبيعيَّةً، لم يشعر بها يومًا، متسائلًا في سرِّه هل هذه هي الأسرة؟ أهكذا تُمارس الأُبوَّة والأمومة.. بلمسة إلٰهيَّة؟!

بعد الإفطار الشهيّ، انسحب كلّ من نور والشيخ مرسي إلى غرفة الضيوف الواقعة بجانب الصالة، بعد أن أثنيا على زينب وطعامها الشهيّ، لتكافئهما بعد لحظاتٍ بحلوى «القطايف» اللذيذة المحشوَّة بالقشطة والمكسَّرات، أرفقتها بنرجيلة التنباك العجميّ الخاصَّة بالشيخ مرسي.

انتزعه هذا الأخير من أجواءٍ أسريَّة لم يَخْبُرْها يومًا:

ـ إذا نويت الذهاب إلى المعهد غدًا.. فعليك أن تمضي باكرًا.. في الثامنة أو التاسعة صباحًا، قبل تصاعد المواجهات والتظاهرات.

ردَّ نور بهدوء:

ـ هذا ما عزمت عليه.

ـ كما قلت لك يا نور.. الأوضاع صعبة. لم تشهد القدس مثل هذا التصعيد منذ سنوات.. لهذا، فإنِّني أنصحك بعدم التجوُّل في البلدة القديمة هذا المساء.

ـ ألهذه الدرجة الأمور صعبة؟

ـ بل أصعب ممَّا تتخيَّل، خاصَّةً لشابٍّ مثلك حائرٍ ما بين نور وأور.

جرحه بتعليقه هذا، فتدارك الشيخ مرسي أمر جرحه اللامقصود مُضمِّدًا:

ـ أقصد كيف ستتجوَّل هذه الليلة.. فإذا ما توجَّهت إلى باب العمود بهيئتك هذه سيعتقد البعض أنَّك يهوديّ. وإذا ما طلب منك أحد أفراد حرس الحدود بطاقة هويَّتك فسيقول لك متعجِّبًا ما الذي يفعله يهوديٌّ مثلك هنا وسط هؤلاء العرب! ولهذا، امضِ ليلتك هذه في البيت.. ولا تقلق. سنتسامر حتى السحور بعد عودتي من صلاة التراويح في الأقصى.

أجابه نور بأسى أثناء انسحابه نحو حجرته:

ـ لا عليك.. فأنا سأقوم بتسجيل بعض الملاحظات حول الرواية لحين عودتك.

قانعًا بقدر الحُجرة وتخوُّف الشيخ مرسي من تجوُّله في أنحاء البلدة القديمة، يُدرك نور الشهديّ أنَّه لم يتحرَّر بعد من الحُجرة. ثمَّة حجرة في المخيَّم مشيَّدة من الأزقَّة، ثمَّة حُجرة أخرى هنا في القدس مُشيَّدة من الاحتلال والقمع والانتهاك، فما الذي يتوجَّب عليه فعله إذن؟

استلقى فوق السرير ساعيًا بالتخلُّص من خيبته هذه عبر بطاقة صوتيَّة جديدة:

[21 نيسان ـ القدس مساءً: جوانب فنِّيَّة:

إلى جانب تمكين نفسي من السياق التاريخيّ والدينيّ للفترة التي عاشت فيها المجدليَّة بعد صلب يسوع، يجب أن أقوم بتوفير قاعدة بياناتٍ لنسيم شاكر حول الأماكن التي سيتحرَّك بها، مثل:

1 ـ البحث عن أقدم كنيسة في القدس.

2 ـ زيارة كنيسة المجدليَّة للاطِّلاع على نفائسها.

3 ـ زيارة متحف روكفلر للمزيد من التدقيق باللغة الأثريَّة الرومانيَّة الخاصَّة بالقرن الأوَّل الميلاديّ.

4 ـ الاستفسار من الشيخ مرسي حول قصص الكنوز والكهوف الواقعة في جبل الزيتون.

5 ـ إمكانيَّة وجود كنائس وأديرة سرِّيَّة غنوصيَّة في القدس.

ويتوجَّب عليَّ، كذلك، زيارة مواقع تاريخيَّة ودينيَّة وآثاريَّة، ما استطعتُ إليه سبيلًا، خاصَّة، ما يتعلَّق بيسوع المسيح ومريم المجدليَّة.. ومن أهمِّ هذه المواقع الجليل.. حيث أطلال كفر ناحوم ونايين ومجدلة والناصرة.. ولا ضير من زيارة أخرى،

أيضًا، لجبل الكرمل من أجل إذكاء المخيّلة.. إضافة إلى التعمُّق بالأماكن الإنجيليَّة في القدس مثل طريق الآلام ووقفاته وتخيُّل المجدليَّة هناك.. ثم زيارة كنيسة القيامة وحديقة القبر المقدَّس.. إلَّا أنَّ أهمّ موقع تاريخيٍّ يجب عليَّ زيارته هو أطلال قرية اللّجون المهجَّرة الواقعة جنوب غرب تلّ مجدو.

ملاحظة:

مراد.. نسيت أن أقول لك: إنَّني لا أعلم إذا ما كنتُ سأعود إلى المخيَّم قبل موعد زيارتك القادمة.. لهذا أرجو أن تعذرني على عدم قدرتي المحتملة لإرسال الكتابيْن اللذين طلبتهما منِّي مع أمّك.. مع التأكيد على أنَّني سأشتريهما غدًا من هنا.. من القدس، وسأودعهما لدى الشيخ مرسي لحين عودتي من موسم التنقيب.]

أطفأ هاتفه قبل عودة الشيخ مرسي من صلاة التراويح، فهو عاجز عن التسامر في هذه الليلة التي لفظته القدس منها، وحشرته في هذه الحجرة المُحاطة بأصوات وسموم القنابل الصوتيَّة والغازيَّة التي نبَّأت ببداية اندلاع المواجهات الليليَّة بين شباب القدس وقوَّات حرس الحدود الصهيونيَّة، ثم انتفض عن السرير بغتةً وأشعل النور مرَّةً أخرى، وقف أمام المرآة محدِّقًا بهيئته، ثم قال بكلِّ ما أوتي من ثبات وحزم:

ـ عمتم صباحًا.. أنا أور.. أور شابيرا.

استيقظ في تمام الثامنة صباحًا ليُنعش نفسه باستحمام

صباحيٍّ، عاد إثره إلى حجرته دون أن يُثير جَلَبةً في أنحاء البيت النائم.

ارتدى بنطال «الجينز» الأزرق الباهت والمفضَّل لديه، أرفقه بقميصٍ كتَّانيٍّ أبيض، ثم انتعل حذاءه الرماديّ، صفَّف شعره أمام المرآة، ثم قبض عليه وردَّه للخلف بعقدةٍ بيضاء.

سمح لعطره الزكيّ من ماركة «كاشاريل»، أن يرسل رذاذه الفوَّاح على جسده؛ ليزداد بهاءً وتألُّقًا. تأمَّل ملامحه بالمرآة للحظات، ثم تناول هاتفه عن المنضدة ليقوم بتحويل لغته من العربيَّة إلى العبريَّة، مُراعيًا كافَّة تفاصيل المرحلة القادمة، جلس على حافَّة السرير ليتابع على عجل آخر أخبار الساعة، مُبتدئًا من وكالة إخباريَّة عربيَّة:

ـ عشرات الإصابات في صفوف المقدسيِّين المحتجِّين على اقتحام المسجد الأقصى المبارك من قبل جماعاتٍ يمينيَّةٍ استيطانيَّة.

ثم انتقل إلى موقعٍ إخباريٍّ صهيونيٍّ، ليتابع:

ـ تتصاعد حدَّة العنف والإخلال بالأمن العامّ في أورشليم من قبل عشرات مثيري الشغب.

ـ المستشار القضائيّ للحكومة يرفض إصدار فتوى قانونيَّة حول قضيَّة البيوت المنوي إخلاؤها في حيّ «شمعون هتصديق».

انسحب من الجولة الإخباريَّة الإلكترونيَّة مُكْتفيًا بهذيْن الخبريْن اللذين اتَّفقا على التوتُّر المتصاعد في القدس، واختلفا على الدوافع والمسمّيات والتصنيفات. هكذا، يصبح المقدسيّ

المُحتجّ على تدنيس حُرمة ركنه المُقدَّس مثيرًا للشغب ومخرِّبًا! وحيّ الشيخ جرَّاح ينقلب إلى حيّ شمعون هتصديق، ونور الشهديّ يستحيل أور شابيرا في هذا الصباح الذي يشي بهدوءٍ حذر.

تفقَّد بطاقة هويَّته المزوَّرة، ثم أخرج من جيبٍ صغيرٍ في حقيبته قلادة نجمة داود الذهبيَّة، وارتداها وخبَّأها تحت ياقة قميصه لحين خروجه من محيط البلدة القديمة، ومن ثم سيقوم باستعراضها على صدره متباهيًا بملامحه اليهوديَّة والصهيونيَّة.

تأمَّل نفسه بالمرآة للمرَّة الأخيرة، وهو يضع على رأسه نظَّارته الشمسيَّة ذات الإطار المعدنيّ الرفيع والمُذهَّب. تنهَّد بحرارة، تناول ملفّه الورقيّ المحشوّ بتفاصيل هويَّته الجديدة ومضى.

خرج من بوَّابة الحوش هابطًا الدرجات الحجريَّة المؤدِّية إلى طريق حارة السلسلة، حركة خفيفة للمارَّة تُحيط به منحته ثقةً وطمأنينةً، ثم انعطف يسارًا.. ما زال حتى هذه اللحظة نور لا أقلّ ولا أكثر.

التفت حوله أثناء سيره، ثمَّة دكاكين في السوق ما زالت مغلقة وأخرى تتثاءب بكسل في طريقها إلى فتح أبوابها سعيًا وراء الرزق، بلغ المنعطف المؤدِّي إلى شارع الواد شمالًا، فسلكه بتؤدة وثبات. شعر بأنَّ القدس بكامل أبَّهتها ترافقه متأبِّطةً ذراعه، أحسَّ بأنَّه يتجوَّل في قصائد كُتبت عنها وإليها، هكذا هو عهده معها، إنَّه يتخيَّلها لكي يعتنقها ويعشقها. أعجبه هذا الصفاء

الصباحيّ الهادئ الخارج من صخب الليلة الماضية برصاصها وقنابلها الصوتيَّة والخانقة.

انعطف، مرَّةً أخرى، يمينًا باتِّجاه الشرق هذه المرَّة، سالكًا طريق الآلام، هذا الطريق الذي سار فيه يسوع وتوقَّف منهارًا عدَّة مرَّات من أثر التعذيب وعبء صليبه الثقيل. لطالما سار نور في هذا الطريق دليلًا سياحيًّا للعديد من مجموعات الحجَّاج والسيَّاح الأجانب، وأمَّا الآن فهو يسير فيه حاملًا قناعه لا صليبه، متسائلًا في سرِّه: أليست كلّ طرق ودروب القدس مزدحمةً بالآلام؟

تجاوز أكثر من نصف الطريق، ثم انعطف يسارًا نحو الشمال حيث طريق باب الساهرة الذي غالبًا ما يكون هادئًا وخاليًا من المارَّة والعابرين، في مثل هذا الوقت، بعكس باب العمود المدجَّج بقوَّات الشرطة وحرس الحدود في معظم الأوقات.

خرج منها بعد هذه الرحلة الصباحيَّة.. لم يخرجها كما دخلها نور الشهديّ، بل أور شابيرا الذي وضع نظَّارته الشمسيَّة على عينيْه، والتفت حوله دون أن يثير ريبة أحد، ثم أظهر القلادة الذهبيَّة الداوديَّة على صدره، وقطع الشارع إلى الجهة المقابلة المؤدِّية إلى شارع صلاح الدين الشاسع بالمحالّ التجاريَّة والمباني السكنيَّة والمؤسَّسات التي يُشكِّل معهد أولبرايت للأبحاث الأثريَّة جزءًا هامًّا من معالمه.

سار أور، أور شابيرا فوق الرصيف، واثق الخطى، كان يحبِّذ الخروج من باب العمود سالكًا شارع السلطان سليمان، متَّخذًا من رصيفه الجنوبيّ منصَّةً يتأمَّل منها سور القدس الشامخ في هذا الصباح

النيسانيّ البهيّ، ملقيًا نظرةً في طريقه على مدخل مغارة الكتَّان المشهورة باسم مغارة سليمان، التي دخلها أكثر من مرَّة برفقة سُيَّاحه حالمًا بالتوغُّل في دهاليزها السرِّيَّة والأسطوريَّة الحكايات. ولكنَّه في هذا الصباح، وعبر هذه الهويَّة الجديدة فضَّل ما لا يُثير الريبة والانتباه؛ ليتوغَّل في شارع صلاح الدين إلى أن بلغ وجهته، إذ على يمينه يقع بناء حجريٌّ ضخمٌ يكسوه سقفٌ قرميديٌّ أكَّد عراقةَ المبنى الذي شُيِّد قبل أكثر من مئة عام، إضافة إلى حديقةٍ غنَّاء مزهوَّةٍ بأشجار الصنوبر والسرو والكينا، بجانبها ساحة واسعة استُخدم جزء منها موقفًا لسيَّارات العاملين في المعهد وزوَّاره. توقَّف أمام بوَّابة المعهد للحظاتٍ لم تكن من أجل التردُّد، وإنَّما من أجل التريُّث والتأكُّد من أنَّه لم يكن يحلم، ثم عبر البوَّابة إلى داخل المعهد مارًّا إلى ردهةٍ أوصلته إلى صالةٍ كبيرةٍ محفوفةٍ بعدَّة مقاعد خشبيَّة وأبوابٍ متعدِّدة. انتبه إلى مكتبٍ صغير واجهته زجاجيَّة يقع على يمينه في آخر الصالة، فتوجَّه نحوه قاصدًا المرأة الجالسة فيه، مُدركًا أور أنَّها قد تكون سكرتيرة المعهد. ألقى عليها تحيَّة صباحيَّة إنجليزيَّة مُرصَّعة باسمة، تدرَّب على التفوُّه بها جيِّدًا ليلة أمس، ثم استفسر منها عن إعلان البعثة الأثريَّة والمشرف عليها، لتبادله بابتسامةٍ روتينيَّةٍ أميركيّة النكهة، طالبة منه بتهذيب التريُّث في أحد المقاعد بانتظار مجيء البروفسور «بريان مور» الأمين السابق لمتحف الساميَّات في جامعة «هارفرد»، والمشرف العامّ على موسم التنقيب الثاني عن معسكر الفيلق الرومانيّ السادس.

انتظر برباطة جأش، استمدَّها من أبَّهة أور شابيرا، مستحوذًا في سرِّه على طقوس مرَّته الأولى وسُبل الحديث، وكيفيَّة افتتاحه

مع البروفسور الأميركيّ، الذي اعتقد نور للوهلة الأولى أنَّه طاعن بالسنِّ، ليتفاجأ بانبعاث رجل من وراء أحد أبواب الصالة بهيئةٍ تشبه هيئة المستكشف الآثاريّ الأسطوريّ «أنديانا جونز»، والذي قام بلعب شخصيَّته الممثِّل «هاريسون فورد»، أقبل نحوه، فانتصب أور شابيرا واقفًا بثقةٍ تامَّة، وبادله تحيَّة الصباح بطلاقةٍ إنجليزيَّة، فعاجله البروفسور بهذا المرح بعد أن لمح، مرغمًا، قلادة نجمة داود الذهبيَّة المتألِّقة على صدر أور:

ـ يا رجل.. أتنتظر حتى اليوم الأخير من التسجيل للالتحاق ببعثتنا.. لقد كنَّا بانتظارك.

فاجأت نورَ هذه المباغتةُ المرحة، إلَّا أنَّه ريثما ردَّ عليه أور بمثلها:

ـ بروفسور.. لقد كنتُ تائهًا في أعماق مغارة سليمان باحثًا عن عرشه الأسطوريّ.

ضحك البروفسور بانتعاش قائلًا:

ـ أرجوك، أور دعنا من الألقاب.. نادني بريان، فأنا لا أكبرك إلَّا ببضعة أعوام.

ارتاح أور لهذا المزاح الذي مدَّه بريان جسرًا للتعارف، مزيلًا ارتباك المجاملات وعبئها، ثم دعاه إلى مكتبه ليعلمه بتفاصيل البعثة وموعدها، تساءل نور في سرِّه منبعثًا من أور:

«هل هما اسمي العبريّ ونجمة داود من دفعاك إلى هذا الاحتفاء المرح؟ لو قلت لك الآن إنَّ اسمي هو نور الشهديّ هل كنت ستعاملني بالمثل؟»

ثم مرَّر لبريان سيرته الذاتيَّة المعطَّرة بلغته الإنجليزيَّة المتقنة، التي زوَّدها بأكاذيب مثاليَّة حول عمله كدليلٍ سياحيٍّ على مدار السنوات الخمس الماضية في كافَّة أنحاء البلاد، إضافة إلى مشاركته في العديد من البعثات، والمواسم التنقيبيَّة، منها ما هو في القدس وأريحا وقيساريَّة، مؤكِّدًا لبريان أنَّ ما دفعه للمشاركة في هذه البعثة، هو أنَّ مشروع تخرُّجه الجامعيّ كان عن ثورة «باركوخبا»، دون أن يكذب في هذا الجانب إلَّا باسم الجامعة، مستبدلًا المعهد العالي للآثار الإسلاميَّة التابع لجامعة القدس، بجامعة «بار إيلان» المُشيَّدة على أنقاض قرية الشيخ مونس الساحليَّة المنكوبة، فسُرّ بريان منه ومن سيرته المهنيَّة وأصله الصهيونيّ ربَّما. ثم أحاطه بالمعلومات والتفاصيل بعد تأكُّده من أن أور قد تلقَّى المطعوم المضادّ لڤيروس كورونا، وأفاده أنَّ موعد انطلاق البعثة سيكون يوم الاثنين القادم، الموافق السادس والعشرين من شهر نيسان الحالي، حيث ستجتمع في «كيبوتس مشمار هعيمق» عدَّة مجموعات من جامعات ومعاهد أوروبيَّة وأميركيَّة عريقة، إضافة إلى بعض الخرِّيجين والباحثين من كلِّيّات الآثار الصهيونيَّة، مضيفًا أنَّ تأمين المسكن والمأكل سيكون على نفقة المعهد وسلطة الآثار الصهيونيَّة و«كيبوتس مشمار هعيمق»، مشدِّدًا على أنَّه كان من المقرَّر إقامة عدَّة محاضرات في المعهد تتعلَّق بفرضيَّة البحث حول الفيلق الرومانيّ السادس وتاريخ تلّ مجدو الآثاريّ، إلَّا أنَّه ارتأى تأجيل هذه المحاضرات لحين التئام شمل أعضاء البعثة في «كيبوتس مشمار هعيمق».

استمع أور بانتباهٍ شديدٍ لإحاطة بريان التي لم تُبشِّر بأيَّة

تحدِّيات وعراقيل حتى الآن، إلى أن سأله بريان في ختام إحاطته:

ـ هل أنت متفرِّغ الآن أم ملتزم بعمل معيَّن؟

ـ أنا متفرِّغ تمامًا.

ـ حسنًا.. ما رأيك بالانضمام إلينا هنا في المعهد خلال الأيَّام القادمة لحين موعد انطلاق البعثة.

ـ وما هو المطلوب منِّي هنا؟

ـ ثمَّة خرِّيجون ومتطوِّعون في أنشطة المعهد المتنوِّعة مثل تنظيف اللقى الأثريَّة كالقطع الفخّاريَّة، وإعادة تجميعها وغيرها من الأنشطة.. أتودّ التطوُّع؟

همس نور بأذن أور:

ـ لا توافق.. لا توافق.. ستكشف أمرنا.

أجاب أور بريان بكلِّ ثقة:

ـ نعم.. بكلِّ سرور.

ـ عظيم.. بإمكانك القدوم غدًا في تمام التاسعة صباحًا، والعمل حتى الرابعة عصرًا.. أمَّا الآن دعني أضيفك لمجموعة «الواتساب» الخاصَّة بالبعثة.. ومن ثم سأرافقك في جولة تعريفيَّة على أقسام المعهد ومرافقه وأنشطته.

قال نور في سرِّه لأور: اللعنة.. تماسك، فهذا اختبارنا الأوَّل.

دلف إلى المختبر الكبير المليء بقطع الفخَّار، واللقى

الأثريَّة، مثل الأسرجة الزيتيَّة والتماثيل الصغيرة والعتاد الحربيّ من حقبٍ تاريخيَّةٍ مختلفة. قاده بريان نحو مجموعة متطوِّعين ومتطوِّعات متحلِّقين ومتحلِّقات حول طاولةٍ خشبيَّةٍ مستطيلة الطول، منهمكين ومنهمكات في ترقيم وتجميع قطع الجرار الفخاريَّة. حيَّاهم بريان مشجِّعًا ثم قدَّم إليهم أور، فتبادلوا مع هذا الأخير التحيَّة الإنجليزيَّة سوى تحيَّةٍ واحدة اخترقت فضاء المختبر باللغة العبريَّة منطلقة من فم شابَّة كانت واقفةً بجانبهما:

ـ مرحبًا.. أنا أيالا شرعابي.. خرِّيجة حديثة من كلِّيَّة الآثار في الجامعة العبريَّة.

«همس نور بأذن أور:

ـ اللعنة.. ابتعد.. ابتعد عنها قليلًا. لا تتحدَّث بالعبريَّة.. قد يكشف أمرك حرفٌ تلفظه بلسانٍ عربيّ.. تحدَّث بالإنجليزيَّة.!»

تفوَّه أور بعبريَّته الأشكنازيَّة قائلًا بثقة:

ـ تشرَّفت بكِ آنستي.

أيالا متوسِّطة الطول بشعرٍ أسود قصير عبثت به بضع خصلات شقراء فوق وجهها الدائريّ الأبيض الممتلئ قليلًا، بعينيْن سوداويْن واسعتيْن، وأنف لا يجافي بحجمه غلاظة شفتيْها المكتنزتيْن المنسجمتيْن مع جسدٍ مسَّته عافية الجاذبيَّة والفتنة المكسوَّة ببنطالٍ رماديٍّ ضيِّقٍ، حجب مقاصده الفاتنة قميصها الأزرق الفضفاض المؤتمن على صدرها ورياحين عمرها الفتيّ البالغ ثلاثةً وعشرين عامًا.

حدَّق بها أور للحظات، تلتها لعنةٌ هامسة من نور طالب فيها أور بضرورة مرافقة بريان إلى طاولةٍ أخرى أصغر مساحةً، تحلَّق حولها شابَّان وفتاتان منشغلون بإعادة تجميع عظام هيكلٍ عظميٍّ عُثر عليه في أحد المواقع الآثاريَّة. هتف بريان وهو يشير نحوهم:

ـ هذان طوني وجون اختصاصيَّان من معهد الآثار الخاصّ بجامعة واشنطن.. وأمَّا هاتان الجميلتان، فهما إيميلي ونيكول الخبيرتان بترميم اللقى الآثاريَّة.. جاءتا من بروكسل لمعرفة أصل هذا الهيكل الغامض.. بإمكانك الانضمام إليهم غدًا إذا أحببت.

ـ طبعًا.. طبعًا.

أجاب وهو يصافحهم بحرارة معرِّفًا بنفسه، مُرتاحًا لعدم مباغتته بتحيَّةٍ عبريَّةٍ كالتي رمته بها أيالا منذ قليل.

خرجا من المختبر، وقاده بريان نحو مكتبة المعهد التي طالما سمع نور عنها وحلم بزيارتها، وتفقَّد ثروتها المُقدَّرة بأكثر من خمسة وثلاثين ألف كتاب مِن أهمِّ الكتب والمراجع في حقلَي التاريخ والآثار.

أزال بريان دهشة نور من ضخامة المكتبة وفخامتها قائلًا:

ـ أور أرجو أن تعذرني الآن، فأنا لديَّ موعدٌ افتراضيّ بعد قليل مع زميلَيْن من هارفرد.. ولكنْ بإمكانك التجوُّل والاطِّلاع على المكتبة كما تشاء.. أراك غدًا.

ـ «لو أنَّني نور، فهل كان ليخلِّفني وحدي هنا دون مراقبة وحراسة...؟ لا أعلم».

جذبته المكتبة بسكونها وخلوِّها من الروَّاد، وبرائحة ورقها

وجلودها العريقة، لم يكن يعلم من أين يفتتح رحلة اطِّلاعه، وما الكتب التي قد تغني تفاصيل مشروعه الروائيّ؟ ترى ما البيانات التي ستشرق أمامه؟ تمالك أمره وحماسته ليغيب في أروقتها ساعتيْن تتسارع فيهما الدقائق والثواني، وهو يتصفَّح كتابًا هنا ومجلَّدًا هناك، دون أن يجرؤ على تسجيل أدنى بطاقةٍ أو ملاحظةٍ صوتيَّة على الرَّغم من إلحاح نور.

* * *

غادر المعهد عند منتصف الظهيرة كالمستيقظ من حلمٍ عميق، شهق مستعيدًا أنفاسه التي أُخذت منه داخل أروقة المعهد، فهذه هي المرَّة الأولى التي يمارس فيها الانتحال على أكمل وجه، وجه ارتدى قناعًا أشكنازيًّا باسم عبريٍّ خالص، منذ أن عثر عليه قبل ثلاث سنوات، لم يتلبَّسه ويلفظه ويرتديه مُفصحًا عنه كما حدث معه قبل قليل، وها هو الآن في عزِّ الظهيرة وشارع صلاح الدين وحركة المارَّة والسيَّارات الآخذة بالازدحام، يبحث عن خطوته القادمة، هكذا أصبحت مسيرته، إلى الأمام.

في القدس، لا يعود إلى الوراء نور الشهديّ الذي يستعيد نفسه الآن حاجبًا قلادة نجمة داود داخل قميصه.

همَّ بالعودة إلى البلدة القديمة، ثم توقَّف فجأةً مستديرًا للوراء عندما تذكَّر وصيَّة مراد الأخيرة المطالبة بكتابيْن، فمضى إلى مكتبةٍ تجاريَّة تقع على بعد خطوات منه في الشارع نفسه، لطالما زارها واقتنى منها الكتب والمجلَّات المختصَّة بعالمه التاريخيّ والآثاريّ.

دلف إلى المكتبة الخالية إلّا من مالكها أبي إبراهيم، الذي كان يقضي على سؤم نهاره عبر ترتيب الكتب وصفّها في الرفوف، فاردًا كسل الظهيرة وظمأ الصيام. وما إن رأى نور حتى حيَّاه بحفاوة:

ـ أهلًا بنور.. أين أنت؟ لم أرك منذ وقتٍ طويل؟

ألقى عليه اسمه وأصله على حين غرَّة، هو الذي كان قبل قليل منغمسًا بأور شابيرا، فالتفت حوله بحذر كما لو أنَّ تحيَّة الرجل قد بلغت مسامع القاطنين في المعهد، ثم أجابه بهدوءٍ مستعاد:

ـ رمضان كريم يا عمّ.. ألا تعلم أنَّ الحركة أصبحت صعبة في هذه الأيَّام المشحونة بالتوتُّر.

ثم طلب من أبي إبراهيم الكتابيْن على عجل، فأجابه هذا الأخير بعد لحظاتٍ من التذكُّر والالتفات نحو رفوف المكتبة:

ـ أمَّا الثقافة والإمبرياليَّة لإدوارد سعيد فهو متوفِّر.. وأمَّا دراسات ما بعد الكولونياليَّة فللأسف.. ولكنْ بإمكاني التوصية عليه من أجلك.. ممَّا سيتطلَّب بعض الوقت.

ـ لا بأس.

شكر أبا إبراهيم، ثم توجَّه كعادته نحو جناح الكتب التاريخيَّة وتلك المتخصِّصة بالأبحاث والمغامرات الآثاريَّة، مُستغرقًا في قراءة عناوينها وتصفُّح البعض منها، في ظلِّ عودة أبي إبراهيم إلى ممارسة شؤونه في مكتبته.

ـ «سترتديني بعد قليل.. لا تهنأ كثيرًا بعودتك إلى أصلك.

همس أور بأذن نور الذي ردَّ عليه بالهمس ذاته:

ـ أنا أرتديك كما أشاء لا كما تشاء أنت.

ـ سأفضحك.. سأقول لصاحب المكتبة إنَّك محتال، وتنتحل شخصيَّةً ليست لك.. شخصيَّة يهوديَّة.

ـ هل أنت صهيونيٌّ حقًّا أم يهوديّ فحسب؟

ـ وما الفرق؟

ـ ثمَّة فرق شاسع.. فأنا لا أعتقد أنَّني وأبا إبراهيم لدينا مشكلة في كونك يهوديّ، بل في كونك صهيونيّ.

ـ تريد أن تعزف الآن على أوتار المسمَّيات والمصطلحات أيُّها الفيلسوف.. أليس كذلك؟

ـ إنَّ المشكلة تكمن بالمسمَّيات والمصطلحات والتفاصيل.. والآن اصمت ودعني أُركِّز.

ما به نور الحائر ما بين نور وأور؟ فهو منذ الصباح على هذه الحال الملتبسة. همسٌ متبادلٌ ممسوس مجنون ما بينهما. نور وأور وأور ونور. هاله ما يحدث له. فانسحب من أروقة المكتبة وأبي إبراهيم بعد أن اتَّفق معه على العودة قريبًا لاقتناء الكتابيْن معًا.

إلى أين يمضي الآن؟

بعد قليلٍ، ستشتعل القدس بالمواجهات والتصعيد ما بين أبنائها وقوَّات حرس الحدود الصهيونيَّة.

عزم على العودة إلى حارة السلسلة. وبعد أن خرج من شارع

صلاح الدين، انعطف يمينًا، مفضِّلًا العودة عبر شارع السلطان سليمان، متَّخذًا من رصيفه الجنوبيّ المقابل لسور القدس مسارًا هادئًا لا ازدحام فيه.

ثمَّة هدوء مرفق بحركة سيرٍ انسيابيَّة للسيَّارات والمركبات العابرة من الشارع في كلا الاتِّجاهيْن، أضفى حميميَّة على الرصيف ممَّا دفع نور إلى الجلوس على أحد المقاعد الحديديَّة المحاذية له ليرتاح قليلًا من هوْل مغامرته وأنفاسها المتسارعة؛ لكي يسجِّل بطاقة صوتيَّة حول بعض المعلومات التي استقاها أور من بعض المراجع في مكتبة المعهد:

[الخميس 22 نيسان ـ القدس وقت الظهيرة: غنوصيَّة مريم المجدليَّة:

في دراسة لِـ «إلين بيجلز» حول الأناجيل الغنوصيَّة.. يجري استعراض بعض المقتطفات الغنوصيَّة، حيث نجد في إنجيل فيليب الذي حظَّرته الكنيسة الرسميَّة نقطة ارتكاز يمكن البناء عليها في رسم ملامح شخصيَّة المجدليَّة بأبعادها الصوفيَّة والغنوصيَّة والروحيَّة:

«كانت مريم المجدليَّة رفيقة يسوع على الدوام، وقد أحبَّها أكثر من جميع التلاميذ، وغالبًا ما كان يُقبِّلها. وهذا ما أزعج بقيَّة التلاميذ حتى إنَّهم قالوا له في إحدى المرَّات: لماذا تحبّها أكثر منَّا جميعًا؟ فأجابهم المخلِّص وقال: لماذا لا أحبّكم مثلما أحبّها».

تُسلِّط هذه الفقرة الضوء على علاقة المجدليَّة بيسوع، علمًا

أنَّ معظم الأناجيل الغنوصيَّة لا تعتمد خطوطًا توثيقيَّة كرونولوجيَّة واضحة لدعوة يسوع، وإنَّما تعتمد على رسائل دعويَّة روحيَّة، ويمكن الاستدلال منها على تأثيرات علاقة يسوع على التلاميذ، خاصَّة بطرس.

لكنَّني بعكس دان براون لن أؤكِّد على زواج يسوع من المجدليَّة، بل على العلاقة الروحيَّة الغنوصيَّة التي كانت تجمع بينهما.. إذ هما الحقيقة الواحدة ذات البعديْن الذكوريّ والأنثويّ، كما أنَّ القُبل، أو طقس التقبيل ما بينهما كما يرد في إنجيل فيليب، ليس له بعد جنسيّ بل روحيّ.. فلو أنَّ يسوع أراد أن يُقبِّل المجدليَّة بقبلةٍ حميميَّةٍ جنسيَّة، فهل كان ليقبِّلها أمام مرأى ومسمع تلاميذه الاثني عشر ومريديه والمؤمنين به؟

أنا أعتقد أنَّ القُبل تعني من الطقوس الغنوصيَّة المعرفة السرَّانيَّة التي تُمنح همسًا. القُبل هي التعاليم.. القبلة هي الوصيَّة.

ملاحظة:

عزيزي مراد.. هأنذا أجلس أمام سور القدس في ظهيرة نيسانيَّة رمضانيَّة.. ولا أعلم إذا ما كانت القدس ستمنحني ظلِّي أم ظلّ أور.. الذي ما إن انتحلتُ شخصيَّته مرتديًا قناعه حتى انبثق منِّي ليسير بجانبي.. وهو مثلي لا ظلَّ له حتى الآن على الأقلِّ.

مراد.. لا أعلم ما الذي يُلمّ بي؟ اكتشفت اليوم مدى قدرتي على التمثيل.. نعم. أشعر أنَّني أستحقّ جائزة الأوسكار لأفضل

ممثِّل رئيسيّ. وأمَّا أور فهو يستحقّها كممثِّل ثانويّ.. لا أعلم ربَّما العكس!

اليوم أنا جريء، ومتمرِّس وقادر ومرتاح.. لكنْ من هو الجريء أنا أم أور؟]

ـ تحدَّثت اليوم مع شكيب بشأنك مستغلًّا صفاء مزاجه. ولم أعلمه بالطبع أنَّك تُقيم في بيتي. ويسرُّني أن أعلمك أنَّه وافق على عودتك للعمل في الشركة، ولكن في فرع بيت لحم.. ما رأيك؟

هزَّ نور كتفيْه قائلًا باستسلام:

ـ أشكرك على سعيك هذا.. ولكنَّني لن أعود للعمل بالشركة، لا هنا.. ولا بأيِّ فرعٍ آخر.

تفاجأ الشيخ مرسي من ردِّ نور متسائلًا بحدَّة:

ـ وماذا ستفعل؟ هل ستبقى في جنونك هذا للأبد؟ فإذا كانت الأمور قد سارت معك بصورةٍ جيِّدة اليوم في المعهد.. فقد تسوء في مشمار هعيمق.

أجابه نور بنبرةٍ مجروحة:

ـ فاصبر على هذا المجنون قليلًا، ولا تقلق عليه كثيرًا يا شيخ مرسي.

ـ أنا خائف عليك لا أقلّ ولا أكثر.. شابٌّ في مثل سنِّك ومزاياك لا يجب أن يظلّ هكذا يتخبَّط في المجهول.

ثم انتصب واقفًا في طريقه لمغادرة الحُجرة للالتحاق بصلاة

التراويح في المسجد الأقصى كعادته، فاستوقفه نور متسائلًا بصوتٍ جرَّحته بُحَّة حارقة:

ـ ألن تصطحبني معك للصلاة في المسجد الأقصى.. فأنا مشتاق كثيرًا لزيارة الحرم؟

التفت نحوه الشيخ متنهِّدًا بحرارة:

ـ وكيف ستدخل الحرم؟ بأيِّ هيئة وهويَّة.. نور أم أور؟

ثم مضى مخلِّفًا وراءه شخصيَّتيْن وارتعاشةً لظلٍّ واحدٍ في حُجرةٍ مقدسيَّةٍ عتيقةٍ، فمن الذي يرتعش الآن ظلّ نور أم أور؟

ارتمى فوق السرير، هائمًا في أحواله، متأمِّلًا بما أصابه اليوم في المعهد من تأسيسٍ لانطلاقةٍ أماراتها تشير إلى عواقب حميدة حتى الآن، فظهر أور بغتةً ليحاصره بهمسه المخيف:

ـ «لست أنت من أقنع بريان بضرورة قبولك بالبعثة الآثاريَّة بل أنا.. أنا أور شابيرا ولست أنت يا.. صحيح قل لي ما اسمك؟ من أنت؟

ـ وهل مثلك يكترث لأسماء الآخرين من أمثالي؟ أنا اسمي مُحدَّد مسبقًا من قبلكم.. هكذا قال لي صديقي الذي حدَّدتم أنتم اسمه أيضًا: إرهابيٌّ ومخرِّب.. اسمٌ متسلِّلٌ متواجدٌ بصورةٍ غير شرعيَّة داخل إسرائيل.

ـ لماذا تعقِّد الأمور؟ سألتك ما اسمك؟

ـ اسمي أور شابيرا.

ـ أيُّها الوغد.. أتتذاكى عليَّ الآن؟ أنسيت أنَّك أنت الذي اعتديت على هويَّتي وانتحلتني؟!

ـ أنسيت أنَّك أنت الذي تعاني من رفاهيَّة الهويَّة ممَّا جعلك تغفل عن وجودها في جيب معطفك الجلديّ؟

ـ وارتديت معطفي الجلديّ أيضًا؟!

ـ بل اقتنيته من سوق الخردوات.

ـ حسنًا.. ماذا بعد؟

ـ ماذا بعد؟

ـ أنا أسألك.. ما الذي تريده منِّي؟ متى ستعتقني من جنونك؟

ـ عندما تعتقني أنت من جنونك!

ثم قفز نور عن السرير منتفضًا كالملدوغ، ما الذي مسَّه؟ ماذا هناك؟

توجَّه نحو النافذة، شرَّعها مستنشقًا هواء القدس العليل لعلَّه يُعيده إلى نفسه. تأمَّل مشهديَّة القدس ليلًا. عانق بعينيْه القبَّة المذهَّبة التي تُجلِّل الصخرة متذكِّرًا حديثًا رواه له الشيخ مرسي ذات جولة داخل الحرم الشريف:

«قال الله تعالى لصخرة بيت المقدس:

فيكِ جنَّتي وناري، وفيك جزائي وعقابي، فطوبى لمن رآكِ.. ثم طوبى لمن رآكِ ثم طوبى لمن رآكِ».

الفصل الرابع

[الأحد 25 نيسان ـ القدس مساءً: جبل الكرمل معبد المجدليَّة السرِّيّ:

إنَّ إثبات تاريخيَّة مريم المجدليَّة به شيء من العبث.. غير أنَّ هذا لا يعني عدم الإيمان بوجودها إلى جانب يسوع في الحديث الإنجيليّ.. كما يقول أوغسطين: «أنا أؤمن لأنَّه عبث».

وعليه لن يتصدَّى نصِّي لنقاش تاريخيَّة المجدليَّة من عدمها.. بل إلى معالجة بيانات تاريخيَّة ودينيَّة خاصَّة بها وإحالتها إلى نصٍّ روائيٍّ شائقٍ ومثير.. وبقدر ما تعمَّقتُ أكثر بتفاصيل تلك الحقبة التاريخيَّة بقدر ما تهتُ ودخلتُ في عوالمَ ودهاليزَ خفيَّة ومخيفةٍ لكي أخرج بالنهاية بوعي تلك المرحلة.. إذ لا يمكنني أن أكتب دون اكتساب الوعي التاريخيّ الشامل الخاصّ بالقرن الأوَّل الميلادي..

وأمَّا حول الوجود التاريخيّ للمجدليَّة، فثمَّة روايةٌ وردت في

كتاب «الرواية الذهبيَّة» تؤكِّد على أنَّ المجدليَّة من قصر «مجدلون».. وهي قرية مجدلة أو المجدل. أمَّا أبواها، فهما من سلالةٍ عريقة. أبوها اسمه سيرس وأمّها اسمها أوخاريا.. وهي من أسرةٍ ثريَّة. وأمَّا كيف ارتبطت المجدليَّة بقارورة العطر التي دهنت بها قدميْ يسوع، فهناك واقعةٌ غريبةٌ وردت في «إنجيل الطفولة العربيّ» تحت عنوان «خبر الطوباويَّة مريم العذراء»:

«حين جاء وقت الختان، في اليوم الثامن، فرضت العادة أن يُختن الطفل، فختنوه أيضًا في المغارة. وأتت يهوديَّةٌ عجوزٌ، وابنها صيدليّ، فأخذت الغُلفة وجعلتها في قارورة عطرٍ ثمينة، ثم قالت له: «احذر أن تبيع هذه القارورة ولو أُعطي لك 300 دينار».

إنَّ هذه القارورة هي التي اشترتها مريم الخاطئة بحسب إنجيل لوقا (8: 38 ـ 37) وسكبتها على يسوع. وهذا ما يجعلني أعود إلى ضرورة تفكيك مفهوم الخاطئة بحسب الرؤية الأهليَّة والشعبيَّة المتوافق عليها في تلك الفترة، مع التأكيد على أنَّ ظهور المجدليَّة في إنجيل لوقا يجري التمهيد له بقصَّة «الخاطئة» من مدينة نايين.. فإذا كان مفهوم الخاطئة، بحسب التعبير الشعبيّ لتلك الفترة، هو الزانية أو العاهرة، فما الذي يدعو امرأةً إلى ممارسة البغاء سوى الفقر علمًا أنَّ المجدليَّة كانت من أسرةٍ ثريَّة؟

إنَّ ما أفترضه في هذا الجانب هو أن المجدليَّة كانت قد انتهكتْ أعراف واقعها، وخالفت الشرائع اليهوديَّة التي لم تكن متأصِّلةً في الجليل كما كانت في القدس ونواحيها؛ لأنَّ الجليل كان جليل الأمم أي الأغيار بالمفهوم الشرعيّ اليهوديّ.

لقد خالفت المجدليَّة السائد بالتحاقها بإحدى الجمعيَّات أو الأخويَّات السرِّيَّة التي كانت تتَّخذ من الكهوف في جبل الكرمل ملجأً لعبادتها السرِّيَّة الغنوصيَّة.. حيث نالت المجدليَّة هناك الوصايا والمعرفة النورانيَّة. ولربَّما كانت تمارس طقسًا جنسيًّا مقدَّسًا تتَّحد فيه المعرفة بالبصيرة ليشكِّلا معًا الكلمة النورانيَّة الحقّ.. وبعد اكتسابها للمعرفة.. التحقت المجدليَّة بيسوع من خلال طقس سكب قارورة العطر على قدميْه وجسده في نايين أو بيت عينيا..

ويُذكر أنَّ للجبل معاني رمزيَّة ويَرِد ذكره في الأناجيل الأربعة كمكانٍ للعبادة والالتقاء والتجلِّي النورانيّ.. خاصَّة جبال الجليل. مع العلم أنَّ هناك أكثر من جبلٍ يُقال إنَّ يسوع اجتمع به مع تلاميذه.. منها جبل طابور قرب الناصرة. وربَّما أيضًا جبل مجدو أو «هرمجدون».. وقد يكون جبل الكرمل كمعبدٍ سرِّيٍّ هو مكان اللقاء الذي تمَّت الإشارة إليه في إنجيل متَّى «وأمَّا التلاميذ الأحد عشر، فذهبوا إلى الجليل إلى الجبل الذي جعله يسوع لهم موعدًا، فلمَّا رأوه سجدوا له» (متَّى 28: 17 ـ 16).

لا أعلم.. يبدو أنَّني أغرق بالتفاصيل، وأُحمِّل النصوص تأويلًا لا طاقة لها به.

ملاحظة:

صديقي مراد.. هل اشتقتَ لصوتي؟ أنا اشتقتُ لصوتي إليك. لم أفضفض لك منذ ثلاثة أيَّام. كلَّا.. لا تقل إنَّني انشغلت عنك بتطوُّعي في المعهد. أرجوك، فالمسألة معقَّدة بعض

الشيء. فكما قلتُ لك سابقًا.. هذه هي المرَّة الأولى التي أتنفَّس فيها أنفاس أور شابيرا الطويلة والمتسارعة ممَّا أنهكني حرصًا وقلقًا من فضح هويَّتي منذ البداية. على أيَّة حال، يا صديقي.. غدًا هو موعد انطلاقي إلى مقرِّ البعثة في «مشمار هعيمق». سأذهب بمفردي مُستقلًّا الحافلة، مع أنَّ «أيالا» توسَّلتني من أجل مرافقتها بسيَّارتها إلَّا أنَّني تملَّصتُ من دعوتها.

يا مراد.. أعتقد أنَّك تتململ الآن محتجًّا على تلفظُّي باسمها في وجهك بلا تحفُّظ أو تكليف. أيالا.. أنت تعلم معنى اسمها بالعربيَّة، أليس كذلك؟

إنَّها غزالة بحقّ يا صديقي.. وأرجو ألَّا تُسئ فهمي في هذا الجانب.. فأنا كما عهدتني أنت، لم أزل ممسوحًا بطُهرٍ منيع لطالما اختبرته، فكان وما زال حارسًا أمينًا.. مع أنَّني رأيت فيها مادَّةً دسمةً للمخيّلة الاستمنائيَّة الخاصَّة بي.. لِمَ لا؟ لماذا لا أزاولها في عادتي السرِّيَّة.. لِمَ لا؟ فنحن من أكثر شعوب العالم قدرةً على الاستمناء. لا بل إنَّ أمَّتنا كلّها مهدورة طاقاتها في مجارير الصرف الصحِّيّ.. نحن لا نحترف التخيّل إلَّا استمناءً يا صديقي.

وأرجو منك ألَّا تتَّهمني بالتطبيع الآن! عن أيِّ تطبيع تتحدَّث؟! أنسيت أنَّني أور شابيرا؟ لو أنَّني كنت بلا قناع لكان ذلك تطبيعًا على الأصول.

إذ كانت قد وقفت بجانبي مقابل الطاولة الخشبيَّة عندما كنتُ منهمكًا برفقة الاختصاصيَّتيْن البلجيكيَّتيْن إيميلي ونيكول في إعادة

تجميع الهيكل العظميّ.. وقفت، انتصبت، ثم لفحت بأنفاسها أور وليس أنا. أنا التي أخذتني تلك القلادة المتمدِّدة فوق مفرق نهديْها اللذيْن كادا ينفجران بوجهي رغبةً وفتنةً.. قلادة من الفضَّة لخريطة فلسطين.. تخيَّل يا مراد أنَّها ذات الخريطة التي أرسلتها أنت لي من سجنك وقد نحتَّها من حجرٍ من حجارة لعبة الدومينو المسلِّية.. كدتُ أنتزعها من عنقها صارخًا هذه لي. هذه البلاد لي.. كيف ترتدين ما ليس لكِ؟

ثم أخذت أقارن ما بين القيمة التي تسبغها هي على القلادة وبين قيمتي أنا.. القيمة القوميَّة والوطنيَّة والتاريخيَّة والثقافيَّة والجغرافيَّة والدينيَّة للخريطة.. هل ثمَّة فرق بين القيمتيْن سوى أنَّ هذه الخريطة من فضَّة وتلك من دومينو؟ أرجوك لا تغضب.. لا تقل لي: إنَّ صدرًا متأجِّجًا التصق بي أمام هيكل عظميّ ليدفعني نحو التطبيع جنسيًّا على الأقلِّ. كلَّا يا مراد.. فالقضيَّة هي في التفاصيل، أنسيت ذلك؟

وقبل أن أنسى، دعني أقل لك إنَّ أيالا يهوديَّة شرقيَّة.. ملامحها دلَّت على أصلها، لتؤكِّد هي لي ذلك أثناء الاستراحة عندما قالت: إنَّ ذويها من أصول سوريَّة حلبيَّة.. وهي تُقيم في «رمات جان» التي لا تبعد كثيرًا عن تلّ أبيب.

في يوم التطوُّع الأوَّل، كانت لغتي العبريَّة ذات الدلال الأشكنازيّ ذي حرف الخاء الخائيّ على أهبَّة الاستعداد والاستنفار التامَّيْن في سبيل انتصاري الأوَّل على أيالا.. التي أعلمتني همسًا فيما بعد إثر ملاحظتها لتودُّدي ولطفي وانسجامي مع نيكول وإيميلي أنَّهما مثليَّتان.. رمتها في وجهي بعبريَّة مثيرة

لكي توفِّر عليَّ عناء المحاولة والإغواء. مع أنَّني لم أفكِّر على الإطلاق اتِّخاذ أيّ خطوةٍ ذكوريَّة منتفخة قد تشي بظفري بكلتيْهما في سرير من أسرَّة المعهد. قالت: إنَّهما مثليَّتان، ولكنْ أرجوك لا تعتقد أنَّني معادية لحقوق المثليِّين والمثليَّات جنسيًّا. على العكس، أنا مع حقوقهم الكاملة.. فقلتُ لها في سرِّي كنور الشهديّ: وكيف هذا؟! أيّ ازدواجيَّة معايير أخلاقيَّة هذه؟ تكونين مع حقوق المثليَّة الجنسيَّة، وفي الوقت نفسه ضدّ حقوق شعب بأكمله في الحياة والتحرُّر!

سألتها في سرِّي، مُستنكرًا أنفاسها الليبراليَّة على الرَّغم من أنَّني لم أكن أعلم بعد أيّ شيء عن موقفها منِّي.. أقصد منِّي كفلسطينيٍّ ينتمي إلى شعبٍ لاجئٍ معذَّب.

اندلعت بوجهي هذه الفتاة يا مراد. لم أكن مستعدًّا كما يجب لها عندما حاصرتني بأسئلةٍ عبريَّةٍ معتادة، مثل أين تُقيم؟ بماذا كنت تعمل؟ أين خدمت في الجيش؟ ما هي أصول عائلتك؟ لمن تصوِّت بانتخابات الكنيست؟

لأُجيبها بكلِّ ما أوتيت من تحفُّظ أشكنازيٍّ رفيع المستوى والتأفُّف.. فارتدَّت قليلًا إلى الوراء معلنةً عن تذمُّرها بشيءٍ من الدلال: أنتم الأشكنازيِّين لطالما عاملتمونا نحن الشرقيِّين بدونيَّة.. أنتم سادة «أرض إسرائيل». أنتم من حرَّرها من العرب.. وبناها. أنتم الذين تخدمون في أرفع الوحدات القتاليَّة في الجيش وأهمّها.. أمَّا نحن فقطيع من البهائم، بحسب رأي أحد فنَّانيكم الأشكناز.

لقد انتفضت في وجهي الأشكنازيّ ما بين هزلٍ وجدّ، وودّ وكراهية.. لتعلمني أنَّ أمثالي اليساريِّين ممَّن يصوِّتون بالانتخابات لحزب العمل أو «ميرتس».

أمثالي هم الذين اضطهدوا اليهود الشرقيِّين ذوي الأصول العربيَّة، وذلك عندما احتجزناهم في بداية تأسيس الدولة داخل معسكرات التجميع الانتقاليَّة من أجل توزيعهم بعد تأهيلهم وتعديلهم صهيونيًّا على البلدات والمدن التطويريَّة الهامشيَّة.. أمَّا تلّ أبيب فهي المركز، مركز الهيمنة الأشكنازيَّة.

بربّك يا أيالا.. توقَّفي قليلًا، هدِّئي من روعك الشرقيّ الثائر هذا. أور أنا أداعبك فحسب يا عزيزي.. أنا أعلم أنَّك لست أشكنازيًّا عنصريًّا.

ثم استدرجها نحو حديث عن تفاصيل البعثة والتاريخ والآثار.. مبتعدًا عن مأزقٍ زجَّته به عبر صدرها النافر.

كنَّا نتحادث ونتناقش أنا وهي ونيكول وإيميلي وبعض الطلبة الآخرين، أثناء التهامنا للبيتزا التي جلبها لنا بريان، نتجاذب أطراف الحديث على وقع دويّ المواجهات المشتعلة في ميدان باب العمود، التي امتدَّت لتصل إلى شارعَي السلطان سليمان وصلاح الدين بُعيْد انتهاء صلاة الجمعة؛ إذ تظاهر المقدسيُّون للدفاع عن حرمة مقدَّساتهم وبيوتهم وميادينهم أمام هجمة استيطانيَّة تسعى إلى قضمهم بالتدريج.. ولم نكن نحن المتسامرين والمتسامرات لنعبأ بأصداء الهتافات والتصفير وقنابل الصوت والرصاص التي كانت تحيط بنا! لم يكن الأمر ليعني أيالا، فلِمَ

يعنيني أنا أيضًا، بعد أن بدأتُ أنسجمُ رغمًا عنّي، طبعًا، مع إجراءات الوقاية والسلامة الصهيونيَّة الخاصَّة بأور شابيرا.

كان المعهد جزيرةً منعزلةً عن محيطها الهائج.. لا أحد فيه كان يعنيه ما يحدث بالخارج.. أو هكذا ادَّعى معظمنا.. أرجوكم دعونا نعمل بهدوء، فنحن نعمل بالأرض وأحشائها ولا علاقة لنا بما يجري فوقها.. نحن سنتدخَّل عندما تُدفنون في رحمها أنتم وأشياؤكم وذكرياتكم وتحفكم لننقِّب الأرض بحثًا عن آثاركم بعد مئات السنين القادمة.. ولكنَّني أنا.. أنا نور الشهديّ لم أمت بعد يا مراد. أرجوك لا تقل هذا.. لا تنعاني الآن وتزفّني إلى مثوى الجنون والغياب. فأنا النصب التذكاريّ الحيّ، أليس كذلك؟ نصب تذكاريّ عمره أكثر من سبعين عامًا!

ألم تقل لي أنت هذا في رسالةٍ مهرَّبة.. دعني أتذكَّر بالتحديد ما الذي كتبته لي يا صديقي.. بلى. لقد قلت لي: من العار أن نحتفل كلّ عام بذكرى النكبة على أنَّها مجرَّد حدث تاريخيّ مضى. النكبة لم تنتهِ بعد.. رحمها ما زال خصبًا وقادرًا على الإنجاب في كلِّ لحظة. إنجاب القتل والتشريد والتطهير العرقيّ والإبعاد والتهجير والمصادرة والتدمير والإقصاء والتهميش والتصنيف والالتباس والسلام المزيَّف.. بلى. أنت قلت ذلك.

بالمناسبة.. أعتقد أنَّك علمت بِنيَّة السلطة والفصائل الفلسطينيَّة التحضير لإجراء الانتخابات التشريعيَّة بعد أكثر من أربعة عشر عامًا من الانقسام الداخليّ المرير.. ولربَّما سمعت أنت، أيضًا، أنَّ عدد القوائم المستقلَّة التي ستشارك بالانتخابات يفوق عدد القوائم الحزبيَّة.. أيّ هراء هذا؟! أليس هذا تطبيعًا

كولونياليًّا يا سيِّد التفاصيل الكولونياليَّة.]

فرك وجهه بكفَّيْه. تقلَّب فوق السرير. بعد قليل سيكون هناك.. هناك في أعماق القلب الصهيونيّ «كيبوتس مشمار هعيمق». كلّ شيء جاهز: التفاصيل، واللغة، والملامح الشخصيَّة، والهويَّة، وملابس التنقيب الأثريّ.

هذه ليلته الأخيرة في القدس التي يعجز فيها عن إغماض جفنيْه طلبًا لإغفاءةٍ قصيرة، هاربًا من أهبَّة الترقُّب والحماس. إذ هو «كيبوتس». «كيبوتس» كامل من أعرق «الكيبوتسات» الصهيونيَّة الاشتراكيَّة ينتظر مجيئه. مجيء شابٍّ فلسطينيٍّ لاجئٍ يرتدي أبهى حُلَّة أشكنازيَّة ليطارد أثر تاريخٍ بائد في تلٍّ مجدو واللجّون قد يبوح بشيءٍ عن المجدليَّة. ولن يقوى على النوم أيضًا؛ لأنَّ الشيخ مرسي كان قد وعده بزيارته في حُجرته لكي يودِّعه كما يليق بصديقيْن وفيَّيْن قبل سفره غدًا عند الظهيرة.

تقلَّب ذات اليمين وذات الشمال، ثم استقرَّ على ذات الشمال مقابل المرآة، تأمَّل نفسه فيها للحظات، أعقبهما انبعاث أور من المرآة بهمسه وقهقهاته المكتومة:

«ـ هل أنت خائف؟

ـ بلى.. وأنت أيضًا خائف، أليس كذلك؟

ـ أنا لست خائفًا.. أنا غاضب منك.

ـ لماذا؟

ـ لأنَّك تتحدَّث عن أيالا بطريقةٍ توحي بأنَّها على وشك التعرِّي أمامك لكي تأخذها.. ألأنَّها يهوديَّة اعتقدت أنت بأنَّها

عاهرةٌ شبقة، وبحاجةٍ إلى قضيبٍ عربيٍّ متينٍ يُسكِّن آلام رغبتها؟

ـ كلَّا.. ليس الأمر على هذا النحو.

ـ بل هو كذلك وأكثر.. صحيح أنَّ أيالا مثيرةٌ بجمالها الشرقيّ الذي يشتهيه كلّ رجل وليس الرجل العربيّ أو الأشكنازيّ فقط.. ولكنَّ هذا لا يمنحك الحقّ بتصويرها وكأنَّها مُندلقةٌ عليك بنهديْها المكتنزيْن.

ـ ألم ترغب بها أنت؟

ـ ماذا؟

ـ وهي قريبة منك بالمعهد.. ألم تشعر بأنفاسها الملتهبة؟

ـ هل تريد أن تُلقِّنني الآن درسًا في كيفيَّة إغواء النساء.. أيُّها الأحمق الغرّ الذي لم يمسّ أنثى في حياته؟ أجل، كان بإمكانك أخذها بالمعهد، ليس لأنَّها يهوديَّةٌ وأنت فلسطينيٌّ لاجئ، وإنَّما كفتاةٍ مثيرة يليق بها شابٌّ وسيمٌ مثلك.. أقصد مثلي.

ـ لو كنت مكاني، ماذا كنت ستفعل؟

ـ لأثبتُّ لها مدى أهمِّيَّة بوتقة الصهر الصهيونيّة للإتِّحاد الأشكنازيّ الشرقيّ.. طاردًا هواجسها وهي أسفلي حول النظرة الأشكنازيَّة الدونيَّة للشرقيِّين.

ـ كيف ستضاجعها إذن؟

ـ تريد أن تسرق منِّي المخيّلة، أليس كذلك أيُّها الوغد اللعوب...؟ ألم تسأم بعد من كفِّ يدك؟ تريد الآن مخيّلة أشكنازيَّة استمنائيَّة.. تريد أن تعرف كيف سيضاجع أور شابيرا أيالا شرعابي.

ـ أبدًا.. لا حاجة لي بذلك. يكفيني أنَّني سأضاجع قناعك أنت بعد قليل.

ـ اللعنة عليك.

ـ بل اللعنة عليك أنت».

[الأحد 25 نيسان ـ القدس قبل منتصف الليل:

هل المجدليَّة هي التلميذ المحبوب؟

هناك ضبابيَّة تلفُّ شخصيَّة التلميذ المحبوب الوارد ذكره في الأناجيل الأربعة بأكثر من حدثٍ وصفة، فهناك من يقول: إنَّه «يوحنَّا بن زبديّ» الصيَّاد، وآخر يفيد بأنَّه «لعازر» الذي أحياه يسوع من بين الأموات، وهناك إشارةٌ أيضًا إلى أنَّ التلميذ المحبوب هو الذي كان متَّكئًا على صدر يسوع أثناء العشاء الأخير. ويُقال أيضًا: إنَّه هو نفسه التلميذ الذي لا يموت ويظلّ على قيد الحياة لحين عودة يسوع بالخلاص للبشريَّة، غير أنَّني أفترض بعيدًا عن رؤية دان براون المختلَّة في رواية شيفرة دافنشي، التي يقضي فيها بأنَّ لوحة العشاء الأخيرة لليوناردو دافنشي تُشير إلى المجدليَّة أو الكأس المقدَّسة التي تحفظ دماء يسوع الملكيَّة المقدَّسة.

أفترض أنا الآن التلميذ المحبوب بكافَّةِ تجلِّياته الإنجيليَّة، والإنجيليَّة الغنوصيَّة، ما هو إلَّا مريم المجدليَّة، وهذه الفرضيَّة يمكن إثباتها من خلال تحليل وتأويل لأحد النصوص الغنوصيَّة الواردة في إنجيل مرقص السرِّيّ، حيث يُشير فراس السوّاح في كتابه «ألغاز الإنجيل» إلى اكتشاف الباحث «مورتون سميث» الذي عثر عام 1957 في دير مارسابا الذي يقع جنوب شرق القدس على بقايا ورقة في غلاف كتابٍ لاهوتيٍّ يعود للقرن السابع عشر، حيث كان رهبان الدير يصنعون أغلفة الكتب الجديدة من الأوراق واللفائف العتيقة المهملة، أمَّا الورقة فقد كانت عبارةً عن رسالةٍ مكتوبةٍ باللغة اليونانيَّة أرسلها اللاهوتيّ «كليمنت الإسكندرانيّ» في أواسط القرن الميلاديّ الثاني إلى قسٍّ فلسطينيٍّ اسمه «ثيودور» كان قد سأله في رسالةٍ سابقة عن حقيقة وجود إنجيل سرِّيٍّ لمرقس يختلف في مضمونه عن إنجيله الرسميّ المتداول، وتستخدم هذا الإنجيل السرِّيّ طائفةٌ غنوصيَّةٌ معروفةٌ باسم الكاربوكريتيِّين ـ نسبة إلى معلِّمهم «الكاربوكريتوس»، الذي نشط في الاسكندريَّة خلال القرن الميلاديّ الأوَّل. وكانت عقيدته تنصُّ على أنَّ الروح لن تنعتق من دورة التناسخ في الأجساد إذا لم تسدِّد ديْنها للعالم عن طريق التمتُّع بكلِّ ملذَّات الحياة لا سيَّما الجنسيَّة منها؛ ويروي هذا الإنجيل، أيضًا، قصَّة إحياء يسوع لفتى ميِّت من بيت عينيا، وينتهي طقس الإحياء بخلوةٍ طقسيَّةٍ يمنح فيها يسوع للفتى الذي جاءه عاريًا مُتأزِّرًا بمئزر يضعه على جسده، أسرار النور الإلٰهي، مشيرًا، «ثيودور»، إلى أنَّ هذه القصَّة ليست موجودة في الأناجيل الأخرى؛ فأجابه كليمنت قائلًا: إنَّ مرقس

أعدَّ إنجيليْن: الأوَّل ظاهريْ هو الإنجيل الأقدم تدوينًا، إذ دُوِّن عام 70 ميلاديّ على وجه التقريب. والإنجيل الآخر هو سرِّيٌّ روحانيٌّ باطنيٌّ مُوجَّه إلى الذين غاصوا في أسرار الدين، إضافةً إلى أنَّ مرقس كان قد أخذ عن يسوع تعاليم سرِّيَّة شفويَّة الهدف، منها الأخذ بِيد المريدين إلى قدس أقداس الحقيقة. وأكَّد كليمنت لثيودور أنَّه لا يمكننا قول كلّ الأشياء الحقيقيَّة للناس، ويجب أن نكذِّب جماعة الكاربوكريتيِّين تحت القَسَم منكرين أنَّ مرقس هو كاتب هذا الإنجيل. وإذا ما قمت أنا بمقارنة هذا النصِّ مع نصّ القُبل التي كان يُقبِّلها يسوع للمجدليَّة أمام تذمُّر التلاميذ من هذه الحظوة، سأجد أنَّ حميميَّة الطقس الاستسراريّ لم تكن بين رجليْن، بل بين رجلٍ كبصيرة وامرأةٍ كمعرفة.. كصوفيا، ليتجلَّيا معًا متوحِّديْن في كلمة الغنوص النورانيّ.. وبالتالي، فأنا أفترض أنَّ المجدليَّة هي تلميذه المحبوب التي تحوَّلت إثر إنارة يسوع قلبها بالنور إلى صوفيا التي ليست بامرأةٍ وليست برجل.. لا أعلم.. ربَّما!

ملاحظة:

عزيزي مراد..

ما زلت هنا في القدس داخل حُجرةٍ عتيقة، كانت، قبل قليل، تعبق بكرم الشيخ مرسي وصداقته الوفيَّة، في لقاءٍ أخير قبل الرحيل إلى «مشمار هعيمق»..

وبهذه المناسبة، دعني أحدِّثك بما قام به من أجلي بالأمس.. إذ إنَّه بعد عودته من صلاة التراويح عزم على

اصطحابي إلى إحدى الزوايا الصوفيَّة التي تعجّ بها البلدة القديمة، وسلكنا طرقًا وأزقَّةً مؤدِّية إليها، لم أسلكها يومًا في خضمِّ عملي السياحيّ في القدس. سرنا متوغِّلَيْن، تلفّنا القناطر الحجريَّة؛ لأكتشف أنَّ القدس كانت له، له وحده فقط، وهو عريسها وليس أنا، وهي العروس التي تزفّ أسرارها لمن يعتنقها ويعشقها ويُسبِّح بأسمائها مبتهلًا خاشعًا. كنتُ أعتقد أنَّني أحبّها مثله لأُدرك، وهي تغمرنا بأحضانها النورانيَّة، أنَّه كان يحبّها أكثر.

قال لي قبل دخولنا في الزقاق الأخير المؤدِّي إلى بيتٍ حجريٍّ مكوَّنٍ من طابقَيْن، وله مدخل ضيِّق واطئ:

ـ اعتبر هذه الزيارة تعويضًا ومواساةً لك عن عجزك عن الدخول إلى حرم المسجد الأقصى في هذه الأوقات الاحتلاليَّة العصيبة، فأخْلِص النيَّة، وادخل هذه الزاوية نورًا عاشقًا للنور لا أقلّ ولا أكثر.

مسَّني بصوفيَّته الدافئة الممزوجة بهيبة الزاوية وعراقتها، وما إنْ دلفنا من ضيق بابها، حتى تجلَّت أمامنا باحةٌ رحبةٌ تجافي مدخلها الواطئ، وأمَّا ما جذبني إلى أعماق الزاوية فكان أنين ناي انبعث من قلب رجلٍ مكسوٍّ بعباءةٍ فيروزيَّةٍ يقف منتصبًا خاشعًا وسط حلقة ذكرٍ عظيمة مكوَّنةٍ من عشرات المريدين الذين جلسوا بدورهم مُتحلِّقين حوله منسجمين بلحنه العذب.

التحقنا بالحلقة بعد أن أفسح لنا المريدون في ظلِّ صوتٍ هامسٍ موحِّد، يُردِّد ابتهالاتٍ وأدعيةً منها:

يا حنَّان يا منَّان.. يا ذا النور والإكرام

انسجم الهمس مع عزف الناي، ثم أخذ العازف بالاستدارة حول نفسه ببطء، في رقصة موزونة على إيقاع ألحانه، ثم تسارعت وتيرة رقصته وعزفه مع تحوُّل الهمس إلى نشيدٍ بصوتٍ مُوحَّد عالٍ، فانتصب المريدون واقفين بمن فيهم أنا والشيخ مرسي، وبدأنا نطوف شابكين أيدينا بعضها ببعض حول العازف، اشتدَّ النشيد، وصراحة يا مراد، لم أكن أشعر مثلهم بهذا الاتِّحاد العجيب بين الهمس والصخب وأنين الناي والرقص والأنفاس اللاهثة والأجساد المرتعشة المعروقة، كنت أحاكيهم فقط، وسعيت بالخشوع والاتِّحاد مثلهم، لكنَّني فشلت، ربَّما لم يكن قلبي يقطر صوفيَّة مثلهم.. ربَّما كان بي أثرٌ من أور.. لا أعلم.

استغرقت دورة الرقص والنشيد أكثر من ساعة، كان يتخلَّلها انسحاب من يتعب لنيْل قسطٍ من الراحة مفترشًا الأرض في أطراف الزاوية، فانتهزت هذه الفرصة لأتفلَّت من قبضتَي الشيخ مرسي ومُريدٍ آخر، متأمِّلًا من بعيد هذه الحلقة الصوفيَّة المتطلِّعة إلى الوجد والتوحُّد النورانيّ، إلى أن توقَّف العزف والرقص والإنشاد بصرخةٍ ندَّتْ عن شيخٍ طاعنٍ بالسنِّ، بدا كأنَّه قطب الحلقة:

يا حيُّ يا مبين بك نقيم ونهيم

ثم أمر المريدين بالتحلُّق حوله مفترشين الأرض؛ ليأخذوا أنفاسهم. حلَّ صمتٌ مبارك لفّ الزاوية برياحين عشق مقدَّس، تنحنح قطب الحلقة قائلًا بصوتٍ رخيمٍ آسر:

ـ عليكم بهذا الدعاء.. لا تعلِّموه للسفهاء. وصيَّة إدريس

النبيّ سرّ الأسماء للواصلين الأتقياء. ادعوه عند دخولكم إلى رحاب الصخرة معراج السماء:

«يا ذا الجلال والإكرام، ياذا الطَّوْل، لا إلٰه إلَّا أنت، ظَهْر اللاجئين، وجار المستجيرين، وآنس الخائفين، إنِّي أسألك إن كنتُ في أمّ الكتاب شقيًّا أن تمحو من أمّ الكتاب شقائي وتثبِّتني عندك سعيدًا، وإن كنتُ في أمّ الكتاب محرومًا مُقتَّرًا عليَّ في رزقي أن تمحو من أمّ الكتاب حرماني وإقتار رزقي وثبِّتني عندك موفّقًا للخير كلّه».

نزل الدعاء على صدري سكينةً وسلامًا، إذ إنَّني ذُكِّرتُ به. أليس الله ظهر اللاجئين يا مراد؟

دعني أقل لك في هذه الفضفضة الأخويَّة إنَّ دعوة الشيخ مرسي لي إلى تلك الزاوية، كان الهدف من ورائها تثبيت قلبي وتعليقه هنا على حائطٍ من حوائط القدس.. كان يريد أن يثنيني عن عزمي الروائيّ المجدليّ.

كان خائفًا عليَّ.. هو الذي جاء قبل قليلٍ مودِّعًا، انصاع لإلحاحي عليه بعدم مرافقتي غدًا ظهرًا إلى محطَّة الحافلات المركزيَّة لكي أستقلّ الحافلة المتوجِّهة نحو كيبوتسات سهل مرج بن عامر.

قلتُ له انتظرني هنا، في بيتك، ريثما أعود ظافرًا بروايتي.. أريدك عريقًا صامدًا في هذا اللقاء الأخير على مشارف الرحيل. مع وعدي له بطمأنته على أحوالي هناك ما بين الفينة والأخرى بمكالمةٍ سريعةٍ أو رسالةٍ قصيرة.

عانقني بحرارةٍ قائلًا: يا نور، يا أخي، يا صديقي.. ألا تنقض عهدك مع عزمك المجدليّ هذا؟ ألا يمكنك الاطِّلاع على تاريخ وأرض مجدو، وتلِّها وسهلها وأنقاض قرية اللجون عبر المواقع الإلكترونيَّة والتسجيلات المرئيَّة الخاصَّة بها؟

نور، يا أخي، دعك من هذه المغامرة.. فالكيبوتس ليس القدس أو تلّ أبيب. الكيبوتس مستوطنة الأمن والعسكر وخندق دفاعهم الأوَّل يا نور.

يا نور، انزع ملامح أور عن وجهك وعُد إلى أصلك وارتدّ عن نهجك الأهبل هذا. ولا تزعل منِّي يا نور، ومن حرصي عليك، فأنا أعلم أنَّ قلبك مُحصَّن وهويَّتك منيعة.. ولكن دعك من هذه التجربة الشرِّيرة، دعك منها.

لم أجبه، وإنَّما أقبلت عليه مُقبِّلًا جبينه مُعربًا عن امتناني وتقديري لحسن وفادته وكرمه، هو الذي لو لم يسعفني بتزوير بطاقة هويَّة أور شابيرا لما حدث كلّ هذا.. كلّ ما سيحدث.

ماذا كنتُ سأفعل لولاه؟ هو الذي احتواني ورعاني منذ خمس سنوات، لا يختلف عنِّي وعنك كثيرًا.. فهو لاجئ أيضًا.. ولربَّما كان هذا ما دفعه نحو الاهتمام بي ورعايتي.. لاجئ مشرَّد من بيته الأوَّل الذي كان يقع في حارة المغاربة التي أحالتها جرَّافاتٌ مزوَّدةٌ بمحرِّكاتٍ توراتيَّة إلى ساحةٍ لحائط البراق الذي صار حائط المبكى على هيكل سليمان عشيَّة نكسة 1967 واحتلال فلسطين بأكملها.. لاجئ هو مرسي، ولكنَّه لم يرتدِ قناعًا مثلي، بل ارتدى القدس كلّها بقداستها وحواريها وأزقَّتها وتاريخها وأوقاتها.

وهي القدس.. حبيبتي وركن خلاصي. هي القدس، ولكلٍّ وقت في القدس قُبلة وهي قِبلة كلّ الوقت..

أجل يا مراد.. ثمَّة أزمان وأوقات متغايرة في هذا الوطن المنهوك نكبةً وويلات. ثمَّة وقتٌ مقدَّس للشيخ مرسي يقضيه في فضاء زاويته الصوفيَّة صامدًا بعشقه لاعنًا ما يحيط به من أقدار تريد الانقضاض عليه لجوءًا واستيطانًا؛ وثمَّة وقتٌ للمخيَّم عقاربه هي الأزقَّة الراكدة وصمت أبي؛ وثمَّة وقتٌ لرام الله ساهم بالقضاء على وقت أبي؛ وثمَّة وقتٌ للمستوطنة المقامة على قمَّة جبل الطويل في البيرة والتي كان قد حاربها أبي؛ وثمَّة وقتٌ لحاجز التفتيش الاحتلاليّ ليغتصب فيه أوقاتنا؛ ثمَّة وقتٌ لتلّ أبيب ولمشمار هعيمق ولمعهد أولبرايت؛ ثمَّة وقتٌ لأيالا شرعابي وبريان مور وإيميلي ونيكول؛ ثمَّة وقت لك في المعتقل.. وأمَّا أنا فلا وقت لديَّ، لا وقت لي.. إذ إنَّني أشعر الآن أنَّني أتقدَّم بسرعةٍ هائلة نحو مجهول ما. فهل ثمَّة وقتٌ للهاوية؟

عزيزي مراد..

أُقبل على الحكي معك وإليك الآن بلهفة.. فهل تعلم أنَّ هناك فرقًا بين الحكي والكتابة؟ طبعًا أنت تعلم. الحكي كلام والكتابة كلمات. ولكنْ يوجد فرق آخر شاسع.. فرق شهرزاديّ يا مراد. فالحكي حياة. أنا أحكي إليك كي أحيا مثل شهرزاد التي صمدت أكثر من ألف ليلة في وجه الجلَّاد الشهرياريّ الذكوريّ. واجهته بحكاياتها. الحكاية هي الكأس المقدَّسة.. وأنا سأحكي يا صديقي.

سأظلّ أحكي معك ما دام برنامج التسجيل الصوتيّ في هاتفي به متَّسعٌ لآهاتي واعترافاتي.

وحدهم الذين يموتون لا يمتلكون الحقّ بالحكي، وثمَّة أمواتٌ أحياء كثرٌ حولي يا صديقي.. «زومبي».. «زومبي» جثث منتفخة بالطاعون والعفن والعجز.. آه لقد اختنقتُ يا مراد فانقذني.]

* * *

ـ «لقد أتعبتني.. ألا تريد أن تغفو قليلًا قبل السفر؟

ـ ...

ـ هل ستظلّ صامتًا هكذا.. أجبني؟ لقد سئمت منك ومن جنونك!

ـ ماذا تريد؟

ـ التحاور.

ـ الآن، أصبحت تعترف بوجودي.. بعد أن تسلَّلتُ إلى داخلك!

ـ بل انتحلتني.. كما أنَّك لا تعرف عنِّي شيئًا سوى بياناتي المتوافرة في بطاقة هويَّتي وصورتي التي استبدلتها بصورتك.. أنت لا تعرف شيئًا. لا تعرف إذا ما كنت أنا متزوِّج أم لا؟ ما هي طبيعة عملي؟ ماذا أحبّ؟ ماذا أكره؟ ما هي هواياتي؟ هل أدخِّن؟ هل أشرب الخمر؟ ما هي وضعيَّة المضاجعة التي أُفضِّلها؟ أين أنا الآن؟ أنت لا تعلم شيئًا أيُّها المغفَّل.. لقد قمتَ باختلاق أشياءَ وصفاتٍ ألصقتها بي ولم تكن بي يومًا.

ـ وما حاجتي لكلِّ ترّهاتك هذه؟ تكفيني مزاياك.. ملامحك.. اسمك الزاخر بالهويَّة الأشكنازيَّة الصهيونيَّة. أريد أن أدرك حقوقك التي اخترعتها أنت فوق هذه الأرض.. حقّك بالوجود.. بالحرِّيَّة.. بالحركة.. بالاستيطان.. بالاحتلال.. بالإعتقال.. بالاغتيال.. حقّك بتشريدي ومصادرتي ومطاردتي وإقصائي وتهميشي.. أريد أن أتعلَّم الأسماء الصهيونيَّة كلّها لكي أقوى على مواجهتك.

ـ على رسلك أيُّها الحاقد.. أنا لم أقتل فلسطينيًّا في حياتي. صحيح أنَّني خدمتُ في الجيش وفي وحدةٍ مختارة كما خمَّنت.. أيالا.

ـ لم تسنح لك الفرصة لتقتل.

ـ بلى.. كلَّا.. اسمع أنا لم أقتل أيًّا منكم. صدِّقني.

ـ ما الجدوى من هذا؟

ـ فما الجدوى من معرفتك وإدراكك لواقعي! ألست منهمكًا بكتابة رواية عن مريم الزانية، فما علاقتي بهذا؟ لماذا تُقحمني معك بمتاهات التاريخ؟ أهكذا تريد أن تثأر منِّي الآن؟

ـ لستُ حاقدًا كما تعتقد.. والمجدليَّة ليست زانية أيُّها الغبيّ. وأمَّا انتحال هويَّتك فسيمنحني كلّ البيانات التي أريدها من خلال تعرُّفي وتحرُّكي في البلاد التي سلبتمونا إيَّاها. أنا أريد أن أدركك لكي لا أصير مثلك.. أريد أن أستخدمك لكي أتحرَّر منك.

ـ حيَّرتني.. كيف ستتحرَّر منِّي وأنت تتقمَّصني وتنتحلني الآن؟!

ـ قلت لك أنا لا أنتحلك.. أنا أدركك.. أتعلَّمك.. أريد التعرُّف على كيفيَّة قيامك بالنظر إلى الواقع وأحواله.

ـ وعلى ماذا عثرت أيُّها العبقريّ؟

ـ عثرت على ذاتي منعكسة بمرآتك.

ـ وكيف هذا؟

ـ أنا ولدتُ منك.. من رحم صهيونيَّتك ومن النكبة التي ألحقتها أنت بي. وبالتالي أنا جزءٌ منك وأنت جزءٌ منِّي.

ـ أيّ هراء هذا؟!

ـ بلى.. وعندما أتعلَّمك سأقوى على الانفصال عنك، وأنت أيضًا ستنفصل عنِّي.

ـ كيف.. كيف بحقِّ السماء، أجبني؟

ـ السرّ يكمن بالمرآة. المرآة هي المعادلة، هي التفاصيل.. هي الكائنان أحدهما مُسيطر والآخر خاضع. أنت أور مسيطر، وأنا نور خاضع.. ولهذا، يجب أن أحطِّم المرآة.

ـ أنت عاجز عن تحطيم نملة.

ـ ستشعر بهذا عندما لن تقوى على تلمُّس ملامحك بها. لن ترى وجهك هذا.. سترى وجهًا إنسانيًّا مشرقًا وبهيًّا.

[الاثنين 26 نيسان ـ فجر القدس: المجدليَّة وبطرس:

إنَّ النصوص والأناجيل الغنوصيَّة تجعلني أندفع نحو البحث في طبيعة العلاقة ما بين بطرس بوصفه رئيسًا للكنيسة الأولى

ومريم المجدليَّة بوصفها رئيسة للكنيسة أيضًا.

لناحية سعيهما نحو إضفاء الشرعيَّة على خطابيْهما: الخطاب الدينيّ البطرسيّ الذكوريّ، والخطاب العرفانيّ المجدليّ الأنثويّ. وثمَّة فقرة في إنجيل توما السرِّي تشير إليها «ريَّان إيسلر» في كتابها «الكأس المقدَّسة وحدِّ السكِّين» تؤكِّد مدى اضطهاد بطرس للمجدليَّة:

«قال لنا بطرس: دعوا مريم تغادرنا، إنَّ النساء لسن جديرات بالحياة؛ لقد قال يسوع: أنا سوف أقودها بنفسي؛ لكي تصبح ذكرًا، فربَّما تتحوَّل إلى روح حيَّة تشبهكم أيُّها الرجال؛ لأنَّ كلّ امرأةٍ تحوِّل نفسها إلى ذكر ستدخل ملكوت السماء».

إنَّ الذكر المقصود في هذه الحالة هو النوع النوراني الواحد والإنسان الكامل، وذلك ما رفضه بطرس.

ومن هنا، فإنَّ الاطِّلاع على السياق التاريخيّ وبعد صلب يسوع، يُمكِّنني من ملاحظة أنَّ اختفاء المجدليَّة أو إبعادها عن المتن الإنجيليّ مرتبطٌ إلى حدٍّ ما بدعوة بطرس للتلاميذ ما بعد صلب يسوع من أجل اختيار رسول بدلًا من يهوذا الأسخريوطيّ الذي سلَّم يسوع لليهود. فوقع الاختيار على متياس (أعمال الرسل 1: 26 ـ 15). معلنًا بطرس في تلك الخطوة الهامَّة أنَّه أوَّل رئيس للكنيسة، ووحده من يحوز على الشرعيَّة اليسوعيَّة.. ليُقصي بصورةٍ نهائيَّةٍ المجدليَّة منافسته الأقوى.

وعليه، فقد انتصر النهج الذكوريّ على النهج الأنثويّ، واختفت المجدليَّة بوصفها حضورًا عرفانيًّا من المتون الدينيَّة

الإنجيليَّة الرسميَّة. وهذا ما نتج عنه أسئلةٌ كثيرة تتعلَّق بملامح المجدليَّة، منها كم كانت تبلغ من العمر حين آمنت بيسوع؟ وهل كانت متزوِّجة أم لا؟ ومتى ماتت وأين؟!

ملاحظة:

صديقي مراد..

ها أنا أتأهَّب لانطلاقي اليوم إلى «كيبوتس مشمار هعيمق».. لم أنم حتى الآن على الرَّغم من حاجتي لقسطٍ من الراحة خاصَّةً بعد يوم أمس الحافل بالأحداث التي كادت تودي بهويَّتي الأشكنازيَّة.. حيث شرع نهاري ببثّ أمارات السوء والنكد عندما حاصرتني أيالا شرعابي أثناء وجودنا في مختبر المعهد بقولها: إنَّها لمحتني في الصباح، وأنا أخرج من باب الساهرة مشيرة، والحرص كلّ الحرص يدفعها نحوي، إلى خطورة الأوضاع، وإمكانيَّة مهاجمتي من المشاغبين والمخرِّبين العرب في هذه الظروف العصيبة. هكذا قالت بكلِّ خشية.. لم تجد أيّ صعوبة تُذكر بالتفوُّه بتصنيفات نزع الإنسانيَّة عن البشر.. فبماذا أجبتها؟

ارتبكتُ قليلًا.. شعرت أنَّني وقعتُ في حبائل نبرة أور شابيرا الشامتة بي.. حدَّقتُ بها للحظات، ثم قلت لها: إنَّ القدس، أقصد أورشليم، غالبًا ما تكون هادئة صباحًا.. وبأنَّني آثرت التجوُّل الصباحيّ متسكِّعًا في شوارع البلدة القديمة قادمًا من باب الخليل، لأنعم بدفء أورشليم الذهبيَّة.. أنسيتِ يا أيالا أنَّ جبل الهيكل بأيدينا؟ ألم نعلن عن هذا التصريح الحربيّ على الملأ عشيَّة انتصارنا في حرب الأيَّام الستَّة التي يُطلق عليها العرب نكسة 1967؟

هل كان أور ليُجيبها على هذا النحو لو كان مكاني؟!

غير أنَّها حاصرتني من جديد باستفسارٍ ذي بعد دينيٍّ هذه المرَّة.. عندما استغربتْ من أنفاسي الصهيونيَّة القوميَّة المتعارضة مع أنفاس دينيَّة لم أحترمها بتقديسي وحفظي لعطلة السبت.. إذ قالت لي أنت علمانيٌّ إذن أليس كذلك؟ لا أستغرب هذا أشكنازي وعلمانيّ.. إنَّه عهد تلّ أبيب.. أقصد دولة تلّ أبيب الخاصَّة بكم.

ثم أطلقتْ ضحكةً فاحشة بوجهي مرفقةً باهتزاز صدرها الوافر.

انفصلتُ عنها لألتحق بنيكول وإيميلي اللتيْن شارفتا على الانتهاء من تجميع الهيكل العظميّ.

آه.. نسيت أن أقول لك يا مراد.. الهيكل العظميّ تبيَّن أنَّه لجنديّ مغوليّ قُتل أو أُصيب إصابةً بالغة في معركة عين جالوت التي وقعت بين جيوش المماليك والمغول قبل أكثر من ثمانمئة عام على أطراف سهل مرج بن عامر.. حيث عُثر على الهيكل في تجويفٍ صخريّ عند إحدى مرتفعات جبال جلبوع القريبة من بيسان.. وقد كانت المفارقة في أنَّ التجويف كان عبارةً عن قبرٍ يعود إلى العهد البرونزيّ الأخير.. هكذا اختار الجنديّ المغوليّ الذي أسميته أنا هولاكو، بالطبع، قضاء آخر لحظاته الحربيَّة في قبر كنعانيٍّ عتيق.

أمَّا كيف تمَّ اكتشاف الأصل العرقيّ للهيكل فكان من خلال فحص أسنانه، إذ يمتاز المغول عن بقيَّة البشر بأسنانهم المجوَّفة

الحوافّ.. وهذا ما أدَّى في النهاية إلى احتفالنا المُجلّل بعناقٍ حارٍّ وعميق جدًّا ما بين إيميلي ونيكول ممَّا أثارني قليلًا.

عزيزي..

أشعر أنَّك على وشك التقيُّؤ عليَّ الآن، لأنَّني أحيطك بهذه التفاصيل التافهة ربَّما! أشعر أنَّك ستنقضّ عليَّ، قائلًا: أنت نكرة.. أنت لست صديقي نور.. أنت تائه.. اغتصبك التباس شيطانيّ فأدماك جنونًا وحيرة. ربَّما معك حقّ. وهذا ما سعيتُ أنا إلى ردِّه عنِّي عبر المحافظة على نور الجوَّانيّ. ألم أقل لك: إنَّني اثنان نور وأور؟

على أيَّة حال.. عصريَّة أمس، وبعد نهاية يوم عمل تطوُّعي في المعهد كان محفوفًا بأنفاس أيالا الصهيونيَّة، كنت على وشك الذهاب إلى حيِّ الشيخ جرَّاح؛ لأعبِّر عن تضامني مع أهالي الحيّ في وجه الهجمة الاستيطانيَّة الشرسة التي يتعرَّضون لها. كنتُ سأتضامن ملتحقًا بالمتضامنين والمناصرين والمتظاهرين المحلِّيِّين والأجانب.. ثم سألتُ نفسي: ولكنْ بأيِّ هيئةٍ سأذهب، بنور أم بأور؟ علمًا أنَّ الدافع هو تضامنيّ.. تخيَّل؟! ألهذه الدرجة من الدرك الأسفل بلغنا يا مراد؟! أنتضامن؟! بحقِّ السماء، هل رأيت أو سمعت أو قرأت عن شعبٍ يتضامن بعضٌ منه مع بعضٍ آخر يعاني من الاحتلال؟ أقصد ضيف شرف على النضال!!

ألم تقل لي أنت: إنَّ الشعوب تلتحم بالنضال؟

الشعب ينتفض مندمجًا بكلِّ قطاعاته وشرائحه وطبقاته

بالنضال والاشتباك ضدَّ المستعمر.. أجل، ثمَّة شعب أو بعض شعب أو بقايا شعب تضامن في ذكرى النكبة الماضية بإطلاق أكثر من سبعين بالون أسود اللون في سماء رام الله ومخيَّماتها.

ألم يصلك أيٌّ من هذه البالونات أيُّها اللاجئ الأسير مراد؟!

آه.. اعذرني لقد نسيت أنَّ السجن لا سماء له.

على أيِّ حال يا صديقي.. عندما سألت نفسي بأيِّ هيئة سأتضامن، تراجعتُ عن عزمي التضامنيّ قانعًا بالحُجرة والمعهد والطريق الواصل ما بينهما لحين انتقالي اليوم عصرًا إلى «كيبوتس مشمار هعيمق». فلو أنَّني تضامنت بوصفي عربيًّا فلسطينيًّا بهيئتي المستعادة، فسيتمّ اعتقالي بعد التنكيل بي، طبعًا، وإشباعي شتمًا ولكائم، ومن ثم قذفي إلى ما وراء أسوار القدس وحدودها.. وإذا ما تضامنت بهيئة أور وقناعه، فإنَّني سأعاني من هجوم عنيف من جماعات المستوطنين المتطرِّفين الذين سيلاحقونيَ بتهمة الخيانة والعداء ليهوديَّة الدولة وتوراتيَّتها. سيصرخون لاعنين: أنت يساريٌّ معادٍ لإسرائيل وربّ إسرائيل.. وهذا ما سيثير بدوره الانتباه إليَّ. قد يلتفت الجميع حولي من متضامنين، ومستوطنين، وصحافيين، وقوَّات الشرطة، وحرس الحدود، وأهالي الشيخ جرَّاح من مقدسيِّين معذَّبين ومهجَّرين، لكي يسألوني سؤالًا واحدًا أوحد:

لكنْ قل لنا: مَن أنت بحقِّ السماء؟!

لأعود إلى حُجرتي الحجريَّة في حارة السلسلة بعد أن قمت بإجراء عمليَّة تمويه بارعة لتقهقري من أمام عينيْ أيالا وامتعاضها

من رفضي المتواصل لدعوتها بإيصالي إلى البيت الذي أُقيم به أو يُقيم به أور افتراضيًّا في شارع يافا بعيدًا عن بيته الأوَّل في مدينة تلّ أبيب..

أعود لمسائي الأخير بالقدس يا صديقي. أعود إلى نفسي هنيْهةً داخل البيت المقدسيّ العتيق، وأجواء أسرةٍ تزخر بالدفء والأبوَّة والأمومة والأخوَّة؛ لألوذ بالنهاية بأور في رقصةٍ أخيرة سأرقصها بعد قليل في «كيبوتس مشمار هعيمق» وسهل «هرمجدون».. فقل لي إذن يا صديقي: هل أستخدم تعبير مستوطنة أم كيبوتس إزاء «مشمار هعيمق»؟

حسنًا..

لا تغضب.. فأنت من هوسني بالمسمّيات والتفاصيل الكولونياليَّة، أليس كذلك؟!].

القسم الثالث

سماء

قالت مريم المجدليَّة للتلاميذ:

«أنا رأيت الربّ في رؤية. وله قلت: يا ربّ، رأيتك اليوم في رؤية. فأجاب وقال: طوباكِ. أنتِ ما تبلبلتِ لدى رؤيتي. لأنَّه حيث الذهن هناك الكنز».

(الإنجيل بحسب مريم)

الفصل الخامس

انطلقت الحافلة مخلِّفةً وراءها رجلًا طويل القامة، زادت هيئته ضخامة الحقيبة الكبيرة التي حملها على ظهره. وقف في رصيف الشارع رقم 66 الذي يفصل امتداد سهل مرج بن عامر عن عتبة غابةٍ ممتدَّةٍ كست سلسلة مرتفعاتٍ تصل ذروتها إلى جبل الكرمل المطلّ على بحر حيفا.

حدَّق بما يقابله على الجهة الأخرى من الشارع، فإذا بأسلاكٍ شائكةٍ نُصبت لتشكِّل حدودًا مستقيمة، مرفقة بصفٍّ من أشجار السرو والكينا الوارفة، وبوَّابةٍ بجانبها حُجرةٌ صغيرة لعناصر الأمن، ثم قرأ في لافتةٍ كبيرة كُتب عليها بالعبريَّة «كيبوتس مشمار هعيمق».

مسَّته قشعريرةٌ كادت تصرعه أرضًا مختنقًا تحت حقيبته الثقيلة، مرتدًّا متقهقرًا إلى أزقَّة مخيَّمه البعيد الآن أكثر من أيِّ وقتٍ مضى.

تريَّث قليلًا في العبور إلى الجهة الأخرى في هذه العصريَّة النيسانيَّة المشبَّعة بدفء شمسٍ ستنعم، بعد قليل، باستحمام ساحرٍ في بحر حيفا. سمع همسًا صدر عن حقيبته، فإذا هو نور الشهديّ يتوسَّل أور شابيرا:

ـ أور.. كما قلت لك، كنْ ولدًا مطيعًا لتكون هذه هي المرَّة الأخيرة التي أرتديك بها.

ـ ما بك تهمس متوسِّلًا الآن؟ أين ذهب ثباتك وتدرُّبك عليَّ؟

ـ لهذا المكان هيبةٌ ورهبة.. إنَّها المرَّة الأولى التي أدخل فيها إلى مستوطنة.

ـ إنَّه كيبوتس وليس مستوطنة.. كيبوتس له تاريخه وعراقته، فأهلًا وسهلًا بك في أحد أهمّ الكيبوتسات الاشتراكيَّة في إسرائيل.

ـ هل ستفضحني يا أور.. هل ستقول لهم: إنَّني لاجئ فلسطينيّ؟

ـ لا أعلم.. دعنا ندخل الآن.. فأنا متحمِّس للغاية لخوض هذه اللعبة.

ـ أرجوك.. نحن هنا لا لنلعب، بل لنعمل.

ـ بل لنلعب.

تجاوز الشارع متوجِّهًا نحو الحُجرة الحديديَّة الخاصَّة بأمن الكيبوتس. طرأت على باله فكرةٌ قبل الدخول، فانتزع هاتفه من جيبه وأرسل لأيالا عبر مجموعة الواتساب الخاصَّة بالبعثة ليعلمها

بوصوله، وإذا ما كانت قد وصلت قبله إلى مقرِّ البعثة لكي تأتي لمرافقته إلى الداخل. نحو أعماق هذه المستوطنة الضخمة المقامة على طرف سهل وكتف جبل، مُتسلِّقة نهده المكسوّ بغابة حُرجيَّة لتنمو غابةٌ باسم «مشمار هعيمق» التي تشكِّل جزءًا من متنزه مجدو الواقع بجانبها.

مسَّته القشعريرة من جديد. حادَّةً هذه المرَّة في الخطوات القليلة المتبقِّية التي تفصله عن حجرة الأمن.

ـ هل تعلم يا أور ما الذي تخبِّئه هذه الغابة في ظلالها؟

ـ كلَّا، لا أعلم.. واصمت الآن لكي لا تفضح أمرنا قبل بداية اللعبة.

ـ اللعبة بدأت منذ أكثر من سبعين عامًا.. حين زرع أجدادك هذا الجبل بالجثث والأشجار لإخفاء بقايا معالم قرية أبو شوشة التي هجَّرتم أهلها وقتلتموهم إبَّان نكبة 1948.

ـ كلَّا.. أنت مجرَّد حاقدٍ ومفترسٍ للحقائق التاريخيَّة. فأجدادي زرعوا هذه الغابة من أجل الاستجمام والتنزّه والتخييم لا أقلّ ولا أكثر. دعك من رائحة الموت والخراب، وإلَّا سأنكبك مرَّةً أخرى الآن بفضيحةٍ مجلجلة.

وصلته رسالة أيالا القاضية بوصولها قبله وأنَّها في طريقها لمرافقته، ثم بلغ الحُجرة. ثمَّة رجلٌ بداخلها على أهبَّة الأمن والاستعداد يُمعن في شاشات كاميرات المراقبة ما بين الفينة والأخرى. انتبه ملتفتًا نحو أور وملامحه التي لا تشذّ عن ملامحه هو، فوقف متحفِّزًا بقامته الطويلة، وجسده المفتول العضلات؛ ليعاجله أور بعبريَّة أشكنازيَّة واثقة:

ـ مرحبًا.. أنا أور شابيرا وجئت للالتحاق بالبعثة الآثاريَّة.

ردَّ عليه رجل الأمن بحياد:

ـ أهلًا بك.. وأنا ناتان خودروفسكي ضابط أمن الكيبوتس.

ثم عاد إلى الجلوس وراء مكتبه الصغير، وأخذ يبحث في حاسوبه عن قائمة الأسماء الخاصَّة بأعضاء البعثة ليتأكَّد من وجود اسم أور بينها، استمرَّ بحثه للحظات أردفها بالقول:

ـ أجل.. اسمك موجود في القائمة، ولكنَّني بحاجةٍ إلى بطاقة تعريف بك.. هويَّة.. رخصة سياقة.. جواز سفر.

خفق قلب نور هذه المرَّة وليس أور، فتمالك نفسه على عجل، وهو يمنح بطاقة الهويَّة لناتان الذي أوحى لأور بصدقٍ خالص أنَّه يمارس دوره في حفظ أمن الكيبوتس على أكمل استنفار وتأهُّب. وعلى الرَّغم من قلادة نجمة داود الذهبيَّة التي يتقلَّدها أور ليثبت أصله اليهوديّ، إلَّا أنَّ ناتان دقَّق ببطاقة الهويَّة بعينيْن خبيرتيْن كلَّما ضاقتا زادتا من خبرته، هو ومعاناة نور الخائف من اكتشاف أمره هو الذي لطالما تدرَّب على هذه اللحظة، فادَّعى التماسك الحثيث موفَّقًا به، وما إن وقف ناتان فاتحًا فمه ليلقي في وجه أور كلماته الأمنيَّة المستتبَّة، حتى سمع صوت بوق سيَّارة آتية من داخل الكيبوتس، فإذا هي أيالا قادمةٌ بسيَّارتها الفضِّيَّة من نوع «مازدا»، وقد أطلَّت من نافذتها هاتفةً بسرور بعد أن ركنت بجانب الحجرة:

ـ ناتان.. أور واحد منَّا.. أزرق أبيض[1].

---

(1) إشارة إلى لونيْ علم دولة الكيان الصهيونيّ.

ضحك ناتان، فضحك نور وأور معًا. ثم أعاد له بطاقة الهويَّة قائلًا بجدِّيَّة أزالت ضحكته:

ـ سيِّد شابيرا.. بطاقة هويَّتك بحاجة إلى تجديد.. ألا تعلم أنَّه يجدر بك استبدالها ببطاقة بلاستيكيَّة؟

ـ أعلم بالطبع.. ولكنَّ العمل بالآثار يجعلك تنفصل عن تطوُّرات الحياة، ثم صافحه بابتسامة أور الأشكنازيَّة الواثقة، وتوجَّه نحو سيَّارة أيالا. وضع الحقيبة في مؤخِّرة السيَّارة، ثم جلس بجانب أيالا التي سرَّها تنازل أور شابيرا عن ترفُّعه الأشكنازيّ طالبًا منها إيصاله إلى داخل المستوطنة، دون أن تعلم بالطبع أنَّها لم تكن سوى غطاء للمرور المشحون بالثقة والأمان من أمام ناتان وكيبوتسه الزاخر بالأمن الصهيونيّ.

قادت السيَّارة ببطء منعطفةً يمينًا، مبتعدةً عن المرافق الحيويَّة والمعامل الخاصَّة بالمستوطنة، فلمح نور على يمينه نصبًا تذكاريًّا نال الدمار من بعض أجزائه، فانتبهت أيالا لتحديقه وتعجُّبه من هيئة النصب قائلةً بفخر:

ـ هذا نصب «زاوية المنفى» شُيِّد تخليدًا لذكرى الأطفال اليهود الذي قضوا في معسكرات الإبادة النازيَّة إبَّان الحرب العالميَّة الثانية.. أمَّا الضرر الذي ألمَّ به فهو بسبب قذيفةٍ أصابته خلال معركة مشمار هعيمق التي وقعت ما بيننا وبين العرب أثناء حرب الاستقلال عام 1948.

لم يعقِّب أور؛ فنور كان محتارًا بأمره؛ إذ شعر بأنَّه لم يتمالك نفسه بعد. معه حقّ. فهو يتوغَّل الآن نحو أعماق

المستوطنة وليس القدس، كما قال له الشيخ مرسي محذِّرًا.

كاد يتوسَّل أيالا العودة إلى الخلف وإخراجه من مشارف أهوالٍ، سيخوض غمارها بعد قليل.

قطعت عليه حيرته قائلةً عندما شارفت على الوصول إلى مقرِّ البعثة:

ـ جميع أعضاء البعثة هنا.. بعضهم جاؤوا بالأمس، ولكنَّ غالبيَّتهم وصلوا اليوم صباحًا.. هل تعلم أنَّه لا يوجد يهود في المجموعة سوى أنا وأنت؟

ـ حقًّا؟

ـ أجل.. لهذا يجب أن تعتني بي هنا.

أجابها مداعبًا:

ـ أيالا نحن في كيبوتس صهيونيّ عريق، سكَّانه من سادة الأرض، ولسنا في حرم جامعة روما أو برلين.. لا تقلقي.

ـ حسنًا.. ها قد وصلنا. سيستقبلك بريان الآن.

أنزلته هو وحقيبته أمام مقرّ البعثة، وذهبت لركن سيَّارتها في موقف السيَّارات القريب من المقرّ.

وقف أور أمام بناءٍ كبير مستطيل الشكل، مكوَّنٍ من طابقيْن أشارت نوافذهما إلى احتوائه على غرفٍ عديدة، بطراز معماريٍّ يُشبه إلى حدٍّ معيَّنٍ الثكنات والمنامات الخاصَّة بالجيوش في القواعد العسكريَّة، وإلى جانب البناء الضخم ثمَّة أبنيةٌ أصغر

أُلحقت به مكوَّنةٌ من طابقٍ واحد مستطيل الشكل، أيضًا، إضافةً إلى ملعبٍ لكرة السلَّة بمحاذاة كتف الجبل وأشجاره الوارفة. تأمَّل حولَه باحثًا عن بيوت المستوطنة وسكَّانها، فعثر على بيتٍ صغير تُحيط به حديقةٌ غنَّاء على بعد مئة مترٍ تقريبًا، ليكتشف أنَّ هذه المباني التي يقف أمامها شُيِّدت بمنأى عن حراك المستوطنة اليوميّ ومجريات سكَّانها، ممَّا أراحه قليلًا.

استعاده بريان بحضوره المنعش من تأمُّله:

ـ أهلًا أور.. دائمًا متأخِّر.

فأجابه معدِّلًا أوتار لغته بسرعة بديهة أميركيَّة اللكنة:

ـ ولكنَّني غالبًا ما أصل يا بريان.

انخرطا معًا في ضحكةٍ ومصافحةٍ سريعتيْن، ثم اصطحبه بريان إلى الداخل. والداخل كان سكونًا ممتدًّا، يكسو ردهة الاستقبال التي تقع على يمينها قاعة الاجتماعات والمؤتمرات، وعلى يسارها قاعة الطعام، إضافةً إلى ممرٍّ يفضي إلى بعض الغرف والمكاتب، ودرجٍ يؤدِّي إلى الطابق الثاني. وكان عدد محدود من المشاركين والمشاركات في البعثة يجلسون على الأرائك بكسلٍ منشغلين ومنشغلات بهواتفهم وحواسيبهم المحمولة.

لمس بريان حيرة أور، فقال له:

ـ يبدو أنَّك متعب من السفر.. على أيَّة حال.. وبما أنَّك وصلت متأخِّرًا، دعني أعلمك أنَّنا قمنا بتوزيع أعضاء البعثة

على حجراتهم لحين عقد الاجتماع الأوَّل للبعثة في تمام السابعة مساء. وسيكون الاجتماع للتعارف وتقسيم مجموعات العمل، إضافةً إلى عرضٍ سريعٍ لإنجازات موسم التنقيب الأوَّل.

ـ عظيم.. عظيم.

استدرك بريان وهو يمنحه مفتاحًا لإحدى الحجرات:

ـ بل حظَّك هو العظيم.. فالحجرة لك وحدك. للأسف، شريكك المفترض فيها مُصاب بڤيروس كورونا، ولم يتمكَّن من مغادرة فرنسا. هيَّا دعني أقودك إليها.

خرجا من المبنى الكبير، وسارا بضع خطوات ثم انعطفا يمينًا نحو مبنًى مكوَّنٍ من طابقٍ واحد وعدَّة حجرات، مشيَّدٍ على كتف الجبل ومطالع الغابة. دلفا من بابه متوغِّلَيْن في ممرٍّ طويلٍ يفصل بين صفَّيْن من الحجرات، ثم توقَّف بريان مشيرًا بيده قائلًا بتهذيب:

ـ تلك حجرتك الأخيرة من جهة اليسار.. أراك في السابعة. إلى اللقاء.

لم يعلمه بريان من هم جيرانه المقيمون في الحُجرات المحيطة به، ممَّا أثار حفيظته وانزعاجه قليلًا على الرَّغم من تنفُّسه الصعداء، زفير حارق أخرجه من صدره بعد نجاحه بتجاوز المرحلة الأولى، مرحلة الدخول إلى المستوطنة.

أغلق باب الحُجرة، ثم شرع يتفقَّدها. حجرةٌ صغيرة لا

تتجاوز مساحتها العشرين مترًا مربَّعًا بنافذةٍ واحدة تطلُّ على الغابة، إضافة إلى حمَّام عُلِّقت على حائطه مرآة كبيرة مستطيلة، ومرفق بمرحاض. أمَّا أثاثها فهو مكوَّن من مكتب خشبيٍّ صغيرٍ وكرسيٍّ بلاستيكيَّة، مقابله سرير حديديّ مكوَّن من طابقيْن، بجانبه دولاب لحفظ الملابس وأغراض أخرى.

ألقى حقيبته أرضًا، وارتمى فوق السرير مُطلقًا زفرةً أخرى، فصدره ما زال مشتعلًا بنيران المغامرة البكر.

كانت ساعته تُشير إلى الخامسة، ممَّا منحه ساعتيْن ليُعيد تجهيز ذاته للجولة القادمة التي ستعجّ بأعضاء البعثة الآثاريَّة، فعزم على توضيب ملابسه وأغراضه بالدولاب والمكتب، ومن ثَم الاستحمام لإزالة أعباء السفر، واستعادة صفاء ذهنه كي يُسجِّل بطاقة صوتيَّة جديدة، يُجمِّل بها آخر تصوُّراته وافتراضاته حول المجدليَّة، بطاقة صوتيَّة هامسة؛ فالوقت الآن أصداؤه الصاخبة تتردَّد إنجليزيَّة وعبريَّة، أمَّا وقته الخاصّ فكان للعربيَّة، ولكن بهمسٍ شديد الكتمان:

[الاثنين 26 نيسان مساءً: الزواج الغنوصيّ:

أمَّا فيما يتعلَّق بإنجيل المجدليَّة فيقدِّم لنا كتاب «الحركة الغنوصيَّة في أفكارها ووثائقها» لبولس الفغالي صورةً جليَّةً تتضمَّن مقتطفاتٍ من الأدبيَّات الغنوصيَّة، أهمّها من إنجيل المجدليَّة.. الذي تشير التقديرات إلى أنَّه دُوِّن إمَّا في فلسطين أو في مصر، في أواخر القرن الميلاديّ الأوَّل.

يبدأ الإنجيل بعبارة: «الإنجيل بحسب مريم»، ويمكن

القول: إنَّه نصٌّ غنوصيٌّ خالص، لا يعتمد في خطابه على السيرة التاريخيَّة ليسوع كما وردت في الأناجيل الإزائيَّة.. وإنَّما يعتمد على رسالةٍ تحتوي على حوارٍ ليسوع مع تلاميذه حول الإيمان والنور والحقيقة، ومحورٍ آخر تتحدَّث فيه مريم في وقتٍ حاسم عقب صلب يسوع، وذلك حين مسَّ تلاميذه الجزع والقلق، فثبَّتت هي قلوبهم بتلاوة وصايا وتعاليم يسوع السرِّيَّة عليهم، وذلك خلال اجتماع إمَّا في جبل الزيتون أو العلِّيَّة التي تناول فيها يسوع العشاء الأخير برفقة تلاميذه.

بالطبع، لن أخوض بمضمون النصّ ذي البعد الغنوصيّ الخالص في ثنايا الرواية، بل إنَّ ما يهمّني في هذا الجانب هو تحليل حضور المجدليَّة وسط التلاميذ وخطابها الواثق، حين قالت في إنجيلها للتلاميذ:

«فلنمدح عظمته، لأنَّه وحَّدنا وجعل منَّا إنسانًا».

والمقصود بالإنسان هنا، بحسب التفسير الغنوصيّ، الإلٰه العقل المكوَّن من الذكر والأنثى معًا، وأصل النور والكائنات جميعها.. وكان بعض التلاميذ يعلم أنَّ يسوع كان قد خصَّ المجدليَّة بحظوة عرفانيَّة.. وبناءً على ذلك، أُجبر بطرس للحديث مع المجدليَّة:

«قال بطرس لمريم: يا أخت، نحن نعرف أنَّ المسيح أحبَّك أكثر من أيِّ امرأة أخرى.. فقولي لنا كلمات المخلِّص التي تذكرين، التي تعرفين، التي لم نعرف والتي لم نسمع.

فأجابت مريم وقالت: «ما خُفي عنكم أعلنه لكم».

ثم شرعت بخطابٍ تروي فيه تجلّي يسوع لها في رؤية غنوصيَّة، وماذا أفادها وعلَّمها إلى أن صمتت وتنهَّدت معلنةً نهاية الرؤية. ثم يأتي الحدث اللافت الذي سيُنبئ بإقصاء واضطهاد المجدليَّة من بطرس وبعض التلاميذ، حيث أجاب أندراوس وقال لإخوته:

ـ «قولوا. ماذا ترتأون فيما أعلنَتْهُ الآن؟ أمَّا أنا فلا أصدِّق أنَّ المخلِّص قال هذا، فهذه التعاليم تبدو لي آتيةً من فكر مختلف».

فأجاب بطرس وتحدَّث عن أسئلةٍ مماثلة. سألهم عن المخلِّص: «هل يمكن أن يكون تحاور سرًّا مع هذه المرأة دون علمنا، لا عيانًا، بحيث يجب علينا أن نغيِّر رأينا ونطيعها كلّنا؟ هل اختارها ففضَّلها علينا؟».

حينئذٍ بكت مريم، وقالت لبطرس:

ـ «يا بطرس أخي، ما هو رأيك؟ هل تصدِّق أنِّي نلتُ هذه الأفكار من نفسي في قلبي، أو أنِّي أكذب فيما يخصّ المخلِّص؟»

حينئذٍ، أجاب لاوي وقال لبطرس: «يا بطرس، أنت تندفع دومًا في الغضب. والآن أراك تتجادل مع امرأةٍ وكأنَّك خصم. ومع ذلك، إنْ كان المخلِّص جعلها أهلًا، فمن أنت لكي ترذلها؟ لا شكَّ في أنَّ الربَّ عرفها بلا نقيصة، لهذا أحبَّها أكثر منَّا. فلنخجل بالحريّ ولنلبس الإنسان الكامل فنجعله إنساننا، كما أمرنا، ولنعلن الإنجيل بحيث لا نفرض قاعدةً أخرى ولا شريعةً سوى ما فرض علينا المخلِّص».

وعليه، فإنَّ الإنسان الكامل الذي يلبسه المؤمن هو الناتج عن الزواج الصوفيّ والغنوصيّ ما بين الذكر والأنثى.. ما بين يسوع والمجدليَّة.

ملاحظة:

مراد.. هل تسمعني؟ اعذرني على هذا الهمس الشديد.. فأنا الآن في عقر الكيبوتس.. أقصد المستوطنة.. لا لن أُسمِّيه كيبوتس. هذا المسمَّى بحسب رأيك أنت ينتزع الصفة الكولونياليَّة عن المشروع الصهيونيّ، أليس كذلك؟ يا لتحليلاتك يا رجل!.. وأمَّا إطلاق مسمَّى مستوطنة، فإنَّ هذا يدلّ على الطابع الاستيطانيّ الاستعماريّ للدولة الصهيونيَّة. أجل، إنَّها مستوطنة.. مستوطنة.. مستوطنة، إنَّها التفاصيل والمسمَّيات، أليس كذلك؟

حسنًا.. هأنذا في حُجرةٍ أخرى، لأتأكَّد الآن أكثر من أيِّ وقت مضى أنَّ حياتي كلّها حجرات.

حُجرة في المخيَّم.. حُجرة في القدس.. حُجرة في مستوطنة مشمار هعيمق.. على أيِّ حال، دعني أزفّ لك نبأ نجاحي باختراق السور الدفاعيّ الصهيونيّ الأوَّل على الرَّغم من أنف أور شابيرا، وناتان خودروفسكي ضابط أمن المستوطنة، وأيالا شرعابي، أيضًا..

و دعني هنا أسجِّل ملاحظة أعتقد أنَّها مهمَّة.. فعند دخولنا إلى المستوطنة لمحتُ نُصبًا تذكاريًّا لضحايا الهولوكوست من الأطفال به شيء من الضرر، فأفادتني أيالا بأنَّ قذيفةً أصابته خلال معركة مشمار هعيمق التي وقعت ما بين جيش الإنقاذ

العربيّ وبين العصابات الصهيونيَّة إبَّان نكبة 1948.. وما لفتني في هذا الجانب، بحسب ما أفادتني أيالا، هو رفض النحَّات الصهيونيّ الشهير «زئيف بن تسفي» إعادة ترميم النصب بعد انتهاء الحرب.. علمًا أنَّ هذا النصب كان أوَّل موقع تذكاريّ يشيِّده الصهاينة للمحرقة في فلسطين. أمَّا ملاحظتي تكمن في كيفيَّة نجاحهم بدمج المحرقة، بل إقحامها محدثٌ مؤسِّسٌ ومستمرّ منذ عام 1948 وحتى يومنا هذا. فهل المحرقة هي التي جاءت بالدولة الصهيونيَّة؟ وهل تخلق المأساة مأساةً أخرى؟

إنَّ النكبة يا صديقي هي النصب التذكاريّ للمحرقة. هذا ما تشهد عليه، على الأقلِّ، هذه الأشجار من حولي، وهي أضحت شواهد لقبور منسيَّة وضحايا مهمَّشين كانوا في يومٍ من الأيَّام سكَّان قرية أبو شوشة المنكوبة.]

عندما دخل قاعة المؤتمرات، مشحوذًا بثباته وقناعه المتماسك، حتى جذبته أيالا صوبها في ظلِّ هرجٍ ومرجٍ يعمهان ما بين صخبٍ وهمس، وابتساماتٍ وضحكات، صدرت من خمسين حاضر وحاضرة وأكثر متنوِّعي الاختصاص، ما بين البحث والإشراف والهواية والتطوُّع والدراسة والتخرُّج حديثًا من الجامعة، غالبيَّتهم من خارج البلاد، بأعمارٍ متفاوتة. أكبرهم يتجاوز السبعين عامًا، وأصغرهم في مطالع العشرين، ومنهنَّ هذه الفتاة أيالا التي جذبته من يده لتجلسه بجانبها في صفِّ المقاعد الخلفيّ المُطلّ على المنصَّة. عاتبته بدلالٍ عبريٍّ شرقيٍّ:

ـ أين اختفيت أيُّها العابث.. ما زلنا في اليوم الأوَّل؟

ـ لقد قمت بتوضيب ملابسي، ثم ارتحت قليلًا.

ـ ومن شريكك بالحجرة؟

ـ لا أحد.

ـ يا لحظِّك الأشكنازيّ السعيد! أمَّا أنا فكان نصيبي مع شريكتيْن، هما إيميلي ونيكول البلجيكيَّتان.

مال عليها أور قائلًا بحسن فطنةٍ وإثارة:

ـ فاحذري منهما.. فهما مثليَّتان.

ضحكا معًا بسرور إلى أن صعد بريان نحو المنصَّة، وأمسك بمكبِّر الصوت بيده ليقطع همهمة الحضور بتنحنحه وترؤُّسه للجلسة الافتتاحيَّة:

ـ حسنًا.. عمتم مساءً.

ردَّ عليه الحضور بجوقة خافتة، ثم استرسل:

ـ حان وقت العمل.. دعونا بالبداية نجري حلقة تعارف سريعةً، ومن ثم الشروع بالتفاصيل النظريَّة والعمليَّة.

انهالت الأسماء والأعمار والجنسيَّات والتخصُّصات على قاعة المؤتمرات، فتبيَّن أنَّ غالبيّة أعضاء البعثة من الولايات المتَّحدة الأميركيَّة وكندا، مع أقلِّيَّة أوروبيَّة تمثَّلت بالبلجيَّكيتيْن، وثلاثة بولَّنديِّين، وخمسة إيطاليِّين، وبريطانيَّيْن اثنيْن، وسويسريّ واحد. واسم أيالا شرعابي من هنا من دولة إسرائيل خرِّيجة معهد الآثار التابع للجامعة العبريَّة، واسمي أور شابيرا من إسرائيل

وأعمل دليلًا سياحيًّا وآثاريًّا، واسم سماء إسماعيل طالبة دراسات عليا في حقل الآثار، من حيفا من هذه البلاد. جاءه الصوت الأنثويّ المبحوح من جانبه، انبعث عن يساره من فتاة مُتَّشحة بحرير شعرها وملابسها السوداء، مسَّت نخاعه بقشعريرةٍ حادَّة كادت تطيح به عن القاعة، كاد أن يغيب نور الشهديّ، أن يسقط من شدَّة وطأة الاسم العربيّ الفلسطينيّ سماء إسماعيل من حيفا، يا لحرفي العيْن والحاء حين نزلا بردًا وسلامًا على قلبه. ارتجف قليلًا، لا يمكنه إنكار هذا حين التفت نحوها بحدَّة بعد أن لفظت اسمها البهيّ، وما لبث أن استعاد نفسه ليركِّز فيما تبقَّى من أسماء أعضاء البعثة، بينما انتبهت أيالا لرجفته متسائلة بهمسٍ عن حاله؟ فأجابها: إنَّه منهك؛ لأنَّه لم ينم جيِّدًا بالأمس. وأمَّا التي على يساره فبماذا يردّ عليها الآن، على سماء، بعد أن رماها باسم ليس له، بأصلٍ أنكر أصله، بأنفاسٍ لم تؤثِّر بها حين أحاطها بها!

تمالك نفسه وقناعه دون أدنى حرف، وهو يجلس بجانبها، هي التي لم يلمح وجهها جيِّدًا بعد، وجه يتلألأ شاطئًا حيفاويًّا بلا قناع، ثم سعى جاهدًا نحو التركيز بما يقوله بريان حول البعثة وأهدافها مفتتحًا مداخلته بشكر كلٍّ من «معهد أولبرايت» و«سلطة الآثار الإسرائيليَّة» ومجلس أمناء «كيبوتس مشمار هعيمق» على رعايتهم الكريمة للبعثة، ثم قام بتقديم المشرفين الرئيسيِّين على أعمال مشروع التنقيب، إضافة إلى الدكتورة «روتم ربيبو» مراقبة سلطة الآثار؛ ليشرع إثر ذلك بتوزيع أعضاء البعثة على أربع مجموعات متساوية القوام، بواقع عشرة أعضاء للمجموعة وعلى رأسهم مشرف رئيسيّ على مربَّع المجموعة الحفريّ والبحثيّ،

تاركًا حرِّيَّة تشكيل المجموعات لأعضاء البعثة، مع تأكيده على ضرورة مراعاة إجراءات الوقاية الصحِّيَّة بسبب ڤيروس كورونا.

مالت أيالا على أور همسًا، مطالبةً انضمامها إلى مجموعته متذرِّعةً بعدم إتقانها للغة الإنجليزيَّة مثله، ووجوده بجانبها سيوفِّر عليها أعباء الترجمة والتواصل مع أفراد المجموعة، فهزَّ أور كتفيْه مستسلمًا لرغبتها. أمَّا نور، فقد كان في سرِّه يسعى لضبط إيقاع قلبه الصاخب المطالب بانضمامه لمجموعة سماء إسماعيل، إلَّا أنَّ الحظّ لم يحالفه هذه المرَّة إثر اختيارها لمجموعةٍ معظمها من الأميركيِّين والكنديِّين.

أمَّا مجموعته هو، فقد اختارتها أيالا دون أن يقوى على إبداء أيِّ اعتراضٍ، إذ ضمَّت إلى جانبهما كلّ من إيميلي ونيكول، وطوني وجون الاختصاصيَّيْن الأميركيَّيْن اللذيْن التقى بهما في معهد أولبرايت، إضافةً إلى سويسريّ وبريطانيّ طاعن في السنِّ وكنديَّيْن اثنيْن، سيتعرَّف عليهم جميعًا بعد قليل أثناء العشاء في قاعة الطعام لتعزيز العلاقة بينهم. وعند الانتهاء من تقسيم المجموعات الأربع، قام بريان بتقديم البروفسور بيتر هندرسون زميله في جامعة هارفرد والمشرف المشارك على مشروع البعثة، لكي يتناول فرضيَّة البحث الأثريّ حول الفيلق الرومانيّ السادس، مستعرضًا مجموعةً من البطاقات المصوَّرة عبر جهاز التكبير الضوئيّ، وضَّح خلالها طبيعة الموقع المُراد التنقيب به، إذ أفاد الأستاذ الستِّينيّ ذو اللحية الفضِّيَّة الأكاديميَّة الطابع، والصوت الرخيم الجذَّاب بأهمِّ ما توصَّل إليه موسم التنقيب الأوَّل في موقع الفيلق السادس وما أهداف الموسم الثاني! غير أنَّ نور كان قد

غاب في حضور سماء الجالسة على يساره، فهل هي وحدها العربيَّة الفلسطينيَّة في هذه المستوطنة، أو هو أيضًا كذلك؟

سأل نفسه السؤال الجارح ممَّا أدماه حيرةً ومزيدًا من الغياب الذي استغلَّه أور هامسًا بأذنه:

ـ أيُّ حظٍّ سعيد هذا! عربيَّةٌ على يسارك ويهوديَّةٌ على يمينك.

ـ اخرس.. لا تأتِ بسيرتها على لسانك. هل فهمت؟

ـ على رسلك أيُّها الشهم الغيُور.. أنسيتَ ما فعلته أنت بأيالا في خيالاتك المرتعشة؟

ـ قلت لكَ اخرس، وإلَّا سأنفجر الآن بي وبك متخلِّصًا من جحيم هذه اللعبة.

ـ ما زلنا في بداية اللعبة فاصبر. اصبر، وأرني كيف ستمسّ هذه العربيَّة الجميلة بأنفاسك.. وبأيِّ لغةٍ ستخاطبها، بلغتي أم لغتك؟

أعادته من غيابه لكزة أيالا لكتفه معلنةً عن انتهاء الجلسة وضرورة الالتحاق بمجموعتهما، فالتفت يسارًا بعفويَّة حادَّة، فلم يعثر على سماء، فاختفت. لاحظت أيالا حيرته، فسألته:

ـ ما بك؟ أنت لست على ما يرام.

ـ أنا متعب قليلًا.. اعذريني.. اعتذري باسمي للمجموعة.. سأذهب إلى حجرتي لأرتاح قليلًا. سأراكم غدًا صباحًا.

ـ وخطَّة العمل؟

ـ أرسليها لي على الواتساب.

ثم انسحب من قاعة المؤتمرات مُخلِّفًا وراءه حَيْرة أيالا من شروده وتخبُّطه، وحدها عيْنه كانت تبحث بلهفةٍ عن سماء في أركان المكان، فوجدها وقد جلست برفقة مجموعتها تخاطبهم بحماسٍ وثقة، رمقها من بعيد دون أن يفلح باصطياد ملامحها، ثم ارتدَّ خائبًا إلى حجرته.

[الاثنين 26 نيسان ـ قبل منتصف الليل بقليل: حول الفيلق الرومانيّ السادس:

إنَّ تعرُّفي العمليّ الملموس على أرضيَّة روايتي لناحية تحديد معالم معسكر الفيلق الرومانيّ السادس المدرَّع فسيضيف إضافةً مهمَّةً للمساحة التي سيتحرَّك بها بطل الرواية نسيم شاكر.. ومن هنا، يجب أن أقوم بتعزيز أواصر العلاقة بين مريد المجدليَّة السرِّيّ سمعان الأعرج، وما توارثته أسرته وحفيده مسك العطَّار من صندوق المجدليَّة السرِّيّ، والموقع الجغرافيّ للفيلق الذي يقع على مسافة قريبة جنوبي تلّ مجدو الأثريّ.. هذا الموقع لا يعنيني بقدر ما تعنيني قرية اللّجون المهجَّرة المحاذية له غربًا، المُقام على أنقاضها كيبوتس ـ أقصد مستوطنة مجدو وأحراشها الكثيفة. لهذا، يجب أن أتدبَّر أمري بالتسلُّل إلى أطلال القرية دون أن أُثير ريبة أحد..

ومن الناحية التاريخيَّة، فبعد إخماد ثورة باركوخبا 132 ـ 136 م أمر الأمبراطور الرومانيّ هدريان من قادة جيشه بمرابطة

الفيلق السادس الذي تمَّ استدعاؤه من بريطانيا وأوروبا في شمال البلاد حيث سهل مجدو، وذلك من أجل إخماد ما تبقَّى من جيوب الثورة، وفي سبيل السيطرة على الطرق الأمبراطوريَّة وتأمين الطرق المؤدِّية إلى الجليل.. وقد درجت العادة على أن يرافق الفيلق والمعسكر عددٌ من العبيد والسكَّان المحلِّيُّون للقيام بخدمة الجنود وتأمين احتياجاتهم، وهذا ما أدَّى إلى نشوء تجمُّع سكَّانيّ أهليّ عُرف باسم «لجيو» نسبة إلى كلمة ليجون الرومانيَّة، التي تعني بالعربيَّة: فيلق. ومع انسحاب الجيوش الرومانيَّة والفيلق السادس تحديدًا من المنطقة في القرن الثالث الميلاديّ باتت لجيو مدينة، واشتهرت باسم مدينة مسيميان أو مسيميانوبوليس طيلة العهد البيزنطيّ، ثم أصبح اسمها في العهد العربيّ الإسلاميّ اللّجون.

إنَّ دلالة الاسم مسيميان هي ما تدفعني نحو إثبات فرضيَّة تواجد أسرة سمعان الأعرج المرتبطة بإرث المجدليَّة المادِّيّ والغنوصيّ.. إذ إنَّ الاسم أُخذ من كلمة ميسيا، التي تعني المسيح أو المخلِّص بالسريانيَّة. وهذا ما يسبغ طابعًا مقدَّسًا منسوبًا ليسوع والمجدليَّة معًا.. المجدليَّة التي أفترض أنا عبر الرواية أنَّها أوصت بدفن رفاتها وضفائرها وعطرها وإنجيلها في هذا الموقع لحين مجيء الميسيا يسوع المخلِّص لكي يحييها من جديد في يوم الدينونة.

وعلى أرض الواقع، فقد قام عدَّة باحثين مختصِّين في الحقبة الرومانيَّة في ربيع عام 2018، بتحديد الموقع الدقيق للفيلق السادس مُستعينين بالصور الجوِّيَّة، وصور الأقمار الصناعيَّة التي

أشارت إلى وجود مبنى مستطيل الشكل، محاط بمنخفضاتٍ تحت سطح الأرض جنوب موقع تلّ مجدو الأثريّ؛ ويبدأ العمل التنقيبيّ الأثريّ الأوَّل بدعم من سلطة الآثار الصهيونيَّة، حيث اكتشف فريق التنقيب خنادق دفاعيَّة ترابيَّة بمحاذاة أساسات سورٍ كبير بعرض ستَّة أمتار.. وداخل السور كشف الفريق عن غرف، تعود على الأرجح إلى واحدة من مناطق الثكنات في المعسكر، وتحتوي على قطعٍ قرميديَّة كانت تُشكِّل أسقفًا للثكنات وعليها شارة ورمز الفيلقِ السادس، إضافةً إلى اكتشاف عملات وبقايا دروع صدئة وقطع فخَّاريَّة كثيرة؛ والأهمّ من ذلك، فقد تمَّ اكتشاف حدود المعسكر ومساحته البالغ عرضها 300 متر وطولها 500 متر.. وكان آهلًا بأكثر من 5000 عسكريّ رومانيّ وعددٍ من العبيد والسكَّان المحلِّيِّين.

غير أنَّني ما زلتُ حتى الآن مسكونًا بهواجسَ لا أعلم مدى دقَّتها، مفادها ما جدوى إقامة موسم تنقيب ثانٍ في الموقع على هذه الدرجة العالية من الجاهزيَّة والدعم خاصَّةً بعد اكتشاف معظم معالم المعسكر؟

ما الذي ينقِّب عنه معهد أولبرايت وسلطة الآثار الصهيونيَّة؟

ملاحظة:

مراد.. لقد أُصبتُ هذا المساء بصدمةٍ قاسية، إنَّني لا أهمس الآن فحسب، بل أنوح بعد أن قبضت عليَّ تلك الفتاة متلبِّسًا بقناعي.. قبضت عليَّ بسطوع وجهها الأصيل. وأنا، أنا اللاجئ التعيس جلست بجانبها كاسيًا عُرْي وجهي بوجهٍ آخر نكبني.. فما الذي يتوجَّب عليَّ فعله؟

ـ قل لي يا صديق.

هكذا عرَّفت عن نفسها واسمها.. سماء إسماعيل من حيفا من هذه البلاد.

لم تقل إنَّها من إسرائيل أو عربيَّة إسرائيليَّة، لأنَّها تحمل بطاقة هويَّة إسرائيليَّة.. كما أنَّني أعتقد بسماعي لتذمُّرٍ هامسٍ أطلقته أيالا الجالسة على يميني. نعم، أيالا تذمَّرت من الطريقة التي عرَّفت بها سماء عن نفسها:

ـ أيُّ بلاد؟! قولي اسمها.. إسرائيل. أرض إسرائيل، وأنتِ مواطنة فيها.

هل هذا صحيح يا مراد؟ سماء إسماعيل مواطنة في دولة إسرئيل أم مقيمة أم ضيفة أم عابرة سبيل؟ المواطنة بحاجة إلى وطن. أليس كذلك؟

وهذه الفتاة سماء، وطنها حيفا حتى الآن على الأقلِّ.

أعلم أنَّك تكاد تنقضّ عليَّ بالسؤال الآن:

ولماذا لم تُجب أيالا هكذا بقسوة؟ لماذا لم تباغت سماء بعربيَّة محبَّبة إلى قلبك وقلبها؟ بضع كلمات عربيَّة يا رجل لطرد برد الغربة.. بضع دفء مستمدٍّ من حروف عربيَّة!

معك حقّ يا مراد.. لكنَّني هنا لأغراض بحثيَّة روائيَّة تاريخيَّة مجدليَّة مُحدَّدة. ولا أريد التورُّط في مهاترات قد تتسبَّب بالقضاء على هويَّتي المزيَّفة.. حائر أنا الآن. كيف سألتقيها غدًا؟ كيف سأراها؟ بأيِّ لغةٍ سأُلقي عليها تحيَّة الصباح؟]

ختم آهاته لصديقه برسالةٍ نصِّيَّة قصيرة، أرسلها للشيخ مرسي

طمأنه من خلالها عليه، وعلى وصوله إلى مقرِّ البعثة في أكمل وجه مقنع، حتى هذه اللحظة على الأقلِّ.. ثم تفقَّد خطَّة عمل الغد التي أرسلتها أيالا عبر الواتساب، متذمِّرًا من الموعد المبكر الذي حُدِّد للانطلاق إلى موقع التنقيب، والذي لا يبعد عن موقع مستوطنة مشمار هعيمق سوى خمسة كيلومترات جنوبًا.

ثم هوى في هاوية النوم؛ ليرتاح قليلًا بانتظار غدٍ حافل بالأرض والسماء معًا.

* * *

الفصل السادس

تلّ يُطلّ على سهل..

ربوة حُبلى بأكثر من عشرين مدينة، تتقلَّب فوق آلام مخاضها منذ آلاف السنين.

مجدو،

يا أنثى السرّ القديم،

كم من معركةٍ وقعت في سريرك السهل الذي لم يكن سهلًا على العالمين؟

كم من قوافلَ محمَّلةٍ بالأقدار مرَّت من هنا؟

كم من حتفٍ مُسجًّى على نعش المؤامرة والدهاء مرَّ من أمامها؟

كم من أمبراطورٍ سار إلى مآلات نهايته أو مجده؟

كم من خليفةٍ شدَّ سروج خيله في طريقه إلى سدَّة خلافته أو قبره المسموم؟

مجدو المضرَّجة بالدماء أعظم ميادين الموت في التاريخ، منذ المعركة الأولى التي خاضها تحتمس الثالث متفرعنًا مفاجئًا أعداده بمباغتتهم من بين ثنايا ثوبها المُشجَّر، من جبال الكرمل، من غرب مجدو انقضّ عليهم في خطَّةٍ حربيَّة بارعة لن يتنازل عن شدَّة وطئتها بعد ثلاثة آلاف وخمسمئة عام الجنرال البريطانيّ «إدموند اللنبيّ» ليستخدمها في هزيمة آخر جيوش العثمانيِّين، بقيادة مصطفى كمال في الحرب العالميَّة الأولى؛ ليلقَّب إثر نصره بـ «لورد ميجدون» المأخوذ بإشارات معركة آخر الزمان «هرمجدون».

هي مجدو الزاخرة بالآلهة، والفراعنة، والأباطرة، والملوك، والخلفاء، والسلاطين، وجيش الإنقاذ العربيّ، والعصابات الصهيونيَّة، حتى نابليون بونابرت عندما مرَّ من جانبها أبى إلَّا أن يتسلَّق نهدها النافر قائلًا لجنوده:

«جميع جيوش العالم باستطاعتها أن تتدرَّب على المناورات للمعركة التي ستقع هنا».

وها هو ذا السهل ما زال ينتظر حلَّته الموعودة، وخلاصه النهائيّ المغزول من أنفاس رؤيا يوحنَّا اللاهوتيّ المرعبة؛ إذ ما فتأت بعثات التنقيب منذ أكثر من مئة عام تحفر قلب قلبه لاستخراج أحشائه تمهيدًا لإعداد مسرح القيامة ومعركة البشر الأخيرة.

أمَّا معركته هو، فقد اندلعت. إنَّها معركة نور الشهديّ المنغمس منذ السادسة صباحًا برفقة أعضاء مجموعته في مربَّعهم التنقيبيّ البالغ من المساحة عشرين مترًا مربَّعًا، يتوحَّد الآن مع شغفه الأوحد، مداعبة الأرض، دغدغة قشرتها سعيًا وراء ثرثرةٍ

مستحبَّة ثمَّة طائل من ورائها، فبعد قليل ستفصح حفرة الاختبار عن نشوة الأرض المتمثِّلة بخفاياها ومجريات ماضيها الضاربة بالقدم. لم يكن أور بالحفرة، بل نور الذي لم يدفعه إلى أعماق الأرض حسّه الآثاريّ المرهف ومهارة يديْه في استخراج أرشيف الأرض، بل تجنُّبه النظر ناحية المربَّع التي تعمل به برفقة مجموعتها تلك التي أحالته بالأمس هباءً ـ سماء إسماعيل، الذي كان هو مستعدًّا لكلِّ تفاصيل ومباغتات مغامرته هذه سوى التعثُّر بها، بريحانةٍ من بلاده هبَّت عليه بلا قناع.

كان يعمل منقضًّا على الأرض بفأسه الكبيرة، وبجانبه أعضاء المجموعة الذين تعرَّف عليهم في الصباح الباكر قبل ركوب الحافلة للانطلاق نحو موقع الحفريَّة، الذي يقع على بعد عدَّة مئات من الأمتار جنوب غرب تلّ مجدو.

كانوا منخرطين بعملٍ جماعيٍّ تراوح ما بين تسجيل الملاحظات حول دقَّة الحفرة البحثيَّة ومقاطعها، وبين استخراج التراب منها وما علق به من قطعٍ فخَّاريَّة وحدها القادرة على كشف أسرار المربَّع الحفريّ، وسط عبارات التشجيع والتعليقات الحماسيَّة التي أضفت أجواءً من الانتعاش والعزيمة على عمل البعثة، وكان الأستاذ المشرف على المجموعة قد جلس القرفصاء بجانب الحفرة الاختباريَّة التي لا تتجاوز مساحتها المتر المربَّع بعمقٍ ما زال نور يتوغَّل به حتى يصل إلى قاعدة الأرض الطبيعيَّة، التي قد يصل عمقها إلى متر ونصف المتر، جلس الأستاذ الإنجليزيّ الستِّينيّ ذو الوجه المشوب بحمرة اللوردات اللندنيِّين «ديڤيد آدامز»، وكان يرتدي قبّعةً خاكيَّة انسجمت مع ملابس

المستكشف الأثريّ المكوَّنة من صديرةٍ وبنطالٍ مُجعَّبيْن، إذ أُعجب بمهارة نور وكيفيَّة استخدامه للفأس في عمليَّة الحفر دون إحداث أضرارٍ في مقاطع التربة، دون أن يعلم بالطبع أنَّ نور هو خرِّيج معهد آثار تعيس الإمكانات، ومن المجحف مقارنته بمعاهد بلاد من هم حوله الآن!

شجَّعه ديڤيد معربًا عن تقديره وإعجابه بعمله الآثاريّ الدقيق، أمَّا أيالا وبقيَّة الأعضاء فقد كانوا منشغلين بتصفية التراب المستخرج من الحفرة وتنقيته.

لقد كان نور يعمل بصمت. هذا هو عهده السرمديّ عندما يعود إلى الاتِّحاد مع الأرض، إذ يخاطبها في سرِّه، يناشدها الحبّ واحتوائه بأحضانها ليُعيد لها رونقها وألقها. بضع كلمات فقط كان يتفاعل من خلالها مع من هم حوله، متجنِّبًا الخوض في نقاشاتٍ ستشغله حتمًا عن ممارسة عشقه للأرض، إلى أن حان وقت الاستراحة الذي أعلن عنه بريان هاتفًا:

ـ حسنًا يا أصدقاء.. حان موعد الإفطار.

إنَّها التاسعة صباحًا، التي دقَّت بعد ثلاث ساعات من العمل الدؤوب فقط في سبيل الحفرة الاختباريَّة الصغيرة.

انتزع أور نفسه من الحفرة التي شارف على بلوغ قاعدتها الطبيعيَّة، لاعنًا في سرِّه جدول الأعمال اليوميّ المكثَّف المرهق، ولم يكن يتوقَّع أن يكون على هذه الدرجة من الانضباط والدقَّة، بدءًا من الاستيقاظ في الخامسة والنصف صباحًا من أجل الاستعداد للذهاب في الحافلة إلى موقع الحفريَّة، حيث يتمّ افتتاح

العمل من السادسة حتى التاسعة، يتبع ذلك استراحة الإفطار لمدَّة نصف ساعة تجري فيها إعادة شحذ الهمم، ومن ثم العودة إلى العمل حتى الحادية عشرة والنصف، يتلوها وقتٌ مستقطع لمدَّة ربع ساعة من أجل الاستراحة التي ما إن تنقضي بسرعة حتى يتمّ استئناف العمل إلى الواحدة ظهرًا وإنهاكًا ليعود أعضاء البعثة في الحافلة إلى مستوطنة مشمار هعيمق من أجل تناول وجبة الغداء الجماعيَّة في قاعة الطعام، ومن ثم الاستراحة التي يتخلَّلها استحمام وقيلولة حتى الرابعة عصرًا، يلتئم بعدها شمل البعثة في المختبر لتنظيف وترقيم القطع الفخَّاريَّة واللقى الأثريَّة الأخرى. ولن ينتهي الأمر عند هذا الحدِّ؛ فبعد انتهاء العمل في المختبر، هناك محاضرات متنوِّعة يشرف عليها ويلقيها عدَّة اختصاصيِّين واختصاصيَّات تستمرّ حتى الثامنة مساءً، ويليها تناول وجبة العشاء، وبعدها الرقاد اللذيذ بعد يوم عملٍ شاقّ.

وعليه، فإنَّ جدول أعمالٍ مكتظًّا كهذا، لن يمنح نور مراده القاضي بتفرُّغه لمشروع روايته، خاصَّةً أنَّه منذ الصباح الباكر كان يختلس النظر نحو غرب موقع الحفريَّة، حيث الموقع المفترض لقرية اللجُّون، أو مدينة ميسيانوبوليس، مسرح روايته والمقام على أنقاضه «مستوطنة مجدو» المحاطة بأشجار الصنوبر والسرو الكثيفة. لم يكن مرتع خياله المجدليّ يبعد عنه كثيرًا، كان على مرمى حجر، ولكنَّ ملاحظته لوجود كاميرات مراقبة تُحيط بموقع الحفريَّة من جهة والمستوطنة من جهة أخرى، أحبط مساعيه القاضية بالتوجُّه إلى هناك، غير أنَّ ما خفَّف من سخطه على جدول الأعمال المرهق هي عطلة نهاية الأسبوع ـ يومَيْ الجمعة

والسبت، فهذه الاستراحة الطويلة قد تكفل له استعادة نشاطه، وتوحُّده في شؤون روايته.

اجتمعت المجموعات الأربع تحت سقف العريش الكبير الذي جرى نصبه بجانب موقع الحفريَّة، ليحتضن إفطار أعضاء البعثة، واستراحةً لطيفة في ظلِّه الساعي للتخفيف من حدَّة شمس يتجاذب حرارتها ربيعٌ في أوج ازدهاره، وصيفٌ في بوادر قيظه. التفت نور حوله أثناء وقوفه بجانب إحدى موائد الإفطار باحثًا عنها إلى أن لمحها من بعيد وهي تنفض غبار الأتربة عن ملابسها، لم تُقبل نحوهم لتشاركهم الإفطار، بل توجَّهت نحو طرف العريش الجنوبيّ لتجلس على كرسيٍّ منكِّسةً رأسها بهاتفها، ممَّا أثار حيرته التي التقطتها أيالا قائلةً بعبريَّتها الخائيَّة:

ـ يبدو أنَّها صائمة.. ألا تعلم أنَّ لدى العرب شهرًا يصومون فيه.. رمضان؟

ـ بلى أعلم.

وأمَّا أيالا فلم تكن تعلم أنَّها أصابته في صميم قلبه، قلب نور الذي لم يشعر بطعم المرارة التي تنزّ من قناعه سوى الأمس، أثناء جلوس سماء بجانبه. تجرَّع مرارة نسيانه لشهر رمضان مواسيًا نفسه بفقدانه للوقت المبارك الذي خلَّفه وراءه.

الوقت الذي يعتمل فيه الآن هو وقت أور شابيرا الذي همس بأذنه قائلًا باستفزاز:

ـ ما بك؟ منذ الأمس وأنت حائرٌ! هل اشتقت إلى أصلك بسبب هذه الفتاة؟

ـ وهل تعلم ما الذي يحيِّرني ويخنقني الآن؟

ـ نعم أعلم.. فأنا تخنقني أيالا أيضًا.. أيالا التي تمنعني أنت عنها بطهرك العبثيّ هذا.

ـ إنَّها صائمة.. منسجمة تمامًا.

ـ اذهب نحوها.. أو على الأقلِّ، افصح لها عن هويَّتك الحقيقيَّة على الواتساب.

ـ ما الجدوى من هذا الآن؟

ثم انشغل عن أور بالتهام القليل من طعام الإفطار الخفيف التحضير مثل: البيض المسلوق، واللحم المقدَّد، واللبنة، وسلطات الخضراوات المتنوِّعة، وعصائر الفواكه المنعشة، وسط تعليقاتٍ وحواراتٍ قصيرة ما بين أعضاء المجموعة، الذين تعرَّف إليهم نور دون أن يلمحهم، أو بالأحرى لم يحدِّد ملامحهم. فهم أجانب، هكذا ردَّد في سرِّه، أجانب ملامحهم أجنبيَّة بأسماءٍ أجنبيَّة، مثلي أنا أشقر، وملامحي أشكنازيَّة. إنَّها قصَّة الوجوه، تصنيف الوجوه في هذه البقعة من الأرض، وجوه للأجانب، وجه لأيالا اليهوديَّة الشرقيَّة، وجه لأور الأشكنازيّ، وجه لسماء العربيَّة الفلسطينيَّة، وجهها الذي لمحه أخيرًا عندما انتصبت واقفةً متخلِّيةً عن عبثها بهاتفها من أجل العودة إلى ما تبقَّى من عمل في المربَّع الآثاريّ، شجرة كرمليَّة وارفة، قَدَّر عمرها، مستنشقًا، أكثر من خمسة وعشرين ربيعًا بهيًّا، عبقٌ حيفاويٌّ مصحوبٌ بقامةٍ طويلةٍ ونحولٍ مثير كساه شعر حريريٌّ أسود عقدته ضفيرةٌ وراء ظهرها، عيناها ليل نابه، قمر مُعطَّر بالليْلك، ليلك وجهها الذي امتزج به

شفق بحريٍّ، وأنفٌ دقيقٌ منارةٌ لشفتيْن شهيَّتيْن، وأمَّا صوتها فلن يسمعه خاشعًا إلَّا بعد قليل في الاستراحة الثانية.

عاد للانشغال برحم أرضٍ تُبشِّر بولادة تاريخ عسكريٍّ رومانيٍّ، شموخ الفيلق السادس تحت قدميْه الآن؛ بارزه بفأسه، واثقًا من نصره عليه بعد لحظات ترابيَّة طويلة الأنفاس، ليعلن للأستاذ ديڤيد عن نجاحه ببلوغ القاعدة الطبيعيَّة التي لا يشوبها التعاقب التاريخيّ فوقها، فنزل ديڤيد نحو قاع الحفرة متفحِّصًا بعينيْه الخبيرتيْن مقاطع التربة في جدار الحفرة، التي بدأت تبوح بطبقاتها الأثريَّة. علَّق أور قائلًا بثقةٍ إنجليزيَّة:

ـ أعتقد أنَّ طبقة المعسكر هي الثالثة من أسفل تحت طبقة التراب الأحمر.

جاءهما صوت بريان الهادر من فوقهما أثناء قرفصته بجانب الحفرة:

ـ أحسنت صنعًا يا أور.. لقد تفوَّقت على المجموعات الأخرى ببلوغك الأرض الطبيعيَّة، ها.. ما رأيك يا ديڤيد؟

أجاب ديڤيد بصوته العميق دون أن يزيح عينيْه عن مقاطع التربة:

ـ أعتقد أنَّ أور على حقّ.. الطبقة الثالثة من أسفل قد تكون طبقتنا المستهدفة. ولكنْ دعونا نتريَّث قليلًا لحين انتهاء العمل بالحُفَر الاختباريَّة في المربَّعات الأخرى.

وأمَّا أور، فقد أصابه الزهو بتقدير ديڤيد وبريان لإنجازه الآثاريّ الأوَّل، وما رافقه من إحاطته بالإعجاب والتقدير من

أعضاء مجموعته، ذلك التقدير لم يكن بسبب بلوغه أرضيَّة الحفريَّة بوقتٍ قياسيٍّ فحسب، بل لأنَّ بريان كافأهم باستراحة مبكِّرة وطويلة تقديرًا لهم على عملهم الجماعيّ الدؤوب، فهرعوا نحو العريش! لينعموا بظلِّه بجلسةٍ كان ديڤيد ـ ذو اللسان الفصيح والقدرة البالغة الإثارة على سرد القصص ـ سيِّدها، حيث استعرض على مسامع المجموعة أشدّ مغامراته الأثريَّة إثارة في مصر الفرعونيَّة والعراق البابليَّة والآشوريَّة، وغيرها من البلاد الزاخرة بأعرق الحضارات الإنسانيَّة، مؤكِّدًا في الوقت نفسه على خصوصيَّة التنقيب في «الأرض المقدَّسة» على حدِّ تعبيره.

ـ الأرض المقدَّسة هي الكتاب المقدَّس الناطق الحيّ.

لم يستسغ نور، في سرِّه، حديث ديڤيد المسكون برؤية الغرب لبلاده؛ إذ كان يشعر بالغربة عن أرضه عندما توصف بهذه الطريقة المقدَّسة للغاية والمفضَّلة بحسب طول وعرض أسفار العهد القديم، إلَّا أنَّه لم يكن ليجرؤ في جلسةٍ، كان ديڤيد آدامز سيِّدها، الإعراب عن موقفه خاصَّة أنَّه يرتع الآن بآيات الاعتزاز، والافتخار به، كأور شابيرا المنقِّب الأثريّ البارع الذي رسم على وجهه أمارات الدهشة والاستمتاع بحديث أستاذه الإنجليزيّ، إلى أن انضمَّت لاستراحتهم تحت العريش المجموعاتُ الثلاث الأخرى؛ لنيل قسطٍ من الراحة محيطين أور ومجموعته بعبارات المداعبة وادِّعاء الحسد والامتعاض؛ لأنَّهم لم ينعموا مثلهم باستراحةٍ طويلة، ثم ما لبثوا أن تفرَّقوا جالسين على المقاعد المتفرِّقة في ساحة العريش.

التفت حوله باحثًا عن سماء، فلمحها وهي تحاور أحد

زملائها على بُعد خطواتٍ منه. اندفع نحوهما مدَّعيًا تفقُّده لبعض المعدَّات الموضوعة على طاولةٍ بجانبهما، كان يتوخَّى صوتَها، صوتَ سماء إسماعيل المبحوح المنبعث بلغة إنجليزيَّةٍ طليقة خاطبت بها أحد الطلَّاب الكنديِّين من أفراد مجموعتها:

ـ مارك.. كوْني أعيش هنا فإنَّ هذا لا يعني أنَّني إسرائيليَّة أو يهوديَّة.. كلَّا.. فهناك فرقٌ شاسع بين كوني عربيَّة فلسطينيَّة وكوني إسرائيليَّة!

عجز الطالب الكنديّ الأشقر عن إدراك حديثها، وكاد نور أن يخترق حوارهما ليشرح لمارك ما الذي تقصده سماء، فردعه أور عن مسعاه هذا هامسًا بأذنه:

ـ وبأيَّة صفة ستتدخَّل بالحديث أيُّها الأحمق، بصفتك أور أم نور؟

ـ اصمت ودعني أحسم المسألة.

ـ أيّ مسألة؟! هل ستقول له: إنَّ سماء تقصد أنَّها لا تعترف بوجود إسرائيل كدولة على الرَّغم من حيازتها على الجنسيَّة الإسرائيليَّة؟ ماذا عنك أنت أيضًا.. هل ستقول له: إنَّك فلسطينيّ، ولكنَّك تلعب لعبة الأقنعة، في الليل نور وفي النهار أور؟

استعادته أيالا من حواره السرِّيّ مع أور بامتعاضٍ عبريٍّ حادٍّ هامس:

ـ ما بال هذه العربيَّة يا أور؟ كأنَّها تقول سوءًا عن إسرائيل لهذا الكنديّ الأحمق.

أجابها متجنِّبًا نقمتها على سماء:

ـ لا أعلم.. لم أسمع ما قالته.

ثم انسحب من أمامها خارجًا من العريش وصوت سماء المبحوح، سماء التي أشهرت أمام الملأ الأجنبيّ هويَّتها الحقيقيَّة وأصلها العربيّ الفلسطينيّ دون أن تخشى في حقِّ وجودها على هذه الأرض لومة لائم أو غضب صهيونيَّة مثل أيالا أو مثله هو، هو أور ونور اللذان يحدِّقان معًا في الجهة الغربيَّة من موقع الحفريَّة، في آفاق مستوطنة مجدو:

ـ ما العمل؟

ـ لا أعلم.

ـ كيف سنبلغ اللجون؟

ـ بل، قل كيف سنبلغ كيبوتس مجدو؟

ـ بل اللجون.. إنَّها قريةٌ بأكملها مدفونةٌ أسفل أقدامكم.. يا إلٰهي، كم أنتم بارعون بإزالة آثار الجريمة يا رجل؟! باللون الأخضر.. بالأشجار.. أينما وُجدت الأشجار في بلادي فتلك نكبتي.

ـ يا لحقدك يا رجل! الأشجار هي الحياة والتجدُّد.

ـ بل هي الموت وشواهد القبور.

[مساء الثلاثاء ـ 27 نيسان: تفاصيل عن قرية مسك العطَّار:

ـ اللجّون

قضاء: جنين

عدد السكَّان عام 1948: 1280

تاريخ الاحتلال: 30/ 5/ 1948

اسم الحملة العسكريَّة: جدعون

الوحدة العسكريَّة: الكتيبة الرابعة في لواء جولاني

مستوطنات أُقيمت على أراضي البلدة قبل 1948:

لا توجد

مستوطنات أُقيمت على مُسطّح البلدة بعد 1948:

كيبوتس مجدو.

تقع قرية اللجّون على ربوةٍ متوسِّطة الارتفاع في الجهة الجنوبيَّة الغربيَّة لمرج بن عامر، وهي موزَّعة على طرفيْ وادي اللجُّون.

استولى الصليبيُّون على اللجُّون، ثم استرجعها صلاح الدين عام 1187 م. ويذكر الرحَّالة والجغرافيُّون العرب اللجّ/ون في متون سجلَّاتهم التاريخيَّة قائلين: إنَّها بلدة خصبة، ويانعة، ومليئة بالينابيع العذبة.

في أواخر القرن التاسع عشر، انتقل نفر من سكَّان أمّ الفحم إلى اللجُّون؛ لاستغلال أراضيها الزراعيَّة.. وما لفتني في هذا الجانب، هو استعمال بعض سكَّان القرية للحجارة التي استُخرجت من أبنية موقع تلّ مجدو الآثاريّ على يد البعثة الألمانيَّة في عام 1903 لبناء مساكن جديدة لهم.

في سنة 1931، كان سكَّان اللجُّون يتألَّفون من 829 مسلمًا و26 مسيحيًّا ويهوديَّيْن اثنيْن، وهذا ما يؤكِّد افتراضي القائل بوجود بقايا أسرة سمعان الأعرج التي صار اسمها على مدار الأجيال أسرة مسك العطَّار.

أمَّا تراث اللجُّون الآثاريّ فقد تلاشى، تمامًا، بلا تدوين ولا تنقيب، بعد أن قام المستوطنون الصهاينة بتجريف أراضيها وخرائبها من أجل تمهيدها للزراعة.

من أهمّ أسباب نكبة القرية في 1948 م، هو أنَّها كانت منطلقًا لهجوم جيش الإنقاذ العربيّ على مستوطنة مشمار هعيمق الواقعة على بعد خمسة كيلومترات شمال القرية حيث أنا الآن،

وإثر نجاح الهجوم المضادّ الذي شنَّته العصابات الصهيونيَّة بعد مرور اثني عشر يومًا على معركة مشمار هعيمق، تمَّ قتل العشرات من أبناء القرية، إضافة إلى تهجير بقيَّة سكَّانها.

من جهة أخرى، يجب عليَّ دراسة النشاط التنقيبيّ الألمانيّ في موقع تلّ مجدو ومحيطه، حيث أطلق الألمان العديد من البعثات والمشاريع التنقيبيَّة في كافَّة أنحاء فلسطين في العهد العثمانيّ، واللافت هنا هو أنَّه في أوْج عمليَّة التنقيب في مجدو قامت جمعيَّة القيصر الشرقيَّة، بإيفاد عالمي الآثار «هاينريش كول» و«كارل فتسنغر» لإجراء أعمال تنقيب في أطلال كُنس الجليل القديمة، وكشفت الأعمال في تلّ حوم عن بقايا كنيس كفرناحوم الذي وعظ فيه يسوع. وأنا أفترض هنا أنَّ أعمال التنقيب توسَّعت لتشمل موقع قرية مجدلة، مسقط رأس المجدليَّة، حيث عاد العالمان على وجه السرعة إلى موقع تلّ مجدو من أجل التنقيب بالطبقة الأثريَّة الخاصَّة بالحقبة الرومانيّة في القرن الأوَّل الميلاديّ، ومن الجائز الافتراض روائيًّا أنَّهما قاما بإجراء عمليَّات تنقيب سرِّيَّة في مدينة ميسيانو بولوليس، اللجُّون حاليًّا، بحثًا عن آثار تدلّ على تاريخ المجدليَّة، ولكنَّ الوقت لم يسعفهما لإجراء المزيد من الأبحاث، بسبب هزيمة ألمانيا والدولة العثمانيَّة في الحرب العالميَّة الأولى.

إنَّ هذا الافتراض سيوفِّر لبطلي نسيم شاكر حبكةً موازية للحبكة الرئيسيَّة الخاصَّة بتاريخ المجدليَّة.

ملاحظة:

مراد يا صديقي.. مُنهك أنا الآن على مشارف الخلود إلى نوم مُحبَّذٍ من شدَّة تعب هذا اليوم الحافل بالعمل والأحداث والحرارة.. يوم تهافتُّ فيه بالإنجليزيَّة والعبريَّة لدرجة أنَّني غفلتُ عن شهر رمضان لتذكِّرني هي به عبر انزوائها في طرف العريش على قيد الصوم وأعباء الحفر والجوع والظمأ.. هل حسدتها؟ نعم، لقد حسدتها. هل كرهتها! كرهتها قليلًا.. كرهتها بشيءٍ من الفخر بها هي التي لم تكن مثلي. يا ليتني كنتُ مثلها!

على أيَّة حال يا صديقي.. عدنا اليوم بالحافلة. كانت أيالا جالسةً بجانبي منهكةً من شدَّة العمل. ولهذا فقد أراحتني قليلًا من ثرثرتها العبريَّة.. تناولنا الغداء بمجرَّد عودتنا بنهم شديد، وأمَّا سماء فقد خلدت إلى حجرتها مباشرةً لأنَّها كانت صائمة كما قلت لك. ثم انسحب كلٌّ منَّا إلى حجرته.

اكتشفتُ أنَّ جيراني في المبنى السكنيّ معظمهم من الأميركيِّين، فلم أختلط بهم كما يجدر بأور شابيرا.. فأنا متعب، أو بالأحرى مُصاب بملل مزمنٍ من الأحاديث والمجاملات والدعابات.. أنا ابن الصمت وُلدتُ منه. أنسيت ذلك يا مراد؟

المهمّ.. استعدتُ نظافتي باستحمامٍ منعش أرفقته بقيلولةٍ عميقةٍ، عدتُ منها نشيطًا لأزاول مهنتيَ المفضَّلة في تنظيف وترقيم القطع الفخَّاريَّة التي استخرجناها من الحفرة الاختباريَّة.. ومن ثم التحقتُ بجلسةٍ تقييميَّة أدارها البروفسور بريان حول ما تمَّ إنجازه اليوم.. إلى أن حان وقت العشاء الذي كانت سماء قد سبقتنا إليه إفطارًا رمضانيًّا ممَّا أصابني بالمزيد من النزق المرير،

فعاجلت نفسي بالانزواء داخل حُجرتي هذه لأحادثك همسًا بالعربيَّة.. لأحكي يا مراد.. لأبوح إليك بِبُحَّة صوتها التي جرفتني وألقتني بالحفرة التي حفرتها أنا في الموقع الآثاريّ.. ثم طمرتني بحضورها الفلسطينيّ الساطع. هي التي لم تكن بحاجةٍ لقناع لكي تندلع في وجه طالبٍ كنديّ عجز عن تهجئة حروف وطننا فلسطين مُستسهلًا التلفُّظ بأحقِّيَّة إسرائيل بالوجود، ممَّا أسعد أيالا وأغضبها في الوقت نفسه.. سعيدة لأنَّها ما زالت متأكِّدةً من صلاحيَّة ضمير الغرب المتضامن مع دولتها وإرث محرقتها؛ وغاضبة لأنَّ هذه الدولة عاجزةٌ عن إخماد صوت سماء.. فما الذي يدفعها إلى كلِّ هذا الغضب؟ لماذا تمقت سماء في حين أنَّها لا تمقتني أنا. أقصد أور الذي يتعامل معها بأَنَفة أشكنازيَّة في بعض الأحيان؟ لماذا تنجذب إلى السيِّد الأشكنازي الذي اضطهد ذويها تمييزًا وتهميشًا في هذه المنظومة الكولونياليَّة بحسب رأيك أنت؟

أور يضطهد أيالا، وأيالا تضطهد سماء، وسماء هي التي أبتهل إليها الآن.

صديقي العزيز..

لم يحرمني يومي هذا من المزيد من التعاسة حين تناهت إلى مسامعي أصداء صوت معدنيّ تردَّدت منبعثةً من الجهة الجنوبيَّة الغربيَّة لموقع الحفريَّة.. صرخ الصوت بعربيَّةٍ ركيكةٍ صدئة: «عدد.. عدد»، لأنتفض حين لمحتُ ذلك المسخ المخلوق من الحديد والإسمنت والأسوار العالية، إذ هو سجن مجدو الاحتلاليّ، أهكذا يقومون بإحصائكم يا مراد.. عدد عدد..

لينزعوا عنكم الإنسانيَّة صبحًا وظهرًا ومساء.. يحصون أجسادكم وأنفاسكم وآمالكم بالحرِّيَّة..

عدد.. عدد.. أهكذا يطيحون بكم عن سروج أحلامكم! ويقضمون صباحاتكم بأنياب منظومتهم الأمنيَّة المعدنيَّة؟!

سجن مجدو وغابة مجدو، ومن ثم مستوطنة مجدو..

إنَّه الإصرار على استلاب التاريخ وتقييده بالسيطرة والعنف والتعسُّف.

مستوطنة مجدو يا مراد هي مرادي الآن.. هناك المجدليَّة تناديني منتظرة.. فكيف الوصول إليها والطريق مفخَّخ بكاميرات المراقبة ومغتصبي التاريخ والأسلاك الشائكة وعدد عدد؟!]

يتدفَّق الوقت، ينقلب أسبوعًا حافلًا بالأحداث. لحظات تعبره خاطفةً دون أن تُقيم فيه، معلنةً عن ماضٍ سيتذكَّره بعد قليل. ومضات حافلة بذكرياته الممسوخة التي ترعرت ما بين مستوطنة مشمار هعيمق وموقع حفريَّة الفيلق الرومانيّ السادس؛ إذ قرَّر على حين غرَّة الإقامة في أوج اللحظة، بل امتطاء كلّ ما فيها من مؤشِّرات قد تشي بمستقبلٍ يحمل في ثناياه نصّه الروائيّ المشتهى، ملقيًا قناع أور شابيرا على هامش اللحظة مرَّةً واحدة وللأبد.. متسائلًا في إعصار الوقت أثناء تحديقه بملامحه المنعكسة بالمرآة إذا ما كان ثمَّة أثرٌ بيِّن لأور شابيرا سيبقى في نفسه، في دمه، وهل يستحقّ نصّه العتيد كلّ هذا التنازل عن ظلِّه وملامحه الأوَّلين؟ أَمَا سئم بعد من لعبة الأقنعة وجزعه المرير

كلَّما مرَّ من جانب سماء في طرقاتِ وميادين وقت أور شابيرا؟

هو الذي بارز أسبوعه الأوَّل نور تارةً وأور تارةً أخرى، ليُهزم إثر كلّ جولةٍ بالمزيد من طعنات الالتباس والنكران والحيرة والارتداد، والخشية من اكتشاف أمره بأيَّة لحظة.

ناور أسبوعه الأوَّل بالانغماس التامّ في العمل الآثاريّ، يُنقِّب الأرض مستخرجًا خفاياها وفُخَّارها غافلًا عن فخَّاره المهشَّم هو الذي يتطلَّع إلى من يلمّه ويردّه إلى أصله.

وفي أوْج إنهاكه بالعمل، عجز عن تلبية تطلُّعه الروائيّ المجدليّ المستقرّ بين أنقاض قرية اللجُّون، أسفل مستوطنة مجدو الشديدة الحراسة والمراقبة، ليرتدّ خانعًا تملأه الخشية على الرَّغم من قناعه الأشكنازيّ المتقن من الاقتراب من نواحي المستوطنة، وما فاقم من خشيته التي أعلن عنها ناقوس الخطر في داخله هي تلك الزيارات الخاطفة ما بين الفينة والأخرى لمراقبة سلطة الآثار الصهيونيَّة «روتم ربيبو» من أجل الاطِّلاع على مجريات العمل في موقع الحفريَّة، فما إنْ كانت تحطّ في الموقع حتى يختفي هو متحجِّجًا بالذهاب لقضاء حاجته أو إجراء مكالمة هاتفيَّة ينزوي من خلالها في طرف العريش القصيّ، فمجرَّد لقاء عابر معها لتجاذب الحديث حول ماضٍ مختلق تدقّق فيه هي عبر سؤاله عن سيرته المهنيَّة سيكفل الانتزاع الفاضح لقناعه، وإقحامه مقيَّدًا بقهقهةٍ شامتة لأور شابيرا في هذا السجن المقابل له. سجن مجدو.

إضافةً إلى أنَّه لم يتنازل في أوقات الاستراحة عن استراق

النظر إلى سماء إسماعيل، كان مجرَّد النظر إليها يُريحه مُستمدًّا طُهره منها، دون أن يجرؤ على الاقتراب منها أو المشاركة في حديثٍ هي من تقبض على ناصية الكلام والحوار فيه.

تدفَّق الوقت في ساعات الحفر والاستراحات والأحاديث والمحاضرات ووجبات الطعام الجماعيَّة، والبطاقاتِ الصوتيَّة وطمأنة الشيخ مرسي على أحواله في مكالماتٍ ورسائل سريعة وقصيرة. تدفَّق الوقت في حواراته العبريَّة مع أيالا، وإعرابها الدائم عن غيظها وامتعاضها من حضور هذه العربيَّة التي لا تسأم من الحديث في السياسة ومعاني الهويَّة، وتفلّته من قبضة أيالا القاضية بوضع حدٍّ صهيونيّ للغاية لسماء:

ـ أيالا.. دعيها تتحدَّث كما تشاء، ودعينا نحن نفعل ما نشاء.. ألا تؤمنين بالديموقراطيَّة؟

ـ أيّ ديموقراطيَّة؟! ما للعرب والديموقراطيَّة؟! هكذا أنتم دومًا أيُّها الأشكنازيُّون تتشدَّقون بالديموقراطيَّة والليبراليَّة واحترام رأي الآخر.. أمَّا على الأرض فأنتم أشدّنا قبليَّة.

ـ هوِّني عليك يا أيالا.. فهي تطرح موقفًا نابعًا من قناعاتها، وبإمكانك أن تردِّي عليها بموقفٍ نقيض.

ـ موقفي الوحيد هو أنَّ هذه البلاد اسمها أرض إسرائيل. أنا عندي أرض واحدة فقط، وأمَّا هي فلديها أكثر من عشرين أرضًا في الأردن وسورية والعراق وغيرها.. فلتذهب إلى دبي. دبي جميلة. لقد زرتها في عطلة الأعياد الأخيرة.. قل لي: هل زرتها أنت؟

ـ كلَّا، لم تسنح لي الفرصة بعد.

أجابها بنزق مستغربًا من ليِّها لرقبة الحديث وجذبه نحو منعطفاتٍ أخرى، أدَّت به من كراهيَّتها لسماء إلى حبِّها لدبي. تكره سماء، مع أنَّها لم تتبادل معها كلمة واحدة حتى الآن! فقط بضع نظرات متعالية ومتكبِّرة كانت ترميها بها، في الوقت الذي لم تكن فيه سماء، كما لاحظ نور على درجةٍ عالية من الانتباه لوجود أور وأيالا، حيث كانت منهمكة في مجريات العمل، ولا تختلط غالبًا إلَّا مع أعضاء مجموعتها.

ومع تصاعد هموم قناعه الذي شعر أنَّه يرتديه منذ دهر، تملَّص من دعوة أيالا وبقيَّة أعضاء المجموعة له للانضمام إليهم في جولة استجماميَّة على شواطئ بحيرة طبريَّة في عطلة نهاية الأسبوع، مدَّعيًا انهماكه بإعداد دراسة بحثيَّة عن الفيلق السادس، سينشرها قريبًا في مجلَّة آثاريَّة في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، ليعزل نفسه يومَي الجمعة والسبت داخل حجرته، فهو سيِّد الحجرات، خاصَّةً هذه الحجرة القريبة من مطالع غابةٍ تحاصره ليلًا بعواء الذئاب، بعيدًا عن ماضيه، ومخيَّمه، واسمه، فاخترق العواء المخيف بطاقاته الصوتيَّة التي باتت أشدّ وطأةً وسرعة:

ـ [ليل الأربعاء ـ 28 نيسان:

عثرنا اليوم في موقع الحفريَّة على بعض العملات الرومانيَّة، فساد السرور أوساط البعثة.

ملاحظة:

مراد.. أين أنا؟ أين أبي؟ أيالا كانت في دبي، أمَّا أنا فلم أكن.. أنقذني!]

ـ [عصريَّة الخميس ـ 29 نيسان:

فاجأني بريان اليوم بقوله: إنَّ ثمَّة بقايا لمعسكر رومانيّ عُثر عليها بالجزائر مطابقةٌ إلى حدٍّ ما بمواصفات فيلقنا الرومانيّ السادس.

ملاحظة:

مراد.. سماء لم تكن سعيدة اليوم. كانت مُلبَّدة بغيوم الأسى والحيرة.. ولم أعلم لماذا؟ كيف لي أن أعلم؟]

ـ [مساء الجمعة ـ 30 نيسان:

لم أعثر حتى الآن في موقع الحفريَّة على آثارٍ قد تؤكِّد وجود جالية مسيحيَّة مقدسيَّة داخل أسوار المعكسر.. ولهذا، يجب أن أعمل جهدي من أجل الوصول إلى أطلال قرية اللجُّون في مستوطنة مجدو.

ملاحظة:

مراد.. الأوضاع تزداد توتُّرًا في القدس. هجمة الاحتلال الاستيطانيّ تتصاعد على أهالي حيِّ الشيخ جرَّاح.. هل تعلم أنَّني أعمل وحدي في هذا المبنى اللعين؟]

ـ [ظهيرة السبت ـ 1 أيَّار:

إنَّ البئر الموجودة في اللجُّون تناديني.. بئر مسك العطَّار تغويني إلى أعماقها.. يجب أن أزوِّد نسيم شاكر بهذه البئر، فبدونها لن يقوى على كتابة الرواية. أشعر الآن بأنَّ تخيّلي للبئر هو حقيقة فعليَّة.

ملاحظة:

مراد.. الصمت يقيم عليَّ الآن في عزلتي هذه، ممَّا دعاني إلى الاشتياق لصمت أبي في أزقَّة المخيَّم؛ مع أنَّ أصوات موسيقى احتفاليَّة تصلني من ناحية بيوت المستوطنة.. نسيتُ أن أقول لك: اليوم هو عيد العمَّال، وهذه المستوطنة اشتراكيَّة علمانيَّة.. ولكن كيف هذا؟ أليست الاشتراكيَّة هي القدرة على خلق ظروف إنسانيَّة لا نكبويَّة؟!]

ـ [فجر الأحد ـ 2 أيَّار:

اليوم سنعمل على التحديد النهائيّ لمربَّعنا التنقيبيّ.. أتمنَّى أن نعثر على مفاجآت وخفايا عظيمة.

ملاحظة:

مراد..

هل قلت لك: ماذا يشبه وجه سماء إسماعيل في لحظات الصباح الأولى؟

إنَّه يشبه سدرة المنتهى.. لا بل صباح العيد. عيد الطفولة البعيدة.]

ـ [ليل الاثنين ـ 3 أيَّار:

عثرنا اليوم على صندوقٍ حديديٍّ متوسِّط الحجم، عندما لمحته خفق قلبي.. شعرت للحظة أنَّ ما أتخيَّله واقعيّ وحقيقيّ تمامًا. تسبَّب العثور على الصندوق بهَرجٍ ومَرجٍ مصحوبيْن بالتصفيق والهتافات.. وبعد أن فتحناه بحذرٍ شديدٍ أصابنا رأسُ رمحٍ صدئ كان مخبَّأً فيه في صميم طموحنا العلميّ الآثاريّ.. كما أنَّ الطامَّة الكبرى قد وقعت بزيارة مراقبة سلطة الآثار

الصهونيَّة، روتم ربيبو، التي جاءت برفقة ناتان ضابط أمن المستوطنة، ممَّا دعاني للاحتجاب لحين رحيلهما.

ملاحظة:

مراد..

طرقت أيالا اليوم باب حُجرتي فلم أجبها أنا بل أور.]

هل جُنَّ نور الشهديّ أم جَرَفه التدفُّق الجارف لوقتٍ ليس بوقته نحو أعماق هاويةٍ لا قرار لها؟

هو الذي يستيقظ الآن على صرير باب حُجرته المفتوح على غير العادة، ينهض عن سريره، ويرتدي قناعه، يهرع نحو الباب ليغلقه فلا ينغلق، يجذبه صوت أنينٍ جارح ينبعث من الحُجرة المقابلة له، ليتجاوز عتبة الباب، يلتفت يمينًا ويسارًا ثم يعبر الممرّ نحو الحُجرة المقابلة، يدفع بابها بانجذابه لحدَّة الأنين، ليتجلَّى المشهد المشحوذ بهسيس شهوةٍ مستعرَّة؛ إذ هي أيالا محشورة بين إيميلي ونيكول المنهمكتيْن بالتهام نهديْها المكتنزيْن، يعميه سطوع العُريّ المعروق لثلاثتهنَّ، يتراجع القهقرى ليصطدم بجسد آدميٍّ يلتفت إليه بحدَّةٍ وخوفٍ، فإذا هو أور ينتصب بكامل عريِّه لا يرتدي سوى ابتسامةٍ صفراء شهوانيَّة، يدفعه إلى الأمام، يتعثَّر، يكاد يقع، يضع كفَّيْه على وجهه ليتأكَّد من وجود القناع، يحدِّق بالمرآة، يلفحه صوت الأنين والاحتكاك المستعرّ للأفخاذ العارية، يحدِّق بالمرآة فلا يرى سوى أور، يلتفت وراءه فلا يعثر إلَّا على أور أيضًا، يرتجف، يدفعه أور، جانبًا، بعد أن قبضت كلّ من نيكول

وإيميلي على أيالا من يديْها وساقيْها، تصيح أيالا متأوِّهة:

هيَّا.. أور اصهرني بقضيبك الأشكنازيّ هذا.. هيَّا.

يقترب منها، يطأها ثم يلجها بكلِّ ما أوتي من نشوة، وقسوة؛ لتتحرَّر هي من نيكول وإيميلي اللتيْن توحَّدتا معًا من جديد باحتكاكٍ مثيرٍ متسارع. تحدِّق أيالا بأور الواقف بجانب السرير.. تصرخ بإثارةٍ وغواية:

ـ هيَّا تعال، وأرحني من طنين النحل بين فخذيَّ.

يدنو منها، يكاد ينتزع ملابسه متأثِّرًا بفحشها، يكاد يهمّ بها، فيلتفت بغتةً نحو النافذة فإذا بسماء إسماعيل تتَّكئ على جذعِ شجرة صنوبرٍ ضخمةٍ تحدِّق به بأسفٍ للحظات، أعقبتها بتسلُّقها الشجرة بسرعةٍ مخيفة، ثم اختفت.

ـ صباح الخير.

ـ صباح النور.

لم تكن التحيَّة الصباحيَّة المرحة باللغة العربيَّة من نصيبه هو على الرَّغم من القشعريرة الحادَّة التي ألمَّت به جرَّائها، بل من نصيب زميلٍ لها في المجموعة كان يقف بجانبه تحت العريش، إذ أعلن الطالب الأميركيّ عن فشله بلفظ حروف الصباح العربيَّة، التي لطالما لقَّنته إيَّاها سماء ليستبدلها مُحرجًا بتحيَّةٍ إنجليزيَّة. وأمَّا ردُّ التحيَّة بعربيَّةٍ أحسن منها،

فكان من نصيبها هي التي تفاجأت من هذا الردِّ البليغ المفعم بحرف الحاء الذي خرج من حلق أور؛ ليُدرك هذا الأخير حجم الارتباك واللَّبس الذين أوقع نفسه بهما في حضرة صباحٍ مزدانٍ بسماء إسماعيل، التي تداركت أمرها بسرعةٍ عبريَّةً حين لمحت نجمة داود المتألِّقة على صدره:

ـ أنت شابيرا الملقَّب بالفأس الكبيرة؟

ثم قضت على آماله بإزالة ارتباكه أمامها مردفةً بتحيَّةٍ عبريَّة محكمة التهكُّم:

ـ صباح الخير.. مع أنَّك رددت التحيَّة بعربيَّة لا يتقنها الأشكنازيُّون.

تلعثم قليلًا. كاد ينطق بحروفٍ عربيَّةٍ بصورةٍ عشوائيَّةٍ مُريحًا نفسه من عبء أور الذي همس بأذنه:

ـ أرأيت أيُّها الأحمق.. أنت ستفضح نفسك الآن! قل لي: من أين جاءتك هذه الفصاحة العربيَّة الصباحيَّة؟

أجابها بالعبريَّة:

ـ صباح الخير سماء.

فهتفت متعجِّبة بالعبريَّة ذاتها:

ـ وتقول اسمي بالعربيَّة أيضًا.. أيُّ نوع من الأشكنازيِّين أنت؟

همس أور من جديد متوسِّلًا:

ـ كفى.. كفى.. لا تورِّطني معها، أرجوك.. تمالك نفسك. هيَّا.

عقَّب مُلملمًا حضوره الأشكنازيّ أمامها بعد انسحاب الطالب الأميركيّ الذي سئم من هذه اللغة الخائيَّة في ساعات الصباح الأولى:

ـ لقد لفظتُ اسمك بعفويَّة.. كما أنَّ العبريَّة والعربيَّة من الجذر الساميّ ذاته، أليس كذلك؟

ـ طبعًا.. على الرَّغم من أنَّني إذا عاندتك الآن مختلفةً معك بالرأي، فستتَّهمني بمعاداة الساميَّة.

ـ دعينا من السياسة.. نحن هنا في بعثةٍ علميَّة آثاريَّة.

ـ ألا تعلم أنَّ الآثار سياسة؟! أنتم من أحلتم التوراة دليلًا سياحيًّا أثريًّا، أليس كذلك؟

همس أور بسخطٍ بأذن نور قائلًا:

ـ حسنًا.. لقد طفح الكيل. هذه الفتاة مُعبَّأة بحقدٍ سام.. أيالا معها حقّ. على الرَّغم من أنَّها تتحدَّث معك، أقصد معي بأريحيَّة تامَّة، وهذا ما يخنقني.

وما إن همَّ نور بالتملُّص من حدَّة حديث سماء حتى انقضَّت أيالا عليهما فجأةً لتعاجل سماء بحدَّتها:

ـ هل ثمَّة خطبٌ ما؟

أجابتها سماء بتهكُّم:

ـ لا يوجد هنا خطب سواكِ.

تسبَّب هذا التهكُّم بانفجار أيالا بوجهها غضبًا:

ـ ألا تسأمين أنتِ من ترديد الترَّهات أمام الطلبة الأجانب.. دائمًا أنتم الضحايا ونحن الجلَّادين.

أجابتها سماء ببرود، وسط تخبُّط أور ونور معًا:

ـ إنَّها ليست ترَّهات، بل حقائق.

فتدخَّل أخيرًا مستعيدًا نَفَسه ليردع مؤشِّرات مشاجرةٍ صباحيَّة:

ـ أرجوكما.. كفى.. لا داعي للدخول في نقاشاتٍ سياسيَّةٍ لا طائل منها.

همس أور بأذنه ساخرًا:

ـ أحسنت.. هكذا كنت سأقول لو كنت مكانك.

انسحبت سماء، من أمامهما، دون أن تعقِّب بكلمة؛ أمَّا أيالا فقد قالت له بعصبيَّة:

ـ لماذا لم تدافع عنِّي أمامها؟ ما بك أنت؟ هل ستسمح لهذه العربيَّة ببثِّ سموم حقدها وسط البعثة؟

ـ هدِّئي من روعك.. إنَّه مجرَّد نقاش.

ثم جذبها من يدها، مداعبًا مخفِّفًا من حدَّة سخطها، متلبِّسًا الدور الأشكنازيّ لأور ببراعة، وقادها إلى المربَّع التنقيبيّ الخاصّ بمجموعتهما لينخرطا في عملهما الآثاريّ.

جرى عمل البعثة على قدمٍ وساق، يصاحبه حماسٌ شديد تسبَّبت به التطوُّرات الأخيرة المتمثِّلة بإفصاح تربة الحفريَّة عن خفاياها بإيقاعٍ أسرع ممَّا توقَّعه بريان وزميله المشرف المشارك

بيتر هندرسون، هذا ما بشَّر بمنح المجموعات الأربع أوقات استراحةٍ أطول، ممَّا أدَّى إلى انتعاش أعضاء البعثة، في الوقت الذي التفت نور وليس أور على وجه التحديد ملاحظًا إلى تلك الحوارات الهامسة التي اكتستها الجدِّيَّة والصرامة ما بين بريان وبيتر وديڤيد، حيث لمحهم أكثر من مرَّة على هيئتهم تلك، فاعتقد أنَّهم ينقِّبون عن شيءٍ ما لا يريدون الإفصاح عنه لأعضاء البعثة، شيءٍ غامضٍ تطاول وامتدَّ متغذِّيًا على مخيِّلة نور الروائيَّة الخصبة، ليتساءل ما بينه وبين أور في سرِّه:

ـ ثمَّة أمر مريب بشأنهم.. إنَّهم يبحثون عن شيءٍ بعيْنه.

ـ أيُّها المهووس.. أنسيت أنَّك في بعثة آثاريَّة، وهؤلاء هم المشرفون عليها؟

ـ بلى.. ولكنَّ حدْسي لا يخيب.. إنَّهم يخفون أمرًا ما.

ـ لقد سمعتُ أنَّ بريان يتَّبع طائفةً إنجيليَّةً خلاصيَّة.. كما قالت لي أيالا: إنَّه يقطن كيبوتس قريبًا من هنا مع زوجته اليهوديَّة.

ـ معك حقّ.. فنحن هنا نقف في ميدان المعركة النهائيَّة الفاصلة ما بين قوى الخير وقوى الشرّ. معركة هرمجدون.

ـ قل لي.. هل أنت من قوى الخير أم قوى الشرّ؟

ـ أجبني أنت.

أعادته من شروده المختلّ أصوات هرج ومرج مرفقةٌ بصخب أطفالٍ جاؤوا برفقة ذويهم من أجل التطوُّع بأعمال

التنقيب في الموقع، حيث كان بريان قد أعلم أعضاء البعثة في الصباح أنَّ مجموعةً من أهالي «كيبوتسات مجلس وادي يزراعيل الإقليميّ» سيزورون موقع الحفريَّة ضمن سلسلة أنشطة مخيَّمهم الصيفيّ الذي أقامه المجلس للأطفال.

طوَّق الحشد الصاخب المربَّعات الأربعة بفضول الأطفال وعبثهم وتحمّسهم للمشاركة بأعمال التنقيب، ثم قام بريان بالتنسيق مع مسؤول المخيَّم الصيفيّ من أجل توزيع الأطفال وذويهم على المربَّعات، فكان نصيب مربَّع أور أسرة واحدة مكوَّنة من أمٍّ وأطفالها الثلاثة الذين تراوحت أعمارهم ما بين سبعة أعوام وأحد عشر عامًا. رحَّب بهم ديڤيد بحفاوة نبيلٍ إنجليزيّ هو وبقيَّة أعضاء المجموعة خاصَّةً أور وأيالا، فهذه الأسرة بحسب ألوان أيالا هي من ذوي اللونيْن الأبيض والأزرق، فيما قام أور بمنح الأطفال بعض المعدَّات الخفيفة مثل الفرشاة والفأس الصغيرة والغربال، وأرشدهم إلى كيفيَّة استخدامها بكلِّ سرور، لم يكن متأكِّدًا إذا ما كان سرورًا أوريًّا أم نوريًّا، غير أنَّ سعادته الحقيقيَّة الطاغية حلَّت عليه بعد لحظات بفضل ذلك الإفصاح المشرق الذي كان يتمنَّاه منذ انضمامه للبعثة الآثاريَّة، والذي أعربت عنه أمّ الأطفال مُعرِّفةً بأسرتها:

ـ أنا أوشرات تومر، وهؤلاء أطفالي جلعاد ويوني وإيتان.. ونحن جيرانكم من كيبوتس مجدو.

هتف أور برأس نور:

ـ هللّويا.. ألم أقل لك إنَّ حظّك هائل السعادة أيُّها

الوغد.. فها قد جاءتك الفرصة مُهلِّلة راقصة. هيَّا أرني فصاحتك الأشكنازيَّة الآن.

فقال منتعشًا:

ـ أهلا وسهلًا بكم في كيبوتس الفيلق الرومانيّ السادس.

ضحكوا ثلاثتهم بسرور، ثم قام أور وأيالا بالتعريف عن نفسيْهما، فيما انغمس الأطفال بالعمل تحت إشراف ومعاونة بقيَّة أفراد المجموعة.

تدخَّلت أيالا بالحديث مخاطبةً أوشرات بتردُّد:

ـ سيِّدة أوشرات، تبدين لي أنَّك شقيقة أطفالك الكبرى لا أمّهم.

انتفخت أوداج أوشرات مسرورةً بهذا الإطراء الباذخ، على الرَّغم من أنَّ أيالا كانت محقَّة إلى حدٍّ ما بملاحظة رشاقة وجاذبيَّة هذه المرأة التي قدَّر أور عمرها بخمسة وأربعين عامًا مستمدًّا تقديره هذا من مؤشِّرات فتيَّة لاحت من شعرها الأشقر المموَّج، وبشرتها البيضاء الصافية، وقوامها النحيل المشدود.

قالت أوشرات مدَّعية الحَرَج وهي تعبث بخصلات شعرها الذهبيّ:

ـ أنت تبالغين أيالا.

فداعبها أور متسائلًا:

ـ ما سرّك إذن؟ هيَّا قولي لنا لكي نصير شقيقيْن لكِ ولهؤلاء الأطفال.

أجابته بحبورٍ شديد:

ـ السرّ يكمن في نمط الحياة الصحّيّ الذي نتقيَّد به في الكيبوتس.. حيث الهواء النقيّ والرياضة اليوميَّة، والأهمّ الطعام الجيِّد.

عقَّب أور بتذمُّر مصطنع:

ـ يا حبَّذا الطعام الجيِّد.. فنحن هنا منذ أكثر من أسبوع، لا نتناول سوى المعلَّبات، والوجبات الجاهزة.

غمغمت أيالا معزِّزةً من تذمُّر أور:

ـ معك حقّ.. أشعر أنَّني أصبحت طاعنة بالسنِّ هنا.

ثم شرعوا بحوارٍ حول فوائد الغذاء الصحّيّ، تلاه انضمام أوشرات لأطفالها مستمتعين جميعًا بأجواء البعثة الآثاريَّة، وسط لهو الأطفال ودهشتهم من العمل في التنقيب، واستخراج بعض القطع الفخَّاريَّة، ورؤوس الرماح والسهام، إلى أن شارفت الساعة على الواحدة ظهرًا، معلنةً عن موعد انتهاء أعمال البعثة لهذا اليوم، إضافة إلى فشل أور بإثارة انتباه أوشرات لبراعته وتمرُّسه بالتنقيب، متوسِّلًا طوق نجاة تقذفه هي نحوه من وراء أسوار مستوطنة مجدو المنيعة، بعد أن أوشك على الغرق في أعماق هذه الحفرة البائسة.

جمعت أوشرات أطفالها وهيَّأتهم للرحيل متقدِّمةً بخالص الشكر من ديڤيد وأعضاء المجموعة على حسن ضيافتهم واهتمامهم بها وبأطفالها، وما إن همَّت بالتوجُّه نحو الحافلة حتى استدارت متوجِّهةً نحو أور وأيالا مدفوعةً بقلبها الأموميّ ذي

الطابع الكيبوتسي الصحّيّ قائلةً لهما بورع:

ـ ما رأيكما يا عزيزيَّ بتلبية دعوتي لكما للقضاء في بيتي.. في أيِّ وقتٍ تريانه مناسبًا لكما.

تداركت أيالا جدِّيَّة أوشرات، فقالت بخفر:

ـ سيِّدة أوشرات.. نحن كنَّا نمازحك فحسب، فالطعام جيِّد في مشمار هعيمق.

همس أور بأذن نور بسخط:

ـ قل لهذه المغفَّلة الشرقيَّة أن تصمت، لأنَّها ستذهب بحظّك السعيد الآن.

علَّق أور قائلًا بسرور:

ـ لِمَ لا؟ أنا مشتاق بحقّ للطعام البيتيّ الصحّيّ، والأجواء الأسريَّة الحميميَّة.. ما رأيك أيالا؟

هزَّت كتفيْها بإحراجٍ واستسلامٍ مبديةً موافقتها، فأردف أور قائلًا:

ـ يوم الجمعة القادم هو يوم عطلتنا.. هل هذا يناسبك سيِّدة أوشرات.

ـ طبعًا.. سأكون بانتظاركما.

ثم تبادلوا أرقام هواتفهم على أمل اللقاء القريب يوم الجمعة في كيبوتس مجدو.

[ليل الجمعة ـ 7 أيَّار: بئر مسك العطَّار هي بئر المجدليَّة:

إنَّ فرصة الذهاب إلى مستوطنة مجدو ما هي إلَّا إشارة مجدليَّة أخرى مباركة، عزَّزت من توجُّهي الروائيّ وقاعدته التخييليَّة، التي أخذت تنحو منحى الواقعيَّة.. إذ قمتُ بعد تناولي للغداء أنا وأيالا في بيت أوشرات ـ ولن أنكر أنَّه كان شهيًّا زاخرًا بأشهى أصناف المأكولات البحريَّة ـ بالتجوُّل في أنحاء المستوطنة برفقة أيالا وأوشرات وأطفالها. وسعيتُ قدر الإمكان إسباغ صفة الباحث الآثاريّ الأشكنازيّ على شخصيَّتي، أثناء تفقُّدي وتدقيقي لبعض الأطلال التي لم تكن سوى أنقاض قرية اللجُّون المنكوبة، إلى أن عثرت على البئر أخيرًا، وما أدهشني وكاد أن يصعقني هو عثوري بجانب البئر على بقايا مقام إسلاميّ قدَّرتُ أنَّه مسجد إبراهيم المبنيّ على صخرة مُدوَّرة، وكان ياقوت الحمويّ يذكره في مرجعه المهمّ «**معجم البلدان**»، وتخيَّلتُ أثناء تفقُّدي لحجارة المسجد أنَّه مقام مسك العطَّار حفيد سمعان الأعرج مريد المجدليَّة السرِّيّ، بل إنَّني شعرتُ برائحة النارديين الأخَّاذة منبعثة من أعماق البئر، علمًا أنَّ أطلال القرية أخفتها الأشجار الباسقة التي زرعها مستوطنو مستوطنة مجدو. أمَّا البئر فقد وقفتُ عند حافَّتها عاجزًا عن رؤية مرارها المظلم.. كما أنَّ إحاطة أيالا وأوشرات بي منعتني من الإفراط في شغفي الروائيّ والآثاريّ. فتمالكتُ أمري مواسيًا نفسي بإمكانيَّة اكتشاف خبايا البئر في وقتٍ آخر وظروفٍ ملائمة أكثر خاصَّةً بعد أن نجحتُ بكسب ودّ أوشرات وأطفالها.. وبجميع الأحوال فإنَّ هذا الاكتشاف الأوَّلي أراحني كثيرًا، ما يجعلني سعيدًا بتوفير الجزء الأهمّ من مادَّة الرواية لبطلي نسيم شاكر.

ملاحظة:

صديقي مراد..

لقد أحرزتُ نصرًا مؤزَّرًا اليوم؛ فقد حقَّقتُ مناي أخيرًا بالتسلُّل إلى اللجُّون بقناع أور شابيرا.. أجل. لقد دخلتُ عقر بيت في مستوطنة مجدو، وتناولتُ فيه أشهى الطعام، وتجاذبت أطراف الحديث الأشكنازيّ مع امرأةٍ صهيونيَّةٍ جميلة، عندما سألتها بتهذيبٍ شديدٍ عن سيِّد البيت أجابت والفخر يملأها أنَّ زوجها طيَّار حربيّ التحق بقاعدته الجوِّيَّة منذ عدَّة أيَّام، ولن يعود قريبًا، شاكيةً لي تردِّي الأوضاع الأمنيَّة والخطر المُحدق بإسرائيل من حزب الله وحماس وإيران وسورية. قالت: إنَّها لم تَرَ زوجها كثيرًا في الآونة الأخيرة؛ لأنَّ ثمَّة استنفارًا عامًّا في القواعد العسكريَّة تأهُّبًا لوقوع حربٍ وشيكة.

لا تشتمني يا مراد، أرجوك.. دعني أكمل، فلست أنا الذي كنتُ جالسًا برفقة أيالا على مائدة أوشرات، بل أور الذي واساها قائلًا بأنَّ جميع الصهاينة فخورون بالجيش وسلاح الجوِّ الصهيونيّ هاتفًا بشعار سلاح الجوّ الصهيونيّ «الجيِّدون للطيران»، هكذا قال لها أور دون أن يتأثَّر أو يشعر للحظة بحفيف الأشجار من حوله، الأشجار المُحمَّلة بمصائر أهالي قرية اللجُّون المهجَّرة المنكوبة. أمَّا أيالا التي كانت تلعن أصل العرب وإرهابهم ووجودهم، فلم تكن تشعر بأدنى خوف من اهتزازٍ خفيفٍ أسفلها لمفاصل حجريَّة كانت بيوتًا لأهالي اللجُّون.. فهل فهمت ما أقصده الآن يا مراد؟

على أيَّة حال، كدتُ قبل عدَّة أيَّام أن أنتزع قناع أور شابيرا

بعد أن قمت بتحيَّة سماء إسماعيل بتحيَّة صباحيَّة عربيَّة.. حيّيتها بصباح حيفا البهيَّة. بسبع موجات ذهبيَّة من بحر حيفا كنت سأحيِّيها.. أجل.. لقد حاصرتني على حين غرَّة، ثم انقضَّت عليَّ، أنا المدَّعي أورا، ليس لي بأفكارها الراسخة وهويَّتها الوطنيَّة، فعجزت أنا عن الردِّ.. بماذا كنت سأردّ؟ قل بالله عليك يا مراد، فمن كنت في حضرتها، أور أم نور؟

كما أنَّني أعرب لك الآن وحدك أنَّني انزعجتُ من حديثها معي كأور شابيرا بأريحيَّة تامَّة.. أوَليس هذا تطبيعًا؟!

أم أنَّ وجودها رغمًا عنها في أجواء الاشتباك اليوميّ مع الآخر الصهيونيّ يُشرِّع لها الحديث مع أور هكذا دون تكلُّف؟ ماذا عنِّي أنا؟ لا أعلم.. فما لبث انزعاجي أن زال بمجرَّد أن لمحتُ وشمًا بباطن ذراعها الأبيض النحيل.. وشمًا صغيرًا آسرًا يُزغردُ صمودًا وبقاء: حيفا 1948].

الفصل السابع

عصريَّة هادئة تنعم بنسائمَ لطيفة، جلَّلت المكان المترامي الأطراف، ما بين زفرات سهل وتنهيدات جبل ارتعشت مطالع غابته قليلًا، إثر تعربش ثلَّةٍ من المتجوِّلين كتفه الزاخر بالصخور والصنوبر.

إنَّه يوم السبت وما يحمله في طيَّاته من عطلةٍ واستراحةٍ لأعضاء البعثة الأثريَّة، ولمجموعة أور على وجه الخصوص، التي تصعد الجبل الآن يقوده «ناتان خودروفسكي» ضابط الأمن في مستوطنة مشمار هعيمق، الذي كان قد طلب من أور، قبل الشروع بالجولة، أن يسعفه بشيءٍ من الترجمة إذا ما عجز لسانه العبريّ عن بعض الكلمات الإنجليزيَّة أثناء تعريفه لأعضاء المجموعة بأهمّ مرافق ومعالم المستوطنة، فوافق أور معلنًا فخره بمهمَّته الصهيونيَّة القاضية بالترجمة لهؤلاء الأجانب الذين سيعودون بعد أيَّام إلى بلادهم مُحمَّلين باكتشافاتهم الآثاريَّة وبعض مكارم الأخلاق

والقيم الصهيونيَّة التي تلفّ هذا «الكيبوتس».

استجاب نور لدعوة ديڤيد آدامز أستاذه المشرف عليه، بالانضمام إليهم في جولة استجمام وسياحة في أنحاء المستوطنة وغابتها وزيارة معالمها التاريخيَّة، مشدِّدًا ديڤيد على هذه الكلمة الأخيرة: التاريخيَّة، التي لم يستسغها نور كما لم يستسغ هذا الوقت، وقت ليس له يسود مكانًا كان له منذ قليل، منذ ما قبل نكبة ولجوء، سائحًا بهذه المتاهة، متاهة كولونياليَّة، هكذا سيصفها له صديقه مراد، فما الذي يفعله هنا؟ ثمَّة خلل فادح في إيقاع التبرير والمواساة الذي يسير في أجوائه الصاخبة فوق حبلٍ رفيع حاملًا بيديْه نور وأور معًا، يخشى السقوط نحو قهقهات هذا المكان الذي بات يُطبق عليه الآن، وقد يكون القناع، قناع أور شابيرا هو كلّ ما يخنقه الآن:

ـ قل لي بحقِّ السماء، لماذا وافقت على هذه الجولة الكيبوتسيَّة؟

ـ أريد أن أتعرَّف على نواتكم الأساسيَّة التي أنتجت لكم دولة.

ـ ألم تسأم بعد من التعرُّف.. انظر حولك كلّ شيء واضح.. ليس الأمر بالمعجزة.

ـ الوضوح التامّ مخيف؛ لأنَّه يخفي في سطوعه الظلام.

ـ نحن نورٌ لكم.. نور الأغيار.. جئنا إلى هذه الأرض لنصلح خرابها.. هل تعلم أنَّ هذا الكيبوتس وأراضيه الشاسعة كانت مستنقعات للأوبئة والأوساخ؟

ـ المستنقعات أبهى من المستوطنات.

ـ متخلِّف.. بدائيّ.. حاقد.

ـ شكرًا يا حضاريّ.. مستشرق.. مُستنير.

ـ سأفضحك.

ـ بل أنا من سيفضحك.

سار إلى جانب ديڤيد وناتان الذي انقلب من ضابط أمن إلى مرشد سياحيّ بلحظة، في مقدِّمة المجموعة التي خلت من وجود أيالا التي آثرت قضاء عطلة نهاية الأسبوع لدى ذويها في مستوطنة «رمات جات» ممَّا أراح نور قليلًا من عبء حضورها الساخط على سماء.. التي يفتقدها هو الآن، فهي الأخرى عزمت على قضاء عطلتها في حيفا على أن تعود غدًا لاستئناف عملها في البعثة. وأمَّا دافعه الحقيقيّ للمشاركة في هذه الجولة، فكان ذلك الحبور المظلم بالسرور إثر ما أحرزه بالأمس من زيارةٍ لأطلال قرية اللجُّون المهجَّرة، تلك الصدفة المجدليَّة هي التي مهَّدت له الطريق إلى بئر مسك العطَّار، إذ تلبَّسه الخيال وألقى به أرضًا، أرض واقعٍ ملتبسٍ ما بين خيالٍ وواقعٍ وأمانٍ وحقائق وأحلامٍ ووقائع، ليروِّض خياله بخيالٍ آخر أشدّ واقعيَّةً من رؤاه الروائيَّة، وذلك عندما تفقَّد بقايا القرية المتأصِّلة بالتاريخ، ليستمدّ من حجارتها حقيقة وجوده في هذا المكان، وهي ليست مجرَّد حقيقة، بل شرعيَّة تبرِّر وجوده في هذه المستوطنة ما بين أور ونور، مستوطنة امتلكت ناصية الحيِّز بزمانه ومكانه في تغايرٍ يجعلها متعاليةً متجاوزةً لما تعانيه هذه البلاد من احتلال

واختلال، ومراكز وهوامش، فاستحوذ عليه الحيِّز ليتعالى هو أيضًا مفارقًا جرحه النازف هناك في القدس التي كان يتقلَّب فيها منذ قليل نور في أزقَّتها وأور في شوارعها.

كم يشتاق إليها الآن! خاصَّةً بعد أن أفادته هذا الصباح جولته الإخباريَّة الإلكترونيَّة بالمزيد من التصعيد والتوتُّر في ميادينها بسبب الاقتحامات المستمرَّة من الجماعات الاستيطانيَّة لساحات الحرم القدسيّ الشريف، وتوسُّع رقعة التضامن مع أهالي حيِّ الشيخ جرَّاح المُهدَّدين بالطرد من بيوتهم، فبماذا سيُعلِّق هنا على هذه الأخبار؟ ماذا سيقول لأعضاء مجموعته السائرين وراء ناتان نور الأغيار الذي يرشدهم إلى أهمِّ معالم «الكيبوتس التاريخيَّة»؟

قال لهم ناتان بفخرٍ أشكنازيّ قبل المضيّ نحو «كهف البالماخ» أشهر معالم المستوطنة:

ـ إنَّ كيبوتسنا الذي أسَّسته عام 1926 حركة هشومير هتسعير[1] من خلال بعض الصاعدين إلى أرض إسرائيل من بولندا.. هو أحد الكيبوتسات القليلة...

مال نحو أور طالبًا منه بحَرَج عبريّ ترجمة ما تبقَّى من خطبته، فأردف أور طاردًا امتعاض نور ونفوره:

ـ مشمار هعيمق هو أحد الكيبوتسات القليلة التي لم تخضع للخصخصة.. وما زال يتبنَّى الاشتراكيَّة في بنيته الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة.. وكافَّة المصانع والمعامل التي زرناها هي ملكيَّة

(1) هي حركة الحارس الشابّ الاستيطانيَّة الإشتراكيّة الصهيونيَّة.

جماعيَّة لأعضاء الكيبوتس...

ثم قاطعة ناتان هاتفًا بخشوع:

ـ ها قد وصلنا كهف البالماخ أهمّ معالم الكيبوتس وحرب الاستقلال.

دلفوا إلى الكهف الكبير والواسع، المجهَّز كما يليق بمعلم سياحيٍّ تاريخيٍّ من ناحية الإضاءة والنشرات التعريفيَّة بعدَّة لغات، إضافةً إلى بعض اللوحات والصور التذكاريَّة المعلَّقة على جدرانه الصخريَّة. تأمَّل أعضاء المجموعة بالكهف ومحتوياته بفضولٍ ودهشةٍ مرفقيْن بتعليق ناتان الإنجليزيّ المجعلك:

ـ في الحرب العالميَّة الثانية.. وفي عام 1942 تحديدًا كانت هناك خشية من انتصار ألمانيا...

ليسعفه أور مرَّة أخرى بالترجمة:

ـ في عام 1942 وبعد سلسلة انتصارات أحرزتها ألمانيا النازيَّة.. حوَّل الجيش البريطانيّ الكيبوتس إلى معسكر تدريب لأكثر من مئة وستِّين متطوِّعًا يهوديًّا. جرى تدريبهم على إعداد المتفجِّرات وتخريب أنظمة الاتِّصال اللاسلكيَّة وتشغيلها.. إضافةً إلى إخفاء أطنان من المتفجِّرات في أنحاء متفرِّقة من الكيبوتس بما فيها هذا الكهف. ومع زوال خطر النازيِّين التحق أولئك المتدرِّبون بالبالماخ[1]، القوَّة الضاربة لقوَّات الدفاع الهاجاناه.. التي حوَّلت هذا الكهف إلى موقع تدريبٍ ولقاءاتٍ سرِّيَّة بين أعضائها.. قاطعه ناتان مردفًا بكلِّ فخر بالإنجليزيَّة:

---

(1) بلوجوت ماحتس: القوَّات الصاعقة الخاصَّة بالهاجاناه.

ـ لعب الكهف دورًا حاسمًا في صدِّ هجوم العرب على الكيبوتس أثناء حرب الاستقلال، وشكَّل نقطة ارتكاز للهجوم المعاكس الذي شنَّته قوَّات البالماخ والهاجاناه على العصابات العربيَّة.

دُهش نور من فصاحة إنجليزيَّة مباغتة حلَّت على ناتان، فاعتقد للحظة أنَّ ناتان يحفظ هذه الفقرة الأخيرة بالإنجليزيَّة عن ظهر قلب واعتزاز، وهذا ما جعل أور يهمس بأذن نور بسخرية:

ـ يا ليتك تمتلك مثل هذه الفصاحة الأشكنازيَّة!! لقد شوَّهت سمعتي بعدم أخذك زمام المبادرة بالتعليق والشرح.

ـ أجل.. كنتُ سأشوِّه سمعتكَ أكثر لو بحتُ الآن لأعضاء المجموعة المأخوذين بإنجازاتكم الحضاريَّة الاشتراكيَّة الصهيونيَّة أنَّ موقع الكيبوتس هو أرض لقريةٍ منكوبةٍ اسمها أبو شوشة.. وأنَّ هذا الكهف المُقحم في نصوصكم القوميَّة المقدَّسة ليس سوى مرتع لهوٍ لأطفال القرية المهجَّرة.. بل كان أيضًا يُستخدم زريبةً للبهائم.

ـ كذب.. افتراء.. تضليل.

ـ أحسنت.. ها قد بدأت ترى ملامح وجهك الحقيقيَّة بالمرآة.

خرجوا من الكهف، وفي جعبتهم شيءٌ من الأسطورة التي زوَّدهم بها ناتان، ثم همُّوا بصعود الجبل متوغِّلين بالغابة الكبيرة، ليفيدهم ناتان بأنَّ صندوق أرض إسرائيل وسكَّان الكيبوتس الأوائل هم من زرعوا الجزء الأكبر من هذه الغابة بعد «حرب

الاستقلال»، لكي يتمتَّع أبناء إسرائيل العتيدين بفيافيها وخضرتها بالمستقبل الذي أضحى واقعًا. سألته فيه نيكول البلجيكيَّة وهي تتَّكئ على جذع صنوبرة ضخمة:

ـ ماذا عن هذه الحجارة، سيِّد ناتان.. إنَّها تُشبه بقايا بيوت، أليس كذلك؟

كاد نور أن يعانقها هاتفًا بامتنانه لها على هذا السؤال الذي أصاب ادِّعاءات ناتان في مقتل، إلَّا أنَّ هذا الأخير ما لبث أن طرد مباغتتها له مجيبًا بثقة:

ـ هذه آثار قديمة يا عزيزتي.. هل نسيت أنَّك على أرض التوراة والعهد القديم؟

قذفته من جديد بتساؤلٍ آخر وقد اعترتها جدِّيَّةٌ صارمة:

ـ وهل نسيت أنت أنَّني خبيرة آثاريَّة، وأستطيع معرفة إذا ما كانت هذه الحجارة توراتيَّة أم أنقاض قرية عربيَّة مهجَّرة في حرب استقلالكم.. مع أنَّ سماء كانت قد أكَّدت لي ذلك؟

سعى نور بإخفاء مشاعره بكلِّ ما أوتي من تجهُّم أور المتضامن مع استنكار ناتان:

ـ كلَّا.. نحن لم نهجِّر أحدًا.. هناك بعض السكَّان الأصليِّين فرُّوا في ذروة المعارك ولم يعودوا.. وما قالته سماء لا يُعبِّر بالضرورة عن حقيقة ما جرى هنا.

تدخَّل أور بالعبريَّة ليجنِّب المجموعة حوارًا بدا أنَّه يُبشِّر بالتوتُّر ما بين نيكول وناتان موجِّهًا حديثه لهذا الأخير بالعبريَّة:

ـ دعك من ترَّهات سماء الآن يا ناتان.. وهيَّا بنا نعود إلى

مقرِّ البعثة، فالمساء على وشك الحلول.. وثمَّة ذئابٌ في هذه الغابة، أنسيت هذا؟

أجابه ناتان بالموافقة وهو يسعى بكظم غيظه من إفساد نيكول لخطبته الصهيونيَّة العصماء بتساؤلاتٍ معبَّأة بأنفاس سماء الحيفاويَّة، نيكول التي تأبَّطت ذراع إيميلي أثناء العودة مؤكِّدةً لها أنَّها لم تقتنع بإجابة ناتان قائلةً بتذمُّرٍ هامس:

ـ ثمَّة فرق هائل ما بين الهجرة هربًا وبين التهجير قسرًا.

[مساء السبت ـ 8 أيَّار:

«ثم سكب الملاك السادس جَامَه على النهر الكبير الفرات، فنشف ماؤه لكي يُعدّ طريق الملوك الذي من مشرق الشمس. ورأيت من فم التنِّين، ومن فم الوحش، ومن فم النبيّ الكذَّاب، ثلاثة أرواح نجسة شبه ضفادع، فإنَّهم أرواح شياطين صانعة آيات، تخرج على ملوك العالم وكلّ المسكونة، لتجمعهم لقتال ذلك اليوم العظيم، يوم الله القادر على كلِّ شيء. «ها أنا آتي كلصٍّ! طوبى لمن يسهر ويحفظ ثيابه لئلَّا يمشي عريانًا فيروا عُريته». فجمعهم إلى الموضع الذي يُدعى بالعبرانيَّة «هرمجدون»».

(رؤيا يوحنَّا اللاهوتي 16: 16 ـ 12)

يا لهوْل هذه الرؤيا التي يعجز أبرع المخرجين السينمائيِّين عن إخراجها فيلمًا! لا.. لا.. هذا حكم متسرِّع من قِبلي، فقد يستطيع جيمس كامرون أو بالأحرى بيتر جاكسون الذي أخرج

سلسلة الأفلام الشهيرة «*lord of the rings*» من إحالة الرؤية فيلمًا مشوِّقًا ومرعبًا.

ملاحظة:

عزيزي مراد..

لن يكفيك اعتذاري ممَّا اقترفته أنا اليوم، أعلم.. أعلم.. من حقِّك أن تنتزع قلبي الآن لتغسله وتنزع منه علقةً خبيثةً امتصَّت دمي، وأحالتني إلى مترجم صهيونيّ فصيح اللسان.. من حقِّك أن تُقيم طقسًا الآن لطرد شياطيني، شياطين مريم المجدليَّة التي يبدو أنَّها قد مسَّتني.

غير أنَّ ما خفَّف عنِّي مرارة الترجمة هو سؤال نيكول المشحوذ بأحاديث سماء لها عن النكبة، الذي شكَّل ضربةً قاضيةً لمساعي ناتان نحو تزوير التاريخ وإحالة المستوطنة إلى كيبوتس، والمستنقع إلى جنَّة، والكهف إلى فضاء، والمقبرة إلى غابة، والقبور إلى حجارة، وأصداء عويل معلَّق على أغصان الأشجار إلى هتافات نصرٍ مؤزَّر.

أثناء تجوُّلنا بالغابة، يا مراد، اقشعرَّ بدني من أجواء حفيفها المفعمة برائحة الصنوبر التي اشتمَّها أور.. أمَّا أنا، فقد استنشقت رائحة الموت عندما لمحتْ نيكول آثار قرية أبو شوشة المهجَّرة.. ما دعاني لتذكُّر حديثٍ لأحد الأدباء الصهاينة، روائيّ يُدعى أ.ب. يهوشع في ندوةٍ حول خطابه الروائيّ الإشكاليّ بحسب رأيه. لا تستغرب يا مراد.. نعم.. لقد حضرت تلك الندوة التي عقدها أحد المراكز الثقافيَّة غرب القدس. لقد كنت

حاضرًا بصفتي أور شابيرا، ولكنْ ليس على هذا الوجه الجليّ الذي أنتحله الآن. حسنًا.. لن أُطيل عليك كثيرًا.. إذ عندما كنتُ أتجوَّل في ظلال الأشجار الباسقة، تذكَّرتُ ما قاله ذلك الروائيّ حين علَّق على النقد الذي تعرَّض له إثر رواية كان قد كتبها حول الغابات التي زُرعت لإخفاء آثار القرى العربيَّة المهجَّرة إبَّان نكبة 1948 وأنقاضها؛ حيث قام يهوشع بقطع لسان بطله الفلسطينيّ بالرواية، الذي كان يسكن في إحدى تلك الغابات لكي يعجز عن الإفصاح عمَّا تحتويه الغابة تحت طيَّاتها الخضراء، أذكر أنَّ يهوشع قال: «لو أنَّني منحته لسانًا لأفصح عن خفايا الغابة، ولما قام بحرقها لتظهر القرية المهجَّرة، أنا لم أشأ له الكلام بل الفعل عبر إحراق الغابة».

صراحةً يا مراد، كنت سأسأله: ولماذا لم تتناول عمليَّة تهجير القرية بالرواية؟ ولماذا لم تعالج التطهير العرقيّ روائيًّا؟

لأكتشف أنَّ تساؤلاتي محقَّة حين أسألها لروائيٍّ يعلِّق على التاريخ من موقعه الثقافيّ الصهيونيّ بصوتٍ مُتخيَّلٍ مُحمَّلٍ بالحقائق.

على أيَّة حال، لم أكن لأحرق الغابة في تلك اللحظات التي كنتُ أتجوَّل فيها مترجمًا وسائحًا.. إنَّما كنت أودّ لو أحرقت نفسي وقناعي، لعلِّي أنبعث من بين الرماد كسماء.. سماء إسماعيل يا صديقي].

تسلَّل مُتَّشحًا بديجور ليلٍ دامسٍ، في ثنايا الدغل الكثيف،

مقتفيًا أثره عندما زار أطلال قرية اللجُّون المهجَّرة، بصفته أور شابيرا. أمَّا الآن، فهو نور، نور شهديّ بأكمله؛ إذ نجح باختراق أسوار مستوطنة مجدو قاصدًا ناحيتها الشرقيَّة الجنوبيَّة التي تحتضن مشتهاه وخياله المتجلِّي بئرًا حقيقيَّة.

وقف بجانب البئر، لا قمر في قعرها، ولا قمر في سمائها، تأكَّد من سكون الليل وخلوّه من انقضاضٍ مفاجئٍ على شغفه المجدليّ، ثم أخرج من حقيبة معدَّاته حبلًا متينًا عقد طرفه حول صخرةٍ بجانب البئر، جذب الحبل متأكِّدًا من ثباته ومتانته، تنهَّد بإثارة مُستجمعًا أنفاسه، ثم نزل إلى قعر البئر مستندًا بقدميْه على جدارها الأسطوانيّ. لم تكن بالغة العمق، وهذا ما أدهشه! عندما وطأت قدماه قعرها الذي تجمَّعت فيه كمِّيَّةٌ قليلة من المياه الآسنة، أخرج مصباحًا ضوئيًّا وإزميلًا رفيعًا من حقيبته ليتفقَّد جدار البئر.

حكَّ الجدار بالإزميل بتمرُّسٍ وحذرٍ، متوخِّيًا سماع صوتٍ يشي بفراغ، فلم يعثر. وقبل أن ينال منه الإحباط، ركع على ركبتيْه مُعيدًا الكرَّة بشكل أشدّ هذه المرَّة إلى أن سمع الصوت الذي يتمنَّاه، صوتًا مختلفًا، صوت فراغ وراء جزء من الجدار قبالته تمامًا. شدَّ من عزيمة الاحتكاك. كان يبحث عن حافَّة أو زاوية بعد أن تأكَّد من أنَّ ثمَّة كُوَّةً تخفي ما وراءها من فراغ، ثم انغرز الإزميل حتى وسطه في الجدار، كاد يصرخ من شدَّة التأثُّر، همَّ بتوسيع الحافَّة إلى أن ظهرت حدود الكوَّة المربَّعة الشكل بمساحةٍ لا تتجاوز الستِّين سنتيمترًا مربَّعًا. تلاحقت أنفاسه، كان يلهث؛ إذ نجح في خلخلة غطاء الكوَّة. وضع طرف المصباح

بفمه ليستعين بخنجره وإزميله معًا بكلتا يديْه، من أجل انتزاع الكوَّة، وبعد لحظات من الجهد الحثيث نجح بذلك.

وقف منتفضًا من هول المفاجأة لاهثًا بشدَّة، ثم تمالك نفسه منجذبًا وراء تسرُّب المياه نحو الفراغ في أعماق الكوَّة، زحف بثباتٍ وثقةٍ لعدَّة أمتار داخل دهليزٍ مظلمٍ ضيِّقٍ أفضى به إلى فراغٍ آخر رحب، كان كنايةً عن ممرٍّ طويلٍ رفيعٍ سمح له بالوقوف منتصبًا، سار ببطء ثم توقَّف بغتةً بعد أن لمح في آخر الممرّ بابًا علته مشاعلُ سبعةٌ متوهِّجة، فأطفأ مصباحه ليتأكَّد من حقيقة النور المنبعث منها، ثم تقدَّم بإثارة لتصل إلى مسامعه أصداءُ همسٍ مُشبَّعٍ بالترانيم صادرةً من وراء الباب. خفق قلبه بشدَّة، دبّ الرعب بأوصاله، متجمِّدًا في مكانه، ثم ما لبث أن تقدَّم ببطء مُطلًّا برأسه نحو غرفةٍ كبيرةٍ مُقبَّبةٍ مليئةٍ بالقناديل المُشعَّة في فضائها الذي تعبق فيه رائحة عطر زكيَّة، عطر النارديين. يتوسَّطها حشدٌ متحلِّق حول هيئةٍ آدميَّةٍ مُجلَّلةٍ بثوبٍ حريريٍّ أبيض فضفاضٍ زادته سحرًا الضفائر السوداء الحريريَّة المنسدلة على كتفيْ ووجه صاحب الهيئة. كان ثمَّة صوتٌ أنثويّ رقيق ينبعث منها، يُرنِّم بهمس ترنيمةً لم يدركها نور. حذَّرته رائحة العطر وإيقاع الحلقة المكوَّنة من عشر زردات، قدَّر هو أنَّهم مريدو هذه الهيئة المتربِّعة ومريداتها في مركز الحلقة.

دقَّق بها مليًّا إلى أن رفعت رأسها فجأةً نحوه، ثم جمعت ضفائرها وراء ظهرها، لتحدِّق به بوجهٍ يعرفه نور الشهديّ جيِّدًا. دبَّت الرجفة بأوصاله، حدَّقت به، كانت تشبه سماء إسماعيل، ثم فغرت فاها على سعته لينبعث من جوفها نورٌ أبيض ساطعٌ تدفَّق

نحوه، ودفعه، مطيحًا به عن أجواء الحلقة والممرّ والدهليز والكوَّة وقعر البئر ملقيًا به خارج اللحظة المشرقة، ليتشبَّث بصرخته الأخيرة، صرخة الانبعاث من رقاده.

* * *

كان خائر القوى إثر يوم عملٍ شاقّ، لم ينعم به بالراحة. كان جالسًا بجانب أيالا في الحافلة التي شارفت على الوصول إلى مستوطنة مشمار هعيمق وهي تقلّ أعضاء البعثة العائدين من موقع الحفريَّة.

منذ أوَّل أمس وهو حائر، على أتمِّ الشرود والهيام والنزق أحيانًا؛ لأنَّه لم ينعم بقسطٍ وافرٍ من النوم بعد عودته من حلم ما زال نوره يتدفَّق منه حتى هذه اللحظة، ممَّا أثار حفيظة أور الذي همس قائلًا:

ـ ما بك؟!.. منذ ليلة أمس الأوَّل وأنت لا تُطاق.. أين كنت؟ أجبني.

ـ كنت بالحلم.. عندما أحلم أكون وحدي، ولا تكون أنت معي.

ـ وبماذا حلمت؟

ـ بكلِّ ما أشتهيه.

أعادته أيالا من حواره السرِّيّ مع أور ساعيةً بإنعاشٍ مستمرّ لمزاجه المتعكِّر منذ الصباح:

ـ ثمَّة مظاهرة ضخمة ستجري إقامتها في أورشليم غدًا.. وستُرفع بها أعلام إسرائيل؛ لكي نثبِّت للعرب أنَّ أورشليم لنا

وجبل الهيكل بأيدينا.

أجابها بكسل ولامبالاة:

ـ إنَّ الأوضاع متوتِّرة هناك.. وهذه التظاهرة ستزيدها تفاقمًا.

ـ ما الذي تقوله يا أور؟! يجب أن يُدرك العرب أنَّ أورشليم قاطبةً خاضعة للسيادة الإسرائيليَّة. إنَّ قولك هذا سيجعلهم يطمعون أكثر، معتقدين أنَّهم أصحاب الحقّ والسيادة.

عقَّب قائلًا وهو يهمّ بالنزول من الحافلة بعد وصولها إلى مقرِّ البعثة:

ـ أتمنَّى أن تنتهي مظاهرة سيادتنا اليهوديَّة على خير.

ردَّت عليه بتأفُّفٍ أثناء لحاقها به متوجِّهين إلى قاعة الطعام برفقة أعضاء البعثة:

ـ هل تعلم أنَّك لا تُطاق عندما تكون متعبًا؟

ـ أعلم.. أعلم.

ثم ابتعد عنها مختلسًا النظر إلى سماء أثناء ذهابها إلى حجرتها الواقعة في الطابق الثاني لمقرِّ البعثة، لكي تنال قسطًا من الراحة؛ فهي ما زالت صائمة في وقت مبارك هجره هو منذ زمن. كانت هي، أجل. ثمَّة نور ما زال يشعّ منها إثر حلمٍ بها، ما زال يسري في شرايين شغفه المجدليّ.

مرَّت من أمامه، على مقربةٍ منه، بل عبرته كموجةٍ ناعمةٍ لطيفةٍ مفعمةٍ بسكينتها وسلامها الداخليَّيْن.

أمَّا في قاعة الطعام، فقد فضَّل الجلوس إلى جانب نيكول وإيميلي، متجنِّبًا نقمة أيالا وتعليقاتها الجارحة بحقِّ أصل سماء ونور معًا.

تناول برفقتهما الطعام الذي تخلَّله الحديث عن أهمِّ ما أُنجز اليوم في موقع الحفريَّة، حيث تمَّ اكتشاف معالم الطريق الرئيسيَّة للمعسكر، إضافة إلى قنوات تصريف المياه وبعض العتاد الحربيّ الرومانيّ المتمثِّل بالخوذ والدروع والرماح، ما أضفى البهجة على أجواء البعثة، في الوقت الذي كان يُفترض فيه سماع قهقهات كلٍّ من بريان وبيتر وديڤيد المشرفين على مشروع البعثة بهذا الإنجاز؛ إذ كانوا على النقيض، ممتعضين مُتجهِّمين، ليعتقد نور جازمًا هذه المرَّة أنَّ تجهُّمهم نابعٌ من فشلهم الذريع بالعثور على شيءٍ معيَّن نحو أعماق الموقع الأثريّ. وكان نور قد حسم اعتقاده حين اقترب منهم أثناء حوارهم الهامس بجانب العريش، مدَّعيًا الانشغال بترتيب قطع الفخَّار داخل الصناديق، حيث سمع بريان يهمس بسخط:

ـ اللعنة.. يبدو أنَّنا نبحث في الموقع الخطأ.

وما إن همَّ بالاسترسال بهمسه لزميليْه حتى انتبه لوجود أور المدَّعي بانشغاله بقطع الفخَّار، فأشار لديڤيد وبيتر بالابتعاد عن العريش نحو ركنٍ أقصى يعجز عنه نور وعيناه وأذناه.

أنهى طعامه مودِّعًا إيميلي ونيكول، ومضى إلى حُجرته للاغتسال وأخذ قسط من الراحة. هذه الراحة التي تأبى الحلول عليه منذ حلوله هنا قناعًا ومرايا، فلا يجد مفرًّا بعد يأسه منها

سوى بتسجيل بطاقةٍ صوتيَّةٍ جديدة قد تسعفه بالتخفيف من حدَّة جزعه وإرهاقه:

[عصريَّة الاثنين ـ 10 أيَّار:

صديقي مراد..

أجد نفسي عاجزًا عن مواكبة ما أحفل به من أحداث مجدليَّة في هذا الركن الشقيّ من أركان وطننا المنكوب.. لا أعلم ما الذي يحدث لي! أشعر أنَّني مستنزف تمامًا، خاصَّةً بعد الحلم أو الرؤيا التي راودتني قبل يوميْن في منامي.. كم كانت حقيقيَّة وملموسة يا صديقي!

يا إلٰهي كم كانت نورانيَّة!

وهذا ما يقلقني! أقصد أنَّني ما دمتُ على هذه الدرجة الرفيعة من دقَّة التخيُّل الملامس للحقيقة، فما الذي أفعله هنا؟ لماذا أنا هنا؟ أَمَا آن لي الانسحاب والتراجع عن مسعاي وقناعي هذا؟!]

* * *

بعد انتهائهم من تصنيف اللقى الآثاريَّة وتنظيفها في مختبر البعثة، توجَّهوا إلى قاعة المؤتمرات للمشاركة في محاضرة بعنوان:

«إشكاليَّة اسطبلات سليمان»، والتي سيُلقيها ديڤيد آدامز.

بعد أن جلسوا مُهيّئين أنفسهم، صعد بريان نحو المنصَّة ليعلن للملأ أنَّ ثمَّة ضيوفًا مميَّزين من سكَّان الكيبوتس تمَّت دعوتهم لحضور المحاضرة، مشيرًا بذراعيْه نحو الصفِّ الأمامي مرحِّبًا بهم.

كانوا ثلاثة رجال وامرأتيْن من الناجين من أهوال المحرقة النازيَّة ـ الهولوكوست. عرَّف بريان الحضور بأسماء الضيوف بصوتٍ متضامنٍ ورع، كانوا طاعنين بالسنِّ والذاكرة الموشومة بأرقام الموت المتسلسلة على أذرعهم، التي وُشموا بها في معسكرات الإبادة في أوشفيتر وداخاو وبيركناو وغيرها.

افتتح ديڤيد محاضرته مُرحِّبًا، بدوره، بالضيوف المميَّزين، ثم شرع باستعراض الآراء المؤيِّدة لتاريخيَّة الإسطبلات التي اكتُشفت في تلّ مجدو قبل عدَّة سنوات، التي أشارت الأبحاث الأثريَّة أنَّها تعود إلى العصر الحديديّ الأوَّل الزاخر بالعهد الذهبيّ للملك سليمان في مطالع القرن العاشر قبل الميلاد، وبالتالي فإنَّ الإسطبلات سليمانيَّة، وتثبت، في الوقت نفسه، حقيقة الوجود التاريخيّ للملك سليمان؛ ثم استعرض من جهةٍ أخرى الآراء المعارضة التي لا تنفي نسبة الإسطبلات لسليمان فحسب، بل وجوده التاريخيّ أيضًا.

لم تطل المحاضرة كثيرًا ليعلن ديڤيد في خاتمتها عدم تفضيله حسم هذه الإشكاليَّة، تاركًا هذا الشأن للأبحاث التاريخيَّة الآثاريَّة المختصَّة بتلك الحقبة التاريخيَّة الغامضة.

بعد انتهاء المحاضرة وانفضاض الحضور كلٌّ إلى شأنه الخاصّ، ظلَّ حشدٌ صغير متحلِّق حول الناجين الخمسة من المحرقة النازيَّة، ليصغوا بكلِّ خشوع وتضامن لشهادة الموت التي يحتفظ بها هؤلاء الناجون. في الوقت الذي لم ينضمّ نور إليهم منشغلًا بتبادلِ رسائلَ قصيرة مع الشيخ مرسي ليطمئنّ من

خلالها عليه، خاصَّة في ظلِّ هذه الأوقات العصيبة التي تمرُّ بها القدس.

ما إن انتهى من تبادل الرسائل حتى لفتته سماء بحضورها المؤثِّر في الحلقة، وهي تستمع بتضامنٍ صادقٍ لقصص الناجين، متسائلًا، نور الشهديّ، لأوَّل مرَّةٍ في حياته في سرِّه: ما هو موقفي من المحرقة؟

لينبعث أور فجأةً متسائلًا بهمس:

ـ ماذا قلت؟!

ـ ما هو موقفي من المحرقة؟

ـ وهل الموقف من المحرقة بحاجة إلى تساؤل؟!

ـ أجل.

ـ لماذا؟

ـ لأنَّني محروق أنا أيضًا.

ـ إيَّاك أن تقارن مأساتك بمأساتنا. هل تفهم؟

عاد من مناوشة أور له على مرافقة بعض أعضاء البعثة والتأثُّر يسكنهم تجاه الضيوف الخمسة إلى مخرج مقرّ البعثة ليعودوا إلى بيوتهم بالمستوطنة، ولتحلّ محلّ الحلقة التضامنيَّة جولةُ جدالٍ مشبَّعة بشتائم كالتها أيالا لسماء قبل موعد العشاء بقليل، بجانب مدخل قاعة الطعام، حيث تجمَّع بعض الأعضاء حولهما مستغربين من هذا الجدال الخائبّ اللغة، والذي لم يدركوا منه سوى التوتُّر والعصبيَّة المتبادليْن ما بين سماء وأيالا، فاندفع أور نحو هذه

الجلبة دون أن يقوى على فضّ النزاع ما بينهما:

ـ أيّتها الحاقدة.. كيف تتّهمين إسرائيل بممارسة هولوكوست بحقّكم! لقد سمعتك وأنت تفترين علينا أمام هؤلاء الأجانب.

أجابتها سماء بسخط:

ـ أليس التطهير العرقيّ الذي اقترفتموه بحقّنا هو الهولولكوست؟

دنت أيالا منها قائلةً بعصبيَّة:

ـ بدلًا من أن تتضامني مع هؤلاء الناجين والضحايا، ها أنتِ تتّهمينهم بارتكاب هولوكوست بحقّكم؟!

ـ بل أنا متضامنة مع ضحايا النازيَّة وحسب، رؤيتي الخاصَّة بي، وليس بحسب رؤيتكم الصهيونيَّة.

ـ وما هي رؤيتك، أيَّتها الحاقدة؟

ـ بل أنت الحاقدة.. أنتِ من أعماكِ حقدك عن رؤية الحقائق.

ـ أيَّة حقائق؟! لا يوجد سوى حقيقة يجب أن تعترفي بها وهي دولة إسرائيل، شئتِ أم أبيتِ.

ـ خسئتِ.. فما دمتُ أنا هنا صامدة فهذه حقيقة.

همَّت أيالا هائجةً بالانقضاض على سماء، فجذبها ديڤيد بلطفٍ من يدها، لكي يُنهي هذا الجدال العبريّ الصاخب الذي لم يفقه منه سوى كلمة هولوكوست المرعبة، فيما وقف أور مكتوف اليدين، لا يلوي على شيء، فنور كان يريد الوقوف بجانب سماء

أمَّا أور فإلى جانب أيالا، ممَّا أدَّى إلى تخبُّطه وصمته.

انفضَّ الحشد الصغير بانسحاب سماء السريع والغاضب من القاعة إلى خارج المبنى، فهرع نور وراءها أثناء مواساة ديڤيد لأيالا بسيجارةٍ أفرغت بها حمم غضبها.

خرج نور بلا تردُّد هذه المرَّة، ليلمحها وقد وقفت بجانب شجرة سرو وارفة محاذيةٍ للمبنى، كان المساء قد خيَّم بعتمته الشفَّافة التي انسجمت مع خلوِّ طرقات الكيبوتس وساحاته من المارَّة. سار نحوها، لم تنتبه هي لاقترابه؛ إذ كانت تحدِّق نحو الجبل مديرةً ظهرها لمقرِّ البعثة ودنوِّ نور منها، كانت تجهش بخفوتٍ مرير، ثم انتبهت لوقع خطاه، فالتفتت بجفول إليه. كفكفت دمعها على عجل وسط تفاجئها من حلوله عليها. قالت له بالعبريَّة: بلهجةٍ حادَّةٍ مكسوَّةٍ بصوتها المبحوح:

ـ ماذا تريد أنت أيضًا؟ هل جئت لتتَّهمني بالحقد ومعاداة الساميَّة؟

وقف على بعد خطوتيْن منها. كان يلهث، يرتجف. همهم للحظات متلعثمًا بكلماتٍ غامضة، ثم قال بكلِّ ما أوتي من لغته العربيَّة:

ـ سماء أنا لست يهوديّ.. أنا عربيٌّ مثلك.

انتفضت مرتدَّةً إلى الوراء ملتصقةً بجذع الشجرة من شدَّة هذا الاعتراف العربيّ الصريح والمباغت، ثم تلعثمت متسائلةً بالعبريَّة:

ـ ماذا؟! هل تريد أن تلعب معي إحدى ألاعيبكم القذرة؟

أجابها بصوتٍ مجروح، متوسِّلًا، مُصرًّا على حقِّه بالعربيَّة:

ـ كلّا.. أرجوكِ.. صدِّقيني. أنا عربيٌّ فلسطينيٌّ لاجئ، وأسكن مخيَّمًا في رام الله.. أصلي من اللدّ.

صرخت بوجهه بالعبريَّة من جديد:

ـ توقَّف.. لا تقترب منِّي. هل جُننت؟ ما الذي تهذي به؟ أين تعلَّمت العربيَّة؟ هل أنت ضابط شاباك؟[1]

همس قائلًا على وشك الانهيار:

ـ كلّا.. أرجوك خاطبيني بالعربيَّة. أنا اسمي نور. نور مهدي الشهديّ، ولست أور شابيرا.

حدَّقت به للحظات وهي تسعى بلملمة نفسها، ثم قالت بعربيَّةٍ حذرة:

ـ وكيف هذا؟ كلّ شيء فيك يؤكِّد على يهوديَّتك الأشكنازيَّة.. هل تعتقد أنَّني غبيَّة لأصدِّقك. أنا أعرف تمامًا أنَّ عناصر الشاباك يتقنون العربيَّة.

ـ وما هي حاجة الشاباك بهذه البعثة وآثارها؟

ـ فما هي حاجتك أنت؟

ـ أنا أكتب رواية تاريخيَّة عن مريم المجدليَّة.. وبيئة الرواية هنا في هذا السهل وقرية اللجُّون المهجَّرة. ولا يمكنني الوصول إلى هنا بحرِّيَّة مستخدمًا هويَّتي الفلسطينيَّة، فانتحلتُ هويَّة صهيونيَّة.

ـ أيّ حجَّة واهية هذه؟ فلسطينيّ لاجئ مشغول برواية عن المجدليَّة؟

---

(1) الشاباك: جهاز الأمن العامّ الاستخباريّ الصهيونيّ.

ـ صدِّقيني.. بإمكاني أن أثبت لك هويَّتي الحقيقيَّة. أور شابيرا مجرَّد قناع، مثل هويَّتك الزرقاء التي تحملينها.

اقتربت منه بتحدٍّ قائلةً بصرامةٍ عربيَّة للغاية:

ـ أيُّها المغفل، أنا أنتظر عمرًا بأكمله من أجل الخلاص من هذه الهويَّة.. وأمَّا أنت، فقد خسرت عمرك كلّه لترتدي هذا القناع! هذه الهويَّة التي نكبتني.

ثم همَّت بالعودة إلى حجرتها، فوقف في وجهها، فصرخت به بالعبريَّة:

ـ ابتعد عن طريقي.. فأنت إمَّا مجنون أو مُطبِّع خائن، أو ضابط شاباك.. فاختر لنفسك القناع الذي تشتهيه منهم.. هيَّا ابتعد.

ابتعد عن طريقها ووجهها وثورتها في وجهه باستسلامٍ وانكسارٍ تامَّيْن. نكس رأسه، ثم التفت متقدِّمًا نحو جذع شجرة السرو ليعانقه باكيًا بحسرة.

* * *

[ليلة الإثنين ـ 10 أيَّار:

لست خائنًا ولا مطبّعًا ولا ضابط شاباك.. ربَّما أكون مجنونًا تائهًا ملتبسًا! هكذا كنتُ سأُجيبها يا مراد.. كدت أقول لها أنا اسمي نور. اسألي عنِّي صديقي مراد.. الشيخ مرسي.. أزقَّة المخيَّم.. صمت أبي.. جدَّتي سميَّة.. قبر أمِّي.. اسألي مريم المجدليَّة.. ولكنَّها انسحبت من أمامي، هي التي انقلبت من وردةٍ يانعة إلى ثورةٍ عارمة، بعد أن باغتُّها باسمي وأصلي.. إذ

لم أعد قادرًا على الوقوف، عاجزًا أمام تعرُّضها للإهانة والتقريع من قبل أيالا.. فهكذا مرَّةً واحدة انتزعت قناعي لأُعلمها بأسرار حكايتي، ولكنَّها أنكرتني وقبَّحتني ولعنتني.. معها حقّ، أليس كذلك يا مراد.. معها حقّ. لهذا أنا أشعر بالراحة الآن بعد اعترافي هذا. فأنا في الرمق الأخير من قناعي هذا. قد تسألني أنت الآن: وماذا بعد؟ ما الخطوة القادمة؟ كيف ستواجهها غدًا؟ هل سأرتدي قناعي غدًا بالموقع الآثاريّ؟ هل سأقترب منها أمام الملأ الصهيونيّ والأجنبيّ معلنًا عن عربيَّتي ولجوئي؟

لا أعلم.. جُلَّ ما أعلمه الآن هو أنَّني أستمدّ منها الحضور والجرأة والأمل والثبات. خاصَّةً ثباتها في مقارعة أيالا حول أقدس المسلَّمات الصهيونيَّة الهولوكوست. يا مراد.. فقد امتلكت سماء الجرأة بالقول إنَّها متضامنة مع ضحايا المحرقة، ولكن ضمن رؤية إنسانيَّة لا صهيونيَّة.. بلى. لقد أدركتُ أنا ما الذي تقصده. إذ هي ضدَّ صهينة الهولوكوست وإحالتها إلى منظومة أخلاقيَّة تحمي وتشرِّع التطهير العرقيّ الذي مورس بحقِّنا في نكبة 1948.. كنتُ أودّ في تلك اللحظة التضامنيَّة لو هتفت بالحشد المتحلِّق حول الناجين الخمسة من المحرقة، لأقول: ما الفرق يا سيِّداتي وسادتي ما بين الأرقام الموشومة على أذرعكم والوشم الذي وشمته سماء على ذراعها:

حيفا 1948؟

إنَّ الفرق هو وجوديٌّ وشَرْطيٌّ مفاده أنَّه لو لم تقع المحرقة

لما وشمت سماء ذراعها بهذا الوشم. كانت لتوشم فراشةً أو زهرةً أو موجة. كنتُ سأسأل صارخًا:

ما الفرق ما بين غرف الغاز في معسكرات الإبادة النازيَّة وبين إشارة المرور الضوئيَّة؟

ليس ثمَّة فرقٌ على الإطلاق، فالدقَّة الخاصَّة بالإختراعيْن وُلدت من رحم واحدة، هو الحداثة، أليس كذلك يا مراد؟ هذا ما قرأته أنا على الأقلِّ في أحد كتبك.. أعتقد أنَّه «الحداثة والهولوكوست» لسيجمونت باومن، أليس كذلك؟

حين أسررت لها أسباب وجودي المجدليَّة هنا، هزأتْ منها كما تهزأ أنت دومًا.. فلسطينيٌّ يهرب من الأزقَّة، والمخيَّم، والاحتلال، والالتباسات؛ ليكتب رواية يردُّ بها على دان براون صاحب رواية شيفرة دافنشي.. أيّ هراء هذا؟! أيّ تفاهة متقوقعة هذه؟!

لأكتشف الآن أكثر من أيِّ وقت مضى أنَّ سماء إسماعيل هي مريم المجدليَّة النورانيَّة، وأمَّا أنا.. فأنا لست بيسوع المخلِّص. قد أكون يهوذا الأسخريوطي..

لا تشتمني الآن.. أرجوك. أجل، يهوذا الأسخريوطي الذي لولاه لما صار يسوع فاديًا مخلِّصًا.]

* * *

في اليوم التالي، لم يكن النهار يستمدّ سطوعه من شمس الظهيرة، بل من عريِّه هو في موقع الحفريَّة.

هكذا، كان يشعر أثناء انغماسه المبالغ به في مربَّع الحفريَّة

الخاصّ بمجموعته، ساعيًا نحو طمر عُريّه بتراب التاريخ البائد، هاربًا من التطلُّع نحو سماء التي كانت بدورها ترمقه ما بين الفينة والأخرى بنظراتٍ حارقة مُشبَّعة بالدهشة والحيْرة ممَّا أحاطها به ليلة أمس. كانت بعيدةً عنه أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، بعيدةً هي السماء عن نور الذي بلغ الدرك الأسفل من حفرة الهويَّة، هويَّة الآخر، التي يحاول الآن عبر اعترافه الأخير أمام سماء انتزاع نفسه منها.

كان على الرَّغم من طاقته الهائلة في الحفر، وتنظيف مقاطع التربة الأثريَّة، وإبرازها، شاحبًا، زائغ العينيْن، حيث لاحظ أعضاء مجموعته هذا الجهد الزائد، مطالبين منه، أكثر من مرَّةٍ، أخذ قسط من الراحة، فما زال أمامهم وافر الوقت لاستخلاص خبايا هذه الحفريَّة واستخراجها.

وحدها أيالا من جَرأت على الاقتراب منه أثناء الاستراحة الثانية، لتطمئنَّ عليه، مستغربةً من انهماكه الزائد عن حدِّه بالعمل:

ـ ما بك مقبل على العمل بهذه الوتيرة العالية، وكأنَّك على وشك العثور على كنز؟

أجابها مدَّعيًا ابتسامةً منعشة:

ـ معكِ حقّ.. أنا على وشك العثور على كنز.

ـ أرجو أن تشركني به إذن.

ـ طبعًا.. طبعًا.

كان يُدرك في قرارة نفسه أنَّها ستنتابه الآن منقلبةً من حال

الوديعة الهادئة إلى حال الهائجة، لتسأله بحدَّة: لماذا لم يقف بجانبها بالأمس في خضمِّ جدالها مع سماء؟ وأين اختفى في أشدِّ أوقاتها حاجةً إليه؟ فلم تخيِّب ظنّه مجيبًا برزانة أشكنازيَّة:

ـ لقد سئمت يا أيالا من هذه المناكفات التي لا تنتهي بينكما.. كما أنَّكِ لست بحاجةٍ إلى محامي دفاع.. فأنتِ قادرةٌ على الذود عن نفسك. أليس كذلك؟

ـ ولكنَّني كنت بحاجةٍ إليك لكي تُترجم مثبِّتًا لهؤلاء الأجانب أنَّها معادية للساميَّة، وترفض التخلِّي عن أوهامها، وماضي الحروب والنزاعات.

قطع عليهما معاتبتهما العبريَّة صوت بريان الهاتف من بعيد:

ـ عثرنا على مقرّ قائد المعسكر.. هلمُّوا لتلقوا نظرة.

فكان هذا الهتاف السعيد كفيلًا بتخلُّصه من عتاب أيالا ومحاصرتها له بالتضامن الأخويّ الصهيونيّ، متوجِّهًا نحو الحفرة الوسيعة التي يقف فيها بريان برفقة عددٍ من أعضاء البعثة الذين كانوا يتأمَّلون في قنطرة حجريَّة مهدَّمة يتوسَّطها رأس تمثال لكبش مُجنَّح يُعدّ من أهمِّ الرموز الوثنيَّة الرومانيَّة، ولم تكن سماء لتشذّ عنهم في وقوفها وتأمُّلها العلميّ الأثريّ لهذا الاكتشاف المهمّ، غير أنَّها ما لبثت أن رفعت رأسها ملتفتةً إلى ضفَّة الحفرة حيث يقف نور، الذي ارتدَّ إلى الوراء ليتوارى عن الأنظار.. خاصَّةً نظراتها الحادَّة.

[عصريَّة الثلاثاء ـ 11 أيَّار:

عزيزي مراد..

أظلمت آفاق روايتي المجدليَّة، وحلَّت محلَّها تجلِّيات سماء.

تعيس أنا الآن! أطلال مهجورة.

بالمناسبة يا مراد، هل قلت لك يومًا ما هو مقابل كلمة قناع بالعبريَّة؟

إنَّها تُشبه في لفظها ومعناها الرديف بالإنجليزيَّة ماسك *Mask* وتُلفظ بالعبريَّة مسخا؛ فإذا قمنا برشٍّ قليل من العربيَّة عليها، فستُلفظ مَسِخ، والمسخ بالعربيَّة تعني المشوَّه الملامح.. مسخ ومسيخة فهو ممسوخ مسخًا.. وأنا لا أرتدي قناعًا، أنا أرتدي مسخًا.. بل أنا هو المسخ الذي وُلد من رحم النكبة، والأزقَّة والحيْرة والغربة، والصمت: صمت أبي وموت أمِّي، ومطاردتي في أزقَّة المخيَّم بلقب السكناجي.. ولدتُ من رحم التهميش والتصنيف وسجنك أنت يا مراد.. ولدتُ من مرآة أور شابيرا، ومن شركة شكيب القصّابي للسياحة والسفر.. أنا المسخ، يا صديقي، فهل من رحمٍ تلدني مرَّةً أخرى إنسانًا؟!.. هل من سماءٍ أتجلَّى بها نورًا ونارًا؟!]

أنهى تسجيل بطاقته الصوتيَّة بصوته المرير، عازمًا على التوجُّه إلى المختبر من أجل استئناف مسيرة عمله اليومي المكتظّ بالتفاصيل والأحداث. لم يكن المختبر يعجّ بأعضاء البعثة، وإنَّما كانوا قلَّةً منغمسين بتصنيف وتوثيق كمِّيَّةٍ متواضعة من اللقى الأثريَّة التي استخرجوها اليوم من موقع الحفريَّة. أمَّا هو، فقد انشغل بتنظيف القطع الفخَّاريَّة بالفرشاة، هو الذي يهوى القطع الفخَّاريَّة؛

لأنَّها على درجةٍ عاليةٍ من الثرثرة بتاريخها العتيق، فكلّ قطعةٍ فخَّاريَّةٍ تُستخرج من جوف الأرض كفيلةٌ بتجنُّب المزيد من الجهد لاكتشاف مصائر الموقع الذي يجري التنقيب فيه وأحواله، الفخَّار أرشيف الماضي الذي لا يفوته تسجيل معظم الوقائع التي ألمَّتْ بحقبةٍ تاريخيَّةٍ معيَّنة.

بدَّدتْ أيالا انسجامه بالتنظيف، جاءت باحثةً عنه في المختبر، قائلةً له والحماس يملأها:

ـ هل وصلتك الأنباء الواردة من أورشليم؟

ـ كلَّا.. ماذا هناك؟

أجابته ممعنةً بحماسها وتأثُّرها:

ـ يقولون: إنَّ حركة حماس الإرهابيَّة منحت حكومتنا مهلةً حتى السادسة مساءً، لمنع مسيرة الأعلام المنويّ إقامتها بعد قليلٍ بالبلدة القديمة في أورشليم.

خفق قلبه بشدَّة، ثم قال مدَّعيًا الاستنكار:

ـ حماس تُعطي دولة إسرائيل مهلة.. حماس؟!

أجابته بهياجٍ شديد:

ـ لن نرضخ لهؤلاء الإرهابيِّين.. فقد أعلنت الحكومة أنَّ السيادة في القدس يهوديَّة، وأعلام إسرائيل سترفرف خفَّاقةً في سمائها وأنحائها كافَّة.

ـ طبعًا.

ـ هيَّا.. قم بنا نمضي إلى قاعة المؤتمرات.. فالجميع هناك

محتشدون أمام شاشة العرض الكبيرة بانتظار الساعة السادسة. هيَّا.. لم يتبقَّ سوى سبع دقائق.

اعتقد أور للحظة أنَّها تمازحه، غير أنَّه ما لبث أن طرد هذا الاعتقاد بقول أحد زملائه بالمختبر: إنَّ بريان قرَّر تأجيل محاضرة الساعة السادسة إلى يوم الغد، بسبب الأنباء الساخنة الواردة من القدس، فانتفض عن كرسيِّه هارعًا برفقة أيالا نحو قاعة المؤتمرات.

كانت الأجواء مفعمة حقًّا بالترقُّب والإثارة، وتعجّ بها القاعة بغالبيَّة أعضاء البعثة، الذين كانوا يحدِّقون باهتمامٍ شديد بشاشة العرض لمتابعة التغطية الحيَّة المباشرة للقناة الثالثة عشرة الإخباريَّة الصهيونيَّة، التي كانت تنقل الأحداث الساخنة في منطقة باب العمود، مضفيةً على الحدث المهمّ عنوانًا مثيرًا أسفل الشاشة مفاده:

«حماس تُعطي إسرائيل مهلة حتى السادسة»

التفت نور حوله كعادته باحثًا عن سماء؛ ليصطدم بالتفاتتها نحوه، هي الواقفة بجانب أحد الطلَّاب على بعد عدَّة خطوات على يساره، شعر أنَّها كانت تترقَّب وصوله؛ لتُراقب تفاعله وتأثُّره إزاء تطوُّرات الأوضاع في القدس، وارى حضوره متجنِّبًا نظراتها بأيالا التي وقفت بجانبه مشرئبَّة العنق تتطلَّع بلهفةٍ نحو الشاشة، وما إن دقَّت الساعة السادسة معلنةً عن انتهاء مهلة حماس حتى ساد الصمت المشوب بالترقُّب أجواء القاعة، ثم سارت الثواني، زحفت.. خمس.. عشر.. خمس عشرة ثانية أعقبها دويٌّ عنيف. دويُّ صفَّارات الإنذار في القدس التي أنذرت بقرب

وصول رشقة صاروخيَّة أُطلقت من غزَّة نحو القدس.

ساد القاعة هرجٌ ومرجٌ وشهقاتُ دهشةٍ وهمهماتُ استنكار.. التفت إلى يساره مختلسًا النظر إلى سماء دون أن يسترعي انتباه أيالا، كان طيف ابتسامة قد تلبَّس وجهها. اصطاد نور الطيْف حين التفتت نحوه ورمقته للحظات، تلاها انسحابها المفاجئ من قاعة المؤتمرات، في حين مالت أيالا على أور فاحتضنها مواسيًا:

ـ لا عليكِ يا عزيزتي.. إنَّها مجرَّد صواريخ تحذيريَّة، ولن تُصيب أحدًا.

شرعت بالبكاء دافنةً نشيجها في صدره، ثم قالت بصوتٍ مختنق:

ـ هؤلاء المخرِّبون الإرهابيُّون لقد نجحوا بتفريق مسيرة الأعلام.

ربَّت أور على ظهرها بحنان، أمَّا نور فقد كاد ينفجر في داخله من شدَّة التأثُّر ممَّا حدث قبل لحظات أمام عينيْه من دويِّ صفَّارات الإنذار، وتلك الابتسامة التي رمته بها سماء أثناء خروجها من قاعة المؤتمرات.

ثم تفلَّت من عناق أيالا متمنِّيًا عليها بكلِّ حنان أشكنازيّ الذهاب إلى حجرتها لتنال قسطًا من الراحة قائلًا بشجاعةٍ وثبات:

ـ سيردّ جيشنا على هذه الغارة بغاراتٍ مهولةٍ.. لا تقلقي يا عزيزتي.

* * *

دلف إلى حُجرته بعد أن مكث أكثر من ساعة في قاعة المؤتمرات، وهو يتابع باهتمام تطوُّرات الأوضاع، التي كانت تنقلها القنوات الإخباريَّة الصهيونيَّة، دون أن ينال من حضور سماء، التي لم تعد من حُجرتها إلى القاعة التي سادتها أجواء الإثارة والدهشة.

وما إن ارتمى فوق سريره حتى انبعث أور ساخطًا غاضبًا:

ـ سعيد أنت الآن أيُّها المخرِّب الصغير، أليس كذلك؟

ـ ولِمَ لا أكون سعيدًا؟

ـ هذا يعني أنَّك تؤيِّد قصف المدنيِّين الأبرياء وتدمير مساكنهم.

ـ دعكَ من هذه الأسطوانة المشروخة، فالأبرياء يُهجَّرون من بيوتهم في حيِّ الشيخ جرَّاح الآن بسبب صواريخكم الجغرافيَّة المقدَّسة، كما أنَّ غزَّة ستحترق بعد قليل بحمم قصفكم لها.

ـ لا يمكن أن نتحاور إذن.

ـ بل يمكننا.. فأنا لا أتغذَّى على دماء المدنيِّين الأبرياء من أيِّ جهة كانوا.. لست مصَّاص دماء.

ـ وكيف ذلك؟

ـ أور.. ما رأيك بي بعد مرور ثلاث سنوات على لقائنا الأوَّل في سوق الخردوات في يافا؟ ما رأيك بي الآن في هذه الأيَّام الأخيرة التي التصقنا بها معًا بشدَّة؟

ـ ...

ـ أجبني لماذا صَمَتّ؟

ـ . . .

ـ ألا تعتقد أنَّني إنسانٌ ولست مجرَّد كائنٍ بلا اسم وملامح. . كائنٍ مصنَّفٍ مسبقًا بوصفي إرهابيًّا أو مخرِّبًا؟!

ـ أنت أصبحت إنسانًا خلال هذه المدَّة بفضلي أنا. . بفضل هويَّتي.

ـ فإذا ما نزعتُ قناعك الآن، أفلا أصير إنسانًا؟

ـ . . .

ـ أجبني. . أرجوك.

ـ حسنًا. . لا أعلم. . ربَّما! لكنَّني أخشى من اختفائي أنا إذا ما أصبحت أنت إنسانًا.

ـ فإذا ما حدَّقت أنت بالمرآة الآن، فمن سترى؟

ـ سأراك أنت.

ـ بل سترى إنسانًا.

استعاده من حوار هذيانه هذا رنين هاتفه؛ ليعلمه بتلقِّيه رسالةً عبر تطبيق «الواتس أب».

(أعضاء بعثتنا الأعزَّاء. .

يؤسفنا إعلامكم بتلقِّينا إخطارًا من قيادة الجبهة الداخليَّة الإسرائيليَّة، تمَّ إبلاغنا فيه بضرورة وقف العمل في موقع حفريَّة الفيلق السادس. . وذلك بسبب الأوضاع الأمنيَّة المتوتِّرة، وإمكانيَّة إطلاق المزيد من الصواريخ التي قد يصل مداها إلى

محيط «كيبوتسات مجلس يزراعيل الإقليميّ».

وبناءً عليه، قرَّرت إدارة ومعهد أولبرايت وسلطة الآثار الإسرائيليَّة تعليق العمل بموسم التنقيب حتى إشعار آخر.. مع العلم أنَّه تقرَّر عقد جلسة تقييم أخيرة لأعمال التنقيب غدًا الأربعاء الموافق ـ 12 أيَّار في تمام الساعة التاسعة صباحًا في قاعة المؤتمرات.. يتلوها تأمين مغادرة كافَّة أفراد البعثة كيبوتس مشمار هعيمق.

وتفضَّلوا بقبول فائق الاحترام

البروفسور بريان مور،

المشرف العامّ على موسم التنقيب

الثاني في موقع الفيلق الرومانيّ السادس)

ختم قراءته لقرار إدارة المعهد بضحكةٍ مجلجلة، أدَّت إلى تحطيم المرآة الكبيرة المعلَّقة مقابله على جدار حمَّام الحجرة، ثم قرَّب الهاتف من فمه ليسجِّل بطاقة صوتيَّة جديدة. تنحنح متأهِّبًا للبوْح، إلَّا أنَّه هزَّ رأسه بأسى ملقيًا بالهاتف فوق المكتب، ثم استلقى على ظهره مستجيبًا لجذبه رقاده، بعد أن حُجب أور الظاهر وتجلَّى نور الباطن.

لفَّه ندى الصمت، صمت الساعة السادسة صباحًا، هو الذي انسلَّ من حُجرته بهدوءٍ وحذرٍ، حاملًا حقيبته الضخمة على ظهره. خرج من المبنى السكنيّ، لتحيط به مستوطنةٌ خاوية على عروشها. التفت حوله متأمِّلًا بتفاصيلها: مبانٍ سكنيَّة، بيوت،

أعمدة إنارة، مزارع، معامل، حظائر، صمت، ملعب لكرة السلَّة، كتف جبل، نصب تذكاريّ مدمّر جزئيًّا، أشجار باسقة، حفيف، سيَّارات مركونة بجانب الأرصفة، سكون.

ثم سار في طريقه نحو الخروج من هذه المستوطنة، ووقتها الذي تدفَّق فيه طيلة الأيَّام الماضية. بلغ بوَّابتها الرئيسيَّة، توقَّف عند حُجرة الأمن الخاصَّة بناتان خودورفسكي، الذي هبَّ عن كرسيِّه عندما شعر بوجوده، مُقلعًا عن استنفاره الأمنيّ للحظات، أعقبها إلقاؤه تحيَّة الصباح على أور، معلِّقًا ما بين سخريةٍ وجدِّيَّة:

ـ أراك في عجلة من أمر رحيلك سيِّد شابيرا؟ هل تمَّ استدعائك لقوَّات الاحتياط استعدادًا للحرب؟

فأجابه أور بابتسامة واثقة:

ـ أنا على أتمِّ الجاهزيَّة في أيِّ وقت.

ـ جميعنا كذلك.

ثم تصافحا بحرارةٍ وقوَّة، مصافحةً أعرب أور، من خلالها، عن امتنانه لحسن استقبال ناتان ومجلس الكيبوتس لبعثته التنقيبيَّة، ثم ودَّعه منعطفًا يمينًا ليسلك رصيف الشارع رقم 66، وما إن سار بضع خطوات حتى باغته ناتان بهتافه مداعبًا:

ـ لا تنسَ تجديد بطاقة هويَّتك يا أور شابيرا.

رفع أور يده مشيرًا بإبهامه إشارة استعداده لفعل ذلك، دون أن يلتفت ناحية ناتان، أو أن يخشى للحظةٍ واحدة من حسِّه الأمنيّ العالي، فهو لم يكن خائفًا كما دخل المستوطنة أوَّل مرَّةٍ، إذ يخرج منها الآن واثقًا مطمئنًّا بعد أن نال ما كان يشتهيه، هكذا كان يعتقد.

لم يكن الشارع مزدحمًا بالمركبات والسيَّارات، بل كان شارعًا صباحيًّا ينعم بأجواء الأراضي الزراعيَّة لسهل مرج بن عامر. سار وعلى ظهره حقيبته ببطءٍ وسكينة، رأسه منكَّس بالأرض، كان ينقِّبها متأمِّلًا بماضيه القريب الذي خلَّفه وراءه. لم يلتفت. أصرَّ على الثبات تقدُّمًا نحو الأمام، إلى أين؟ لم يكن يعلم.

سار بضع عشرات من الأمتار على هذه الحال دون أن ينتبه إلى سيَّارة بيضاء من نوع «هونداي» كانت آتية من خلفه خارجةً من مستوطنة مشمار هعيمق، إلى أن مالت السيَّارة يمينًا نحو الرصيف لتحاذيه متباطئةً في سرعتها مطلقةً بوقها الصاخب مرَّتيْن، فجفل هو مرتدًّا خطوتيْن إلى الوراء ثم تجمَّد بمكانه مع تجمُّد حركة السيَّارة.

اعتقد للحظة خاطفة أنَّ ناتان اكتشف أمره وأصله. شرع يتمالك نفسه مدقِّقًا في هيئة السيَّارة دون أن يستدلّ على ملامح الهيئة الجالسة خلف مقودها، إلى أن فُتح بابها الأماميّ الأيمن، ليصدر عن الهيئة صوتٌ فلسطينيٌّ أنثويٌّ مبحوح نزل عليه بردًا وسلامًا وسماء:

ـ هيَّا.. اصعد أيُّها المجنون. لقد صدَّقتك. صدَّقتك بالأمس فقط.. ولن أتركك وحدك في هذا الطريق؛ فالبلد كلّها اشتعلت. هيَّا.. اصعد يا نور، ماذا تنتظر؟

يقف قبالة الباب المفتوح مذهولًا، يخلع حقيبته عن ظهره، ينحني ليشاهد سماء إسماعيل، يتأمَّلها للحظاتٍ لا مكان للحلم في حقيقتها، ثم ينتصب واقفًا مرَّةً أخرى. ينزع قلادة نجمة داود من عنقه، يلقيها بعيدًا نحو السهل المحاذي للرصيف، ينتشل بطاقة الهويَّة المزوَّرة من جيبه، هويَّة أور شابيرا، يستعرضها أمام ناظريْ سماء، ثم يمزِّقها بعنف ليلحقها بالقلادة. لا ينبس ببنت شفة، تدمع عيناه، يُخرج هاتفه من جيبه، يُعيد برمجته إلى اللغة العربيَّة، ويضع حقيبته في مؤخِّرة السيَّارة، يتنهَّد بحرارة ثم يصعد جالسًا بجانبها، يحدِّق بها بتأثُّرٍ عميق، يغلق الباب، ثم يقول لها قبل انطلاقهما معًا هامسًا بكلِّ ما أوتي من لغته العربيَّة المستعادة:

ـ أنتِ هويَّتي ومآلي.

ـ تمَّت ـ

9 تشرين ثاني ـ 2021

سجن جلبوع الكولونياليّ

مكتبة
t.me/soramnqraa

شكر وعرفان

لم تكن هذه الرواية لتحقِّق واقعها الخياليّ لولا رعاية وجهد الدكتور الحيفاويّ البهيّ جوني منصور، الذي زوَّدني بالبيانات الخاصَّة بمستوطنة مشمار هعيمق وقرية اللجُّون المهجَّرة وثورة باركوخبا وموسم التنقيب عن الفيلق الرومانيّ السادس ومعهد أولبرايت للأبحاث الأثريَّة. مع العلم أنَّني وحدي أتحمَّل المسؤوليَّة عن معالجة هذه البيانات روائيًّا.

كما أنَّني أتقدَّم بخالص الشكر والتقدير من أخوة ورفاق الأسر من أبناء القدس الأبيَّة الذين أحاطوني بالرعاية والاهتمام والمعلومات.. وأخصّ بالذكر الرفيق ممدوح عميْرة خرِّيج معهد الآثار الإسلاميَّة من جامعة القدس، الذي أحالني بمعلوماته الثمينة إلى منقِّب آثاريّ؛ والأخ سند الطرمان الذي أذهلني بدقَّة ملاحظاته ومعلوماته العابقة بإحساسه الروائيّ لتفاصيل القدس وجغرافيَّتها.

باسم / تشرين الثاني 2021